

394

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال

تــألــيــف: أمادو همباطي با

ترجــمــة: أ. محمد بنعبود

مــراجــعــة: أ. عبود كاسوحة

أبريل 2013

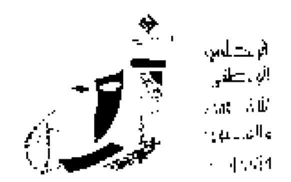


الفنانتان: وفاء النشاشيبي ورانيا الحكيم

لوحة من كتالوج جدليّة الإنسان والأرض

أكريليك وزيت

200 × 150 سم



حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال

تــــألـيـــف: آمادو همباطي با

ترجمة وتقديم: أ. محمد بنعبود

مـراجـعـة: أ. عبود كاسوحة

• حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال

العنوان الأصلي:

Contes des Sages d'Afrique
by: Amadou Hampâté BÂ

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 394

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الفهرس



مقدمة المترجم

عندما ولجتُ، منذ أكثر من أربع سنوات، مكتبة «خدمة الكتاب» بشارع علال بن عبد الله بالرباط، كنت أريد فقط أن أقتني كتابا أصرف به بعض الوقت من ليلة كنت مرغما على تمضيتها بالعاصمة المغربية، لأمر أقضيه. تصفحت الرفوف تباعا، باحثا عن عنوان أو اسم كاتب يستهويني، لأنني لم أكن أقصد أن أشتري عنوانا بعينه؛ كنت أريد فقط أن يكون الكتاب سرديا؛ روائيا أو قصصيا. رأيت على رف أرضي مجموعة كتب شبه مهملة، انحنيت للنظر في أغلفتها فقرأت، بالفرنسية، على غلاف أحدها، اسم «أمادو همباطي با» والعنوان، بالفرنسية أيضا «لا وجود لخصومات صغيرة». نظرت في غلافه وفي اسم صاحبه وفي بعض أسطره الداخلية، فاستنتجت أنه يدخل في «إطار» ما أبحث عنه: «حكايات أفريقية»؛ واسم أفريقيا، كما أعتقد، يبقى من أكثر الأسماء تلفعا بأسراره وأساطيره... فأديت الثمن وخرجت مستعجلا معرفة العوالم التي ينسج الكتاب منها وفيها حكاياته. شعرت، أثناء القراءة، بأنّ الكتاب يستحقّ أن أتقاسمه مع قرّاء العربية، فقررت أن أترجمه؛ وبعد أن فكّرت في الجهة التي أقترح عليها نشره، قررت أن أرسله إلى سلسلة «إبداعات عالمية»، على اعتبار أن داريْ النشر اللّتين كنت أتعامل معهما، حتى تلك اللحظة، لهما اهتمامات أخرى، من جهة، وأصحابها هم الذين يقترحون عليّ ما أترجمه، من جهة أخرى.

ترجمت الكتاب، بعد أن قرأته، بهمة واسترسال لا يتيسران إلا عندما يكون المترجم يحب ما يترجم... راجعت الترجمة واستنسخت الأصل الفرنسي وأودعت الغلاف البريدي المترع بريدَ مدينة العرائش، ذا الطراز الإسباني الشاهد على مرحلة كانت فيها هذه المدينة تحت حكم استعماري بقيت منه بنايات جميلة قليلة وكثير من أصداء حكايات فيها من الواقع بقدر ما فيها من خيال... مروقت ووصلتني، على بريدي الإلكتروني، رسالة قصيرة من سلسلة «إبداعات عالمية» يخبرونني فيها أن العمل قصير ويحتاج إلى «دعم» بحكايات أخرى للكاتب نفسه أو لكتاب أفارقة آخرين... لكن كيف الحصول على كتاب آخر للكاتب نفسه، بل ولكتاب أفارقة يهتمون بجنس الحكاية؟ زرت مكتبات وسألت عن أمادو همباطي با، فلم أتلق أي صدى لسؤالي، سوى لَيِّ الشفاه، دلالة جهل تام بصاحب الاسم. استنجدت، كما يحصل للكثيرين، في أيامنا، بالشبكة العنكبوتية، فعثرت على عناوين كثيرة لكتب حكايات أفريقية، من بينها كتب لأمادو همباطي با... لكن لا إمكانية لابتياعها عن طريق الشبكة، مادامت الإجراءات التي تمكن من ذلك معدومة. حصلت، مع ذلك، على حكايات من مواقع مشاعة، تنسجم مع «رؤية» همباطي با، فترجمتها وأرسلتها، لكن بقي في البال عطش لحكايات يرويها حكَّاء متمكن من صنف أمادو. وهنا جاءت الفكرة (المفتاح)، حيث بعثت برسالة إلكترونية قصيرة إلى صديق يُدَرِّس بفرنسا (الأستاذ عبد اللطيف القرشي) أضعه في سياق ما أنا فيه، فكانت استجابته أروع مما انتظرت... أتاني،

عندما قدم في عطلة دراسية، بعدة كتب لأمادو همباطي با. وحكى لي كيف توجّس السؤال عن كتب لهمباطي، ففوجئ بأن الكتاب الفرنسيين يعرفونه ويرفعون من شأنه مثل أو أكثر مما يفعلونه مع كبار الكتاب العالميين.

قرأت عناوينها وتصفحتها، ثم استقر رأيي على أن أترجم أسطورة «كايدارا» الواردة في كتاب «الحكايات التلقينية الفولانية»، وأرسلت الترجمة لتُضم إلى الحكايات المترجمة سلفا فنُشر الكل في كتاب بديع اختيرت لغلافه لوحة فنية دالة ومنسجمة تماما مع مضمونه، مما زاده رونقا وجمالا (العدد ٣٧٢ يونيو ٢٠٠٨).

والحقيقة أنني لم أكن أنتظر تلك الحفاوة التي استقبلته بها وسائل إعلام مكتوبة، ورقية وإلكترونية متعددة، على طول خارطة البلاد العربية؛ تحليلا واحتفاء بمضامينه الإنسانية الراقية... بل زادني اعتزازا أنْ وجدت على بعض المواقع قراء ينصحون قراء آخرين بقراءة الكتاب... وهناك من اتخذ قولة همباطي با «عندما يموت مسن في أفريقيا، فإن ذلك يكون بمثابة احتراق مكتبة» شعارا كي ينبه إلى ما يحيق بحكايات أو بأمثال أو خرافات بلده من مخاطر، بسبب عدم تسجيلها حتى تبقى ذخيرة للأجيال القادمة... بل اتخذ بعض القراء الكتاب برهانا لمحاججة المتزمّتين في بلدهم، عندما يُنصّبون أنفسهم أوصياء على فكر وآداب أمّتهم، ويحظُرون نشر حكاياتها وخرافاتها لما تحمله من قيم يرونها، بغباء ويعمى للبصيرة، مناقضة لقيم الأمة. وابتهجت، أيضا، عندما وجدت أحد الدّكاترة المختصين

يحلل، على صفحات جريدة الأهرام المصرية العتيدة، حكاية من الحكايات الواردة في الكتاب، وهي حكاية «أصل الطلاق» تحليلا سوسيولوجيا أكاديميا رصينا. وعلى الرغم من أنه لم يشر لا إلى السلسلة ولا إلى المترجم، فقد التمست له العذر، وقلت إن قيمة صنيعه تحجب سوء تصرفه.

جراء هذا التداول المتواتر، والذي عكسته كتابات متعددة كما قلت، ولعشق خاص أصبت به من حكايات أمادو همباطي با ومن طريقته في بناء أو إعادة بناء حكايات الشعب الفولاني المسلم والمنتمي إلى دولة مالي، وغيره أحيانا، استهوتني فكرة أن أترجم جزءا آخر من حكاياته الكثيرة والمتنوعة. وقد اخترت الأسطورة الثانية الواردة في الكتاب المومأ إليه أعلاه «حكايات تلقينية فولانية»، وهي حكاية نجدو ديوَال، أمُّ الكارثة»؛ واخترت معها الكتاب الصغير الشائق «حكايات حكماء أفريقيا».

وسواء تعلق الأمر بأسطورة نجدو أو حكايات الحكماء(*)، فإن أمادو همباطي با يواصل مهمته في تمرير قيم إنسانية سامية، يتقاسمها البشر باختلاف ألوانهم وأعراقهم وثقافاتهم، على لسان حيوانات، في الغالب، وعلى لسان بشر في علاقتهم بهذه الحيوانات؛ ضمن حكايات تمتزج فيها أحداث قد توهم أحيانا بالواقعية، لكنها في الغالب تتخذ طابعا عجائبيا للخيال فيه أجنحة.

(*) استغنيت عن ترجمة بعض الحكايات الواردة في هذا الكتاب «حكايات حكماء أفريقيا»، لأنها واردة أيضا في كتاب «لا وجود لخصومات صغيرة»، المترجَم سلفا (انظر العدد ٣٧٢ يونيو ٢٠٠٨ من سلسلة إبداعات عالمية) (المترجِم).

غير أن ما يميز أسطورة «نجدو ديوال» هو كثرة أحداثها وتسلسلها، لتنسج، في النّهاية، حكاية تقتَعد الثنائية الخالدة في حكايات وخرافات أفريقيا وبقية الأمم، وهي ثنائية الخير والشر، ويقوم بناؤها على لحظات أربعِ أساس:

١ - يتمتع شعبٌ (هو الشعب الفولاني) برضا إلهه، فتبرزه الحكاية ينعم بحياة مترفة متمتّعا بكل الخيرات التي يمكن لأرض، في عصر سحيق، أن توفره لقوم يعيشون عليها مطيعين منسجمين مع النواميس الكونية الآمرة دوما بإيتاء الخير ونبذ الشر.

٢ - يطغى القوم ويجحدون النعم التي يرفلُون فيها ويجردونها من أية دلالة ربانية: اعتبروا أن ما هم فيه من ترف أمر من حقهم، لا يد لأية قوة ميتافيزقية فيه، وبالتالي، فإن تغيير السلوك لن يؤدي إلى أي تغيير في النعم المتوافرة لهم. لذلك، وكأنهم المعنيون بقول الحق: «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»، سيسعون إلى التمادي في الهرولة وراء اللذات، غير عابئين بالحدود التي هي شرط استمرارهم في تنعُّمهم، فزنوا، وسرق كبيرُهم صغيرَهم، وغنيُّهم فقيرَهم، وأزروا بكل قيمة اجتماعية أو أخلاقية.

٣ - يغضب الرب منهم ويقرر إنزالَ العقاب بهم فيسلط عليهم مخلوقا لا كالمخلوقات؛ مشوها وشريرا وذا طاقات خارقة، قادرا على تحطيم مساكنهم وحبس نعمهم؛ مستلذا رؤيتَهم يُسامون العذاب ويقاسون الشقاء.

٤ - يرأف الرب بهم من جديد، ويبعث بفتى مبارك ليدخل مع المخلوق الشرير، رغم حداثة سنه، في صراع طاحن ينتهي

بانتصار الخير على الشر، وإيقاف معاناة القوم، لأنهم قد استوعبوا الدرس، وقرروا ضِمنا عدم العودة إلى معاقرة الشرور والآثام.

وبين بداية هذه الحكاية ونهايتها، يخضع القارئ اليوم (والمستمع الصغير أو الكبير، قديما، عندما كانت أفريقيا ماتزال تعتمد في تعليم أبنائها، كما يؤكد أمادو همباطي با، على تلقين هذه الحكايات شفويا)، إلى عملية استدخالٍ واعية أو لا واعية لأضمومة متكاملة من قيم الخير، كما يكون في الوقت نفسه خاضعا لعملية طرحٍ نفسي متواتر للقيم الرديئة المشينة الشريرة.

وهكذا نجد في حكاية نجدو ديوال، من جهة، قيم الإيثار والتضحية بالذات في سبيل المنفعة العامة والتواضع والكرم والبذل والعلم والعطف والرحمة وإغاثة الآخر... كما نجد، من الجهة المقابلة، كل سلوك ينبذه العقل ويمجه الطبع السليم،مثل الكراهية والحقد والحرص على المنفعة الشخصية والغدر والجهل والإيذاء والكيد والقسوة وحب التدمير والحسد.

أما «حكايات حكماء أفريقيا» العشر، فتأتي في الكتاب، من جهة، بمنزلة تلوينات رائقة على هذه القيم نفسها، تجلية وإبرازا؛ كما «تعالج»، من جهة أخرى، قيما جديدة، شرا وخيرا: تبرز حكاية «المبرر المقيت للضبع – الأب»، مدى ضعف النفس الذي يسكن أفئدة بعض الكائنات، حتى لتصبح، في لحظة، متحللة من كل التزام أخلاقي أو اجتماعي، بل حتى ليصبح الأب أقسى على ابنه من أي أجنبي متوحش؛ أما حكاية «الكذبة

التــي أصبحــت حقيقــة»، فتُلفت، علــى الرغم مــن قصرها، إلى صَغَــارِ الكائنــات أمام الوهــم، حتى لَقد يكذب الفــرد، ومن فرط مــا يكــرر كذبته، ينخدع هو نفســه بها فيصدقهــا؛ وتلمح حكاية «خيــارات الناســك الثلاثــة» إلــى قصــة آدم وحــواء... الأنثــى، بإغوائها، قد تكون، أحيانا، ســببا في إخراج الذكر من الجنة، بل ســببا فــي خروجها، هي أيضا، معه منهــا؛ وإذا كان المتن الحكائي في «الأزواج... لماذا هم على هذه الحال؟» يقوم على «حيلة ربانية» لجعــل المــرأة الضعيفة زوجــة للرجل القــوي والرجــل الضعيف زوجا للمرأة القوية، فإن القصد أبعد من ذلك. ورد في الحكاية، على لســان إلههــم: «إن وَضعــتُ ذوي القيمة فــي جانب وعديمي القيمــة في الجانب الآخر، ســارت أمور الدنيــا مائلة، مثل حمل موزع بشــكل ســيء علــى ظهر ثورٍ حمّــال للأثقــال. إذْ لن يكون ثمة لا توازن ولا اســتقرار. عند كل انعطافة ســيميل الحمل إلى جهــة واحــدة وســيصبح التحكم في الكون، أصعــب مما هو عليه الأمــر الآن». وفــي حكاية «الشــيطان ومارتاكومبا»، يتــم التركيز علــى ضرورة أن يعرف الفرد منّا مقدار قوته قبل الدخول في أي صراع مع طرف آخر قد يكون أقوى وأشد بطشا. الإلقاء بالنفس إلــى التهلكــة هو جوهر هــذه الحكايــة... فكأن مغزاهــا النهائي هــو القول المأثــور «عاش من عــرف قدره». كما تلمــح إلى ضرورة التــزام الإنســان، أمــام أي حادثة، الهــدوء وعدم التســرع وتفادي الحكم على الشيء من مظهره. وتنبه حكاية «الشيطان والمعرض - الكارثــة» إلى عناد الإنســان وانســياقه وراء حــالات ضعفه من حســد وتبجــح وجحود... ولا يســلم من ذلك حتــى رجال الدين

المفـروض فيهـم التواضعُ والأثرة ونبذ الإسـراف في أي سـلوك. وتلقِّن حكاية «دجينا نبارا، الجني المقعد» درسا في التواضع وفي ضرورة تجنب الغرور، بل وتبرز فضائلَ تفريغِ النفس والقلب من أثقالهما عن طريق الإسـرار بمكنونهمـا، خصوصا عندما يكون هـذا المكنون سـببا في عقـدة ذنب تبقى قابعة فـي جوهر الكائن كأنهـا بومـة تتحيّن فرصـة تفكيك «البناء البشـري» الذي تثوي فيـه. ورغـم القِصَر المفرط لحكاية «حفنـة رمل»، فإنها تبقى من بـين أكثـر الحكايات عمقا، من حيث ملامسـتها لحقيقة طبيعة البشـر وقيـاس قدراتهـم علـى تحمـل البذل المسـتمر مـن أجل الآخرين... إنهم يصبحون أحيانا غير قادرين على الاسترسـال، يوميـا، حتى في تقديم حفنـة رمل بلا قيمة، إلى الآخَر المحتاج، فبالأحـرى الاسترسـال في تقديم قـدرٍ مما يكسـبون. وكثيرا ما تهتـم حكايـات أمـادو همباطـي بـا بشـخصية الملك؛ تبـرز هذه الشـخصية، فـي حكاياتـه، بصفة عامـة، متقمصـة لدورين: دور الخيـر ودور الشّـر. وإذا كانـت حكايات همباطي تبـدي كثيرا من التقديـر للملـوك المتواضعين العالمـين أو المسـتعينين بالعلماء، فإنها في المقابل تقدم شخصية الملك الطاغية، باستمرار، بشكل كاريكاتـوري، كأنها تريد أن تفرط في إبراز سـلوكاته المشـينة كي «تُصْلِحَـه» أو تربيـه أو تعلمه. كناية عـن الملك الذي يتقمص دور المتواضع السـاعي إلى المعرفة، وبالتالي إلى العدل، يحكي أمادو همباطي حكاية «درس في الخضوع»، وتلميحا لنوع الملوك الثاني يحكـي حكايـة «الملك والرجل الأحمق» ليشـير، إلى أن سـلوكات الملك الطاغية بعيدة عن كل عقل وكل تعقل، ولا يبقى بعد ذلك،

إفراطا من أمادو همباطي با في سخريته، إلا أن يقيِّض له رجلٌ فاقد لعقله، لتستوي الكفتان: لاعقلانية الطاغية، يعادلها سلوكٌ عدواني لفاقد للعقل.

ومهما حاولت في هذا الموجز أن ألقي من أضواء على عالم همباطي با الحكائي، فإنه يبقى، بالتأكيد، أغنى وأشد ثراء، وعصيّا على أية محاولة للإحاطة به وتقديمه في صورة نمطية، يكفي أن نستحضرها كي نستحضر عوالمه التخييلية. إن ثراء عوالمه الحكائية يشبه إلى حد بعيد ثراء القارة التي تصدر حكاياته عنها... بل تبقى حكاياته، دائما، في حاجة إلى استكشاف، تماما كما هيَ أمّها أفريقيا في حاجة إلى استكشاف مستمر.

وممّا يزيد أعمال أمادو همباطي با ثراء، اهتمامه الباذخ بالهوامش. سيلاحظ القارئ، لا شكّ، أن أمادو همباطي يحرص على الوقوف على كلّ كبيرة وصغيرة، في محاولة منه لجعل قارئ أعماله على بيّنة من الأجواء الأفريقية الأصيلة التي تدور فيها حكاياته، فتراه يلقي أضواء على أنواع النباتات المشار إليها في الحكايات وعلى أصناف الحيوانات، منبّها إلى دلالاتها ورمزيّتها، سواء عند الشّعب الفولاني الذي ينتمي إليه أو لدى الشّعوب الأفريقية الأخرى، وبالخصوص الشّعوب الجارة. كلّ هذا يحيل هوامشه تلك مصدرا ثرّا للمعرفة بأفريقيا؛ للمعرفة بتاريخها وبعادات سكّانها وسلوكاتهم، وبعلاقاتهم ببقية الكائنات، وبالخصوص بالحيوانات التي سيلاحظ قارئ هذه الحكايات أنّ لها مكانة مركزيّة لدى الأفريقي، ليس بوصفها مصدرا أساسا

لمعيشه اليومي فقط، بل لرمزيّتها ولدلالاتها (الخفيّة، كما يحبّ هو أن يعبّر)، سواء من حيث استعمال بعضها في أعمال سحريّة، لكونها، كما يقول، «مشحونة»، أو من حيث التّبرك ببعضها الآخر واعتباره رمزا لفأل الخير وللبشرى.

ويبقى أن أشير، في النهاية، إلى أن من الشيق بالفعل أن تكون لمقطع من أسطورة «نجدو ديوال، أم الكارثة» - وهو مقطع صراع الفتى باغوماويل مع نجدو ديوال والنّيل منها عن طريق إلحاق الأذى ببناتها - شقيقةٌ أوروبية، تحمل أغلبية ملامحها ؛ وأقصد بها حكاية «الأُبَيْهِم الصغير» - انظر تقديم همباطي با لأسطورة نجدو ديوال، بهذا الكتاب، مع ملخص موجز أنجزتُه للحكاية، في الموضع نفسه - إن هذا الكشف العجيب؛ هذا التشابه، بل التطابق، ليحتاج بالفعل إلى أبحاث تسبر أغوار تاريخ الإنسان، في أزمنة سحيقة... انعدمت فيها وسائل الاتصال، حتى بأشكالها البدائية، لكن مع ذلك تقاسمت البشرية، على الأقل، أساطير ومعتقدات... أليس ممتعا بالفعل هذا الغموض؟ أليس هذا الغموض منجما ثرّا لتساؤلات تبقى أفيد من إجاباتها المحتملة؟

محمد بنعبود. العرائش

٢٠١١/١٢/١٠

سيرة أمادو همباطي با

● ولد أمادو همباطي با، المتحدر من أسرة (فولانية – منطقة بمالي) أرستقراطية، سنة ١٩٠٠ بمالي.

● كاتب ومؤرخ وعالم أنساب وشاعر وراوي حكايات.

● أحد كبار الاختصاصيين في الثقافة «الفولانية» وفي التراث الأفريقي.

● يعتبر أمادو همباطي با – الذي اشتغل، منذ سنة ١٩٤٢، باحثا في المعهد الفرنسي الخاص بأفريقيا السوداء والذي يوجد مقره بدكار – أحد المثقفين الأفارقة الأوائل الذين عملوا على جمع وتدوين وتفسير كنوز الأدب الشفوي لأفريقيا الشرقية: حكايات وخرافات وأساطير.

● لفت الانتباه سنة ١٩٦٢، بالمجلس التنفيذي لليونسكو الذي اشتغل به منذ ١٩٦٠، إلى الهشاشة القصوى للثقافة القديمة الأفريقية بإطلاقه لصرخته الإنذارية التي أصبحت مشهورة: «عندما يتوفى رجل مسن بأفريقيا، فإن ذلك يكون بمنزلة احتراق مكتبة».

● ألف أمادو همباطي با حكايات وكتب تاريخ وأبحاثا دينية ويوميات...، وتوفي بأبدجان في مايو سنة ١٩٩١.

حكايات حكماء أفريقيا

خيارات الناسك الثلاثة

«حكاية فولانية»

غادر ناسك تقي شؤون الناس، وذهب كي يلتجئ، رفقة زوجته، إلى مغارة تقع على خاصرة جبل شاهق. وثمة، ظل يصلي طيلة يومه ونهاره، لا يأكل إلا القليل، ولا يقرب أيّا من متع الحياة. أشفق الله على ناسكه، فأرسل إليه ملاكا من السماء.

أنعم الله على الناسك، بأن يحقق له أقرب ثلاث أمنيات إلى قلبه.

ذهب المتعبد للقاء زوجته. حكى لها الحدث العجيب الذي حصل له لتوه وطلب منها أن تخبره بما يجب طلبه من الله تعالى. والحال، أن زوجة الناسك كانت شديدة الدمامة، فقالت لزوجها: قبل أي شيء، اطلب من الله أن يجعلني جميلة؛ أجمل من غزالة الصحراء وأنصع من نجمة الصباح وألين من قصب ضفاف الوادي الكبير المزهر. فأنا، بدمامتي، لست جديرة برجل متعبد نال فضل ربه. إن من سيأتون كي يتخذوك قدوة، عليهم أن يجدوني إلى جانبك مثل حورية من حوريات الجنة! أما بالنسبة إلى الخيارين الآخرين اللذين علينا أن نطلبهما من الله، فسننظر في شأنهما لاحقا.

عاد الناسك إلى الملاك وقال له:

«عد إلى سيدي وربي وقل له إنّني أطلب منه أن يعيد خلق زوجتي بمظهر امرأة جميلة بلا نظير».

أعاد الله خلق زوجة الناسك على شكل نموذج الجمال الأنثوي نفسه.

عندما أفاقت المرأة في اليوم التالي ونظرت إلى وجهها في المرآة، لم تستطع أن تتعرف على نفسها. لم تستطع إبعاد نظرتها عن صورتها. بعد لحظات طويلة، انتهت بأن عادت إلى نفسها. وعلى الفور شرعت تجمع أشياءها مستعدة للعودة إلى المدينة.

رأى الناسك، مندهشا، امرأته مُحمّلة بالأمتعة وهي تغادر المغارة، فسألها عن وجهتها:

هل تأملتني مليّا؟ عقبت المرأة. هل يمكنني بهذا الجمال الباهر أن أستمر في العيش في مغارة إلى جوار رجل لا تنزل روحه أبدا إلى الأرض؟ إن كنت تريد أن أظل زوجتك، عليك أن تغادر صومعتك وأن تأتي معي. وإلا فإنني حرة في أن أذهب لأسلّم نفسي لمن سيعرف كيف يقدر فتنتي ويجعلني أتذوق لذائذ الحياة.

غادر الناسك معتزَلَه وسار في أعقاب زوجته.

عندما استقرا في المدينة، لم يتأخر صيت المرأة في الوصول إلى سمع الملك ومجالسيه، إلى درجة أن منزل الناسك، ما انفك، في وقت وجيز، أن أصبح مكان لقاءات صاخبة. أُبعد الناسك عن لقاءات المتعة تلك. وانتهى به الأمر أنْ أُبعد عن مسكنه.

عاد إلى مغارته، خَجِلا ومرتبكا من كونه قد ضحّى بسنوات

طويلة من التعبد والتنسك كي يستجيب لنزوات امرأة. آنذاك تذكر أنه مايزال لديه طلبان يطلبهما من ربّه. أخذ يصلي ويطلب من الله أن يعاقب زوجته الجاحدة والخائنة، وقد استبدت به الغيرة والرغبة في الانتقام، ناسيا فضائل العفو.

استجاب الله إلى دعواته.

صباح اليوم التالي، وعندما استيقظت زوجته في منزلها الجميل ونظرت إلى وجهها في المرآة، وجدت أنها قد تحولت إلى كائن مشوه ومنفر، بحيث حتى الكلاب والقطط إن رأتها فرت من أمامها. هجر العشاق منزل الفجور، وذهبت المرأة المتحولة كي تستجير بأبويها.

على الرغم مما سببته الزوجة لأبويها، بسلوكها، من عار وألم، فإنهما قد قاما بمحاولة لدى الناسك طالبين منه أن يستعمل الطلب الأخير المتبقي في جعل زوجته تسترجع شكلها الأصلي.

لأنَ الناسك وشرع يصلي ويدعو ربه أن يعيد لزوجته مظهرها الطبيعي، فاستجاب لدعواته.

عندما استعادت الزوجة شكلها الأول، خاطبت زوجها، نادمة:

لقد أفسدت، للأسف، الإمكانيات الثلاث التي كانت لدينا كي ننال سعادتنا في الدنيا وفي الآخرة!



الشيطان ومارتاكومبا

«حكاية فولانية»

كان مارتاكومبا قد أنهى لتوه دراساته القرآنية بتفوق. ويوم مغادرته دفعته فجأة نزوةٌ أنْ يطلب من معلمه خدمة: أن يمنحه المفتاح السحري الذي سيسمح له بالتواصل مع الشيطان.

أحزن هذا الطلبُ الرجلَ الناسك، لأنه لم يكن يستطيع أن يرفض طلبا لمارتاكومبا. فهو كان، بالفعل، قد وعد تلميذه، رسميا، بأن يمكّنه من الخدمة التي سيطلبها يوم مغادرته. لقنه، إذن، على مضض، الأبجدية السرية؛ علمه المفاتيح السحرية والصلوات الطقوسية التي ترغم الشيطان على الظهور أمام عيني من يتلوها. اختار مارتاكومبا يوما مناسبا، فصنع مربعا سحريا وفقا للقواعد المُتعلَّمة، ثم توجه إلى سوق القرية، فاستدعى الشيطان ومكث منتظرا.

وها شيخٌ قزمٌ، أعور وأحدب، لباسه كله أسود، يظهر بساحة السوق التي كانت ماتزال فارغة تماما. نشر على مساحة الساحة كلها شبكة على شكل بيت عنكبوت، ثم اختفى.

شيئا فشيئا، شرع التجار والتاجرات يصلون، فعرضوا بضائعهم. ودون أن يعلموا بذلك، كان كل واحد منهم قد وضع بضاعته في زَرَدة من زَرَدات الشبكة غير المرئية.

بدأ الزبائن، بدورهم، يتقاطرون تباعا. انطلقت عمليات البيع والشراء. وفي وقت وجيز أصبحت الساحة تعج بجمهرة معتملة من الناس.

عاد العجوز الأعور للظهور، ثانية، أمام عيني مارتاكومبا. كان يحمل في يده يقطينة مملوءة دما. اقترب من مجموعة من النساء يجادلن في ثمن مواد غذائية، فأغطس قطعة خشب في الدم وحركها قليلا. بعد ذلك عمد، وهو يرفع القطعة الخشبية المدهونة بالدم، إلى تحريكها أمام وجه إحدى النسوة. عندئذ قفزت إلى عينها قطرة من الدم غير المرئي. على الفور آخذت إحدى رفيقاتها، التي كانت قد رفعت لتوها يدها كي تعدل على كتفها غندورتها.

«أيتها الغبية! صاحت. لقد أدخلت أصبعك في عيني. أجيدي استعمال هذا الغصن الطويل عديم المهارة، الذي تستعملينه يدا!».

وبما أن المرأة المتّهمة بالباطل، تعلم أنها لم تمس جارتها، فقد ردت بعنفِ نمرة مجروحة:

«أيتها الشريرة ذات الأرداف غير المتناسقة والمنتنة، أغلقي هذا المِعلف الذي تستعملينه فما وإلا حولت، بهذا الدملج الذي يساوي أكثر من ثمنك، أسنانك إلى حبات كسكس!».

- أيتها الخنزيرة ذات الأسنان المرتجة واللسان الشبيه بلسان أفعى جائعة! إن كنت أنت تحاولين تكسير أسناني، فإنني، أنا، سأجعلك تتقيئين دمك، ليس من فمك وإنما من أنفك!

فرح الشيطان للغاية بأن استطاع إثارة معركة، وأراد أن يُعقّد المسألة أكثر. اقترب من المرأتين فوطأ بخبث قدم تلك التي اعتقدت أنها قد تلقت، من قبل، الأصبع في عينها. صاحت هذه، التي ماتزال تحت تأثير الاحتيال الشيطاني:

«آه! أيتها الكلبة مقطوعة الذيل! لم يكفك أن أدخلت أصبعك في عيني، ها أنت الآن تسحقين قدمي بقائمتيك الشبيهتين بقائمتي فرس أجرب. خذي هذا كي تتعلمي كيف تعيشين كما ينبغي!»، ثم وجهت لرفيقتها صفعة مدوية.

قفزت المرأتان إحداهما على الأخرى. أمسكتا بخناق بعضهما حتى تداخلتا في جلبابيهما. فقدتا توازنهما فسقطتا على أواني تاجرة مملوءة بالبهارات. شرعت هذه الأخيرة توجه لهما ضربات وهي تسبهما بأقذع الكلمات. آخذت صديقةٌ لإحدى المرأتين التاجرةَ وشرعت، بدورها، تسبها بسباب فاحش.

«ما دخلك أنت؟ عقبت التاجرة. هاتان الحمارتان اللتان بلا أذنين كسرتا الأواني وفرقتا بضاعتي، وأنت تريدينني أن أدهنهما بالسمن المعطر؟».

كانت المرأتان ماتزالان تتعاركان. دُهش الناس مما يرون. تجمعوا حولهما. شرع كل واحد من الجمهور يشرح الحدث للآخر بطريقته الخاصة.

ذهب الشيطان فأيقظ كلبين كانا نائمين في زاوية من الساحة ودفع بهما نحو الجموع. أتى الكلبان يعدوان وينبحان ويهددان بتمزيق الجميع. توجه الشيطان إلى طرف الساحة وفجأة قام، بعون من مساعديه، بسحب الشبكة مما قلقل كل السوق. بدا كأن الجموع أصيبت بالذعر. شرع الناس يعدون في كل الاتجاهات دون أن يعرفوا لماذا يفعلون ذلك. اختلطت السلع والبضائع التي هي في ملك تجار متعددين. سقط بعض الفارين وجرح آخرون وتمزقت ملابس البعض الآخر.

بعد ساعة من الفوضى العارمة، عاد الهدوء من جديد بتدخل من بعض التجار المَهيبين الذين لم يفقدوا رشدهم ولم يتورطوا في المعركة، فعادت الأنشطة إلى حالها الطبيعية.

عاد الشيطان للظهور ثانية، نحو منتصف النهار. وقف، هذه المرة، إلى جانب بائع جواهر كان قد عرض بضاعته على قطعة ثوب. وضع قدمه على خاتم ورفعه بطريقة ما أمام نظر البائع. في تلك اللحظة نفسها كان زبون قد انحنى وشرع يتفحص حليا كي يشتري بعضها. عندما لم ير التاجر الخاتم، شرع يندب ويبحث عنها سدى. أسرّ له الشيطان بأن الزبون سرق الحلية. بمجرد أن عبرت هذه الفكرة دماغ البائع شرع يصيح من دون أن يطيل التفكير:

أين وضعت الخاتم الذي كان هنا؟

اغتاظ الزبون وقد جرح في كرامته:

- إلى ماذا تلمح؟ أين تريدني أن أضع الخاتم؟ وماذا تريدني أن أفعل لك؟

- وضعتها في جيبك، وتريد أن تدعي البراءة، عقب التاجر. سأجعلك تتبوّل بتلك الحلية، يا قليل التربية، أيها الخسيس!

حينئذ أمسك التاجر بخناق الزبون وشرعا يتصايحان.

وكي يُعقد الشّيطان الأمور أكثر، عمد إلى رفع ساقه عن الخاتم. على الفور رمق الخاتمَ فضوليٌّ فصاح:

هيه! لا تواصلا شجاركما، ها هو ذا الخاتم. إنه موضوع بالفعل في مكانه.

أراد التاجر، مبلبلا، أن يعتذر، لكن الزبون أبى أن يهدأ. وعوض أن يستمع إلى ما كان يريد أن يقوله، أمسك به ورفعه بنصفه قاذفا إياه على الأرض، فانكسرت إحدى ذراعيه.

عدت الجموع نحوهما. سارع حرس من شرطة السوق إلى إلقاء القبض على الزبون. رفض هذا الأخير أن يسلم نفسه وقاوم بكل قواه. اضطر الحراس أن يزيدوا من عددهم حتى يستطيعوا الإمساك به. قفز الزبون جانبا وأمسك بمدية كانت موضوعة فوق سلعة قريبة وجرح أحد الحراس في وركه. استطاع باقي الحرس، أخيرا، أن يمسكوا به. ثم اقتادوه بالقوة.

توجه الشيطان، وعلى شفتيه ابتسامة رضا، نحو مجموعة من الخياطين، مقررا على ما يبدو أن يؤذيهم. مزج خيوطا وقطع أخرى ووخز خياطا فاتّهم جاره... عندما عمت الفوضى ابتعد راضيا. اقترب مارتاكومبا من الشيطان، منفعلا مما رآه لتوه، ووجه له صفعة ألقت به على الأرض.

قال الشيطان دون غضب، وهو لا يعلم أن مارتاكومبا كان يراقبه منذ الصباح:

قل لي أنت. إن عاملني الجميع بهذه الطريقة، فإنني لن أستطيع بالتأكيد أن أعيش إلى نهاية العالم، كما هو مدون في ميثاقي مع الخالد! لماذا تضربني؟

- أضربك لأنني لا أستطيع أن أستمر في معاناة أن أراك تزرع المعارك بين الناس، مستغلا قدرتك على أن تبقى غير ظاهر.

- لا، أنت لا تضربني بسبب ذلك! عقب الشيطان. أنت ضربتني لأنك تعرف أنك ستعيش تسعين سنة وأن لا سلطان لي عليك

الآن. لكن اعلم في المقابل أن هؤلاء الناس الذين أثيرُ بعضَهم على بعض ليسوا متحررين من وصايتي. فأنا في الحقيقة، لا سلطان لي على من يقسّمون حياتهم قسمين، مُخصّصين القسم الأول للمجون وللمتع المادية من كل نوع، والثاني للعبادة والتقشف.

والحال، أنني ألاحظ أن حياتك أنت ليست مكونة إلا من التعبد والتقشف. أنا لست منزعجا من ذلك، لأنني متيقن أكثر بأنني سأتمكن منك، في النهاية. آنذاك ستؤدي ثمن هذه الصفعة غاليا! لم يعد لي الآن سوى دعاء أوجهه إلى الله: أن لا تراودك أبدا فكرة تقسيم حياتك إلى جزأين، فتفر بذلك من وصايتي!

- أيها الأعور العجوز، يا صاحب الإلهام الشيطاني، صاح مارتاكومبا. لقد خسرتَ تماما! مادمت أعرف كيف أتحاشى صفعاتك، لن تغلبني أبدا!

- ماذا ستفعل؟ سأل الشيطان بنبر حزين وخائر.

- اخرج من حياتي، قال مارتاكومبا. أنا أعلم ما بقي علي القيام به وسترى أن إنسانا سيستطيع إبطال حبائلك.

ثم أسر لنفسه: «أنا أعلم الآن أنني سأعيش تسعين سنة؛ والحال أنني لم أعش منها سوى ثلاثين؛ بقي لي إذن ستون سنة. وكي أتجنب وصاية الشيطان، سأقسم حياتي إلى مرحلتين. سأعيش في البداية خمسة وأربعين عاما في المتع المادية والمجون، مستخلصا من الحياة كل ما تستطيع تقديمه؛ وبعد ذلك، عندما أصبح في الخامسة والسبعين، سأتوب وأعود إلى الله.

ستكون سنواتي الخمس عشرة الأخيرة مخصصة لله كما كانت سنواتي الثلاثون الأولى. وبذلك ستكون حياتي المتبقية مقسمة إلى مرحلتين: مرحلة مجون ومرحلة عبادة».

منذ اليوم التالي، شرع مارتاكومبا يرتاد المجموعات الأكثر مجونا. لم يستجب، بعناده المعتاد، لأي من النصائح الحكيمة ولكل التحذيرات من حبائل الشيطان. تخلى عن إيمانه وعن كل أعمال الخير، وعاش مقترفا الكبائر. بعد سبع سنوات من بداية حياته الماجنة، مات بسكتة قلبية مفاجئة.

مباشرة قبل إسلامه الروح، ظهر له الشيطان، متبوعا بموكب من ملائكة الجحيم. «لقد تمكنت منك أيها الطائش المسكين، قال له. لقد نصبت لك فخًا فسقطت فيه على رأسك. أسلم إذن روحك بين يدي. وأنا أخبرك بأن جهنم ستكون مأواك الأبدي. ستعيش فيها صَارًا أسنانك متأوها من شقائك، لأن شقاءك سيكون بلا نهاية».

اعلم يا أخي أن من الأحسن، في كل الظروف، أن تحتفظ بهدوئك وألا تستسلم للشكوك، لأن المظاهر تكون أحيانا خادعة.

واعلم أيضا أن الحذر يقتضي ألا نثق بمعرفتنا الخاصة كي نستطيع مواجهة أي شيء. إن الافتراض والعناد والفضول غير المناسب، قد قاد العديدين إلى نهاية حزينة. وأخيرا، احذر كل تدخل نزوي ولا عقلاني. فمارتاكومبا ضرب الشيطان، لكنه أدى روحه ثمنا لفعله المتهور. قبل التدخل في أي أمر، يستحسن أن نعرف مقدار قوتنا وألا نعتقد، بالخصوص، أننا واثقون من مصيرنا.

الأزواج.. لماذا هم على هذه الحال؟

«أسطورة فولانية»

أتـدرون لمـاذا أصبح الرجل الخيـر زوجا لامـرأة بلا قيمة، والمرأة الشـجاعة زوجة لرجل جبان؟ هذا أمر نلاحظه، لكننا لا نعرف له سببا. الأسطورة الفولانية، من جهتها، تفسر لنا السبب.

عندما أنهى الله خلق النوع البشـري، وزع المحاسـن والمساوئ على الرجال كما على النساء.

وذات يوم رأى كلَّ النساء قادمات نحوه. قال لهن:

أنتن أيتها النساء! انظرن إلى الأفق وقلن لي ما الذي ترينه.

- سـيدي، أجَبْنَ، إننا نرى شمسـا متألقة تشـرق على الأرض. ويبدو أن الأشـياء كلها تحتفل بشـروقها. فبالموازاة مع صعودها مستقيمة في السماء، بدأ يعود إلى الحياة كلُّ ما كان يبدو آخذا في الموت.

قال:

أيتها النساء! أنتن، حتى الآن، ومنذ ساحق الأزمنة، لم تعشن سـوى لحظات رهيبـة. والآن يجب أن تُوضعْنَ علـى الطريق إلى الجنـة. ستسـهر ملائكـة عليكن طيلـة الطريق. وستسـتقبلكن أخرى عند وصولكن. إياكن والتردد أو الأنين، وبالخصوص إياكن والخوَر!

كنـتُ فيما مضى، وأنا الآن، وسـأبقى دائما، مُنـذِرا. وأنا أعلن لكـن أيضـا أن منـازل رائعـة وحليـا بجَمـال لا يضاهى، سـتوزع

عليكن وفق ترتيبكن في الوصول. ستكون أولاكنّ أكثر حظا؛ وأنا أذكركن بأنّ الجنة إقامة أبدية... ولذلك فإن الحمقى منكن هن من سيتركن غيرهن يتقدمنهن.

بعد أن أنذرتكن، أيها النساء، انطلقن في البحث عن سعادتكن.

انطلقت النساء. امتدّت جماعتُهن وشرعت تسري مثل مجرى وادٍ كلما تقدم ضاق. كانت أشجعهن تحتل الصفوف الأمامية.

بعد انقضاء ثلاثة أيام من المشي، ما عادت النساء قادرات على مواصلة المسير. «ما فائدة تَمَنٍّي مجد «المشاءات»؟، تمتمن. ومن يدري، مع الوقت، أي مصير ينتظر الواصلات في المقدمة؟ شساعة الجنة هي بشساعة كل السماوات. والمنازل، فيها، هي بكثرة حبات الرمل في كل الأودية وكل الشطآن مجتمعة. ألا يقال إن هذه المساكن، التي يقع بعضها فوق بعض، تبتدئ من البحار وتنتهي، تقريبا، في قمة السماء؟ لماذا العَدو إذن وإِفقَاد أجسادنا ليونتها؟ لماذا العرق وإِنْتَانُ أجسادنا؟ لنتقدم ببطء، أخواتي، ولنحافظ على طراوتنا. وعندما نصل إلى الجنة، ستعثر كل واحدة منا على منزل لها. وحتى لو سكنت المتقدمات منا غرفا جميلة، فإن المشي بقوة سيُهْزِلُهُنّ. سيُحزن مظهرُهن الهزيل جمالَ منازلهن ومناظرها الخلابة».

عندما أنهت النساء الكسولات كلامهن، عاودن سحب سيقانهن. وكي يسندن مشيهن الشبيه بمشي حرباء متعبة، شرعن ينشدن:

لماذا علينا أن نسرع، وأن نحزن؟
لماذا الصياح؟ أجل، لماذا؟
من يتجه إلى الجنة
لا يتجه البتة لأرض يباب
حيث يأسر الضبعُ الجديَ،
وحيث يسرق قطُ الدغل دجاج الفناء.
لنتقدم بمهل ولنسأل الألواح(*).
سنعلم أن السؤال الملغز
«ماذا حصل؟»
قد طُرح على النساء الجّاريات
كما يجري ظبي للفرار من صياد.
لنمش ببطء
ولنسأل الألواح...

بعد ثلاثة أيام من انصراف النساء، قال الرّب: ها قد انقضت ثلاث ليال وثلاثة صباحات منذ أخذت النساء الطريق، لنرسل ذكورهن في أعقابهن.

آنذاك استدعى الله كل الرجال وخاطبهم قائلا:

ليس جيدا أن يبقى الذكر دون أنثى. وقد خلقت رفيقات من أجلكم. لقد انطلقن سلفا نحو الجنة. هن يتقدمنكم بثلاث ليال وثلاثة صباحات، لكنني سأعطيكم من قوتهن ثلاثة أضعاف وستنطلقون في أعقابهن.

ستكون من نصيب كل واحد منكم المرأةُ التي سيجدها في

(*) الألواح: هي التي من المفروض أن كل شيء مكتوب فيها. فهي بمنزلة الأرشيف الرباني.

طريقه، ولن يكون بإمكانه الحصول إلا على واحدة(*). ومن سيتكاسل منكم على الطريق، قد يبقى دون رفيقة. وسيكون اللّوم عليهم. سأحكم عليهم بالعزوبية ولن يعرفوا لا سعادة الأسرة ولا امتياز الأطفال، وبذلك لن يستمر نوعهم في الوجود. وستبقى البذرة التي وضعتُها فيهم مثل حبة جافة. سأنظر إليهم شزرا وسيشقون بذلك(**).

انطلق الرجال، وشرعوا يغنون وهم يتقدمون:

لكل كائن أصل،

ولكل معدن منجم،

ولكل فعل سبب.

إن كان جينو، الخالد، قد وضعنا على طريق زوجاتنا،

فلأن لذلك سببا.

من سيكُنّ زوجاتنا،

قيل، إنهن جميلات ومكتملات.

لَعوبات دون مجون

ورائعات دون أن يكنّ فاسدات.

سينهيْن الحزن

(*) يقرر الله، خالق الكون، في هذه الأسطورة الفولانية، الزوجةَ الواحدة بالنسبة إلى الجنس البشري. وهذا متوافق مع موروث أصل الفولانيين الحمر (الفولانيون الرعويون) الذين لم تكن لهم سوى زوجة واحدة. لقد كانت صعوبات الحياة الرعوية تحول، بالفعل، دون اتخاذ أكثر من زوجة. وتعدد الزوجات، في نهاية المطاف، هو مشكل مديني (أو مشكل حياة الحضر) ذو صلة بالثراء. ويتم هنا ذكر مثال الأسد الذي يعد من بين أكثر الحيوانات فقرا - رغم أنه «ملك الدغل» - لأن من الممكن أن يبقى في بعض الأحيان عشرة أيام دون أن يجد ما يقتات به. وبذلك، فهو لا يملك سوى مرافقة واحدة، في حين أن طير الحباري، الذي يعثر في كل مكان على حب، يملك دائما العديد من المرافقات.

(**) كانت العزوبية دائما أمرا منتَقَصا في المجتمعات الأفريقية التقليدية. كان الرجل غير المتزوج يعتبر غير راشد، مهما يكن عمره، ولا يؤخذ برأيه في الاجتماعات العامة.

الذي يُظْلِمُ قلوبنا.

هيا، لنمش بهمة نحو الجنة!

سنعثر فيها على زوجاتنا،

وسنعيش فيها برزانة!

تعلو حكمة الله فيها

مثل جبل شاهق

تُستخلص منه معادن ثمينة

لتزيين جبهات الشجعان والحكماء.

هيا، لنمش بهمة نحو الجنة!

سنعيش فيها برزانة

برزانة، برزانة!

بعد ساعات من المشي، انقسم الرجال إلى ثلاث مجموعات: آل حمادي - حمادي في المقدمة، وآل حمادي في الوسط وآل حمان - نضوف في المؤخرة (*).

النساء أيضا، كن انقسمن إلى ثلاث مجموعات: آل مانتالدي في المقدمة، وآل سانتالدي في الوسط وآل مانتاكابوس في المؤخرة (**).

(*) حمادي - حمادي: يُسمى بهذا الاسم الرجل المشهور والذي له قيمة كبرى في عائلته وفي حيه وقريته وفي بلده أجمع. وعندما ينتقل من مكان إلى مكان، فليس مضيفه وحده من يعرفه، بل الحي والقرية وكل البلد يعرف أنه قد أتى.

وحمادي هو أيضا رجل ذو قيمة، لكن قيمته تحدّ بحيه وقريته.

أما حمان - نضوف، فيقال إنه عندما يتغيب، حتى أسرته لا تنتبه لغيابه؛ وإن سافر، فإن مضيفه نفسه لا ينتبه لقدومه.

(**) مانتالدي: هي زوجة ذات قيمة علية؛ تستطيع أن تأخذ بيد زوجها وأن تحصل باستمرار على ما تعول به عائلتها، كما تستطيع أن تقوم بكل أمورها الخاصة.

مانتاكابوس: هي الزوجة التي لا تكتفي بألا تعرف كيف تحصل على شيء، بل إن أتى زوجها بشيء إلى البيت ضيّعته. وإن لم يقدم لها شيئا، شرعت تصيح. وإن قُدم لها شيء، قالت إنه غيرُ كافٍ. إنها الزوجة التي لا تكف عن الشكوى والتي لا تقوم بأيّ شيء جيد.

وقعت مجموعة آل حمادي - حمادي، المتكوّنة من رجال لامعين وحكماء وعمليين وشجعان، على مجموعة مانتاكابوس، أي آخر النساء في الترتيب القيميّ للنساء. وبما أن مجموعة آل حمادي - حمادي كانت تجهل أن النساء المتفوقات كن في المقدمة، اختاروا زوجاتهم من ضمن آل مانتاكابوس.

ووقع آل حمادي، مجموعة الرجال المتوسطين، على آل سانتالدي، وهن نساء متوسطات أيضا في قيمتهن، فاختاروا زوجاتهم منهن. في هذا الوقت، كانت آل مانتالدي، النساء ذات القيمة الرفيعة، قد تقدمن رفيقاتهن في المجموعتين الأوليين، وكنّ قد أدركن مدخل الجنة. وعندما أردن اجتياز العتبة، أوقفتهن الملائكة: معذرة، أيتها النسوة، فأنتن مازلتن مجرد «نصف» والحال أن النصف هو شيء غير تام، وإذن فهو غير ممتاز، وغير الممتاز لا مكان له في الجنة. انتظرن حتى يصبح لكل واحدة منكن زوج فتصبح كاملة. آنذاك ستدخلون مثنى مثنى، أي وفق الوحدات البشرية الممتازة.

وقبل أن تستفيق النساء من مفاجأتهن، حضر آل حمادي - حمادي، مصحوبين بزوجاتهم آل مانتاكابوس. صاحت الملائكة: أي لغز! أهؤلاء من اختارهن الله لكم زوجات؟

أقبل آل حمادي بدورهم مصحوبين بآل سانتالدي.

وأخيرا وصل آل حمان - نضوف، آخر الرجال قيمة، إلى أبواب الجنة خاويي الوفاض. آنذاك سلمت النساء المتفوقات، مانتالدي، أنفسهن لهم كي يستطعن الولوج إلى الإقامة الربانية.

وهكـذا تقاســم النّــوعُ الرّفيع من الرّجــال النّوعَ الــرّديء من النّساء، وسقطت النساء ذوات القيمة في يد رجال بلا قيمة.

عندمــا اســتقر المقــام بهم في الجنــة، أتى الرجــال المتفوقون ليشــتكوا إلى الله. اتفقوا مع النســاء الأوائل، والتمسن من الله تعديلا للوضعية. فقال لهم الله:

أنا لا أرفض حقا لمســتحقه. لكن خلفية أفعالي ليســت دائما في متناولكم.

أيتها النســاء الشجاعات اللائي احتللن المرتبة الأولى، اقبلن عن طيب خاطر الرجال ذوي القيمة القليلة. وأنتم أيها الرجال المتميزون، خذوا إلى جانبكم النســاء الكسلانات والعاديات. لقد قــررت ما قررته، حكمة وعلما. إن وضعــت ذوي القيمة في جانب وعديمي القيمة في الجانب الآخر، سارت أمور الدنيا مائلة، مثل حمــل موزع بشــكل ســيئ على ظهر ثــورٍ حمّالٍ للأثقــال. إذْ لن يكون ثمة لا توازن ولا استقرار. عند كل انعطافة سيميل الحمل إلى جهة واحدة وســيصبح الكون أكثــر صعوبة في التوجيه، مما هو عليه الآن.

أمــا في الحالة التــي أصبحتم عليها الآن أزواجا، فإن الرجال ذوي القيمة سيمنعون النساء الكسلانات من السقوط في الأيدي القاسية التي ستزيل كل مرونة من جفونهن (*)، وستكون النساء الرزينات الحكيمات ملجأ للرجال قليلي القيمة الذين تجمعهن بهم رابطة الزوجية.

لقد نظمت كل شيء وفق مقياس أنا وحدي أعرف لغزه.

(*) من فرط ما سيبكين.

تجنبوا الكراهية. ولا يلْمز بعضكم بعضا بدعوى أن قيمتكم ليست متساوية.

تحابوا فيما بينكم. وليتحابّ الأزواج بالخصوص. أعلنوا أن من بين الأشياء التي أحبها، أنا الله، التفاهم الممتاز بين الزوجين، إذْ أضعه في المرتبة الأولى.

المبرر المقيت للضبع - الأب

«حكاية فولانية»

في تلك السنة، كف المطر عن الهطول، فجفت البلاعيم واجتاحت الشقوقُ سطحَ الأرض. لم ينبت أي نبات جديد، وجفت النباتات القديمة.

لم يعد ثمة شيء يقتات به لا الإنسان ولا الحيوان. وما عاد بالإمكان العثور على أية قطرة ماء في أي مكان. شرع دود الأرض يقضم جذور النباتات وأخذت حشرات الأَرَضة تقرض الأوراق والأغصان. بدأت الطيور تأكل الدود، والجوارح تأكل الطيور. بكلمة، شرعت الكائنات تأكل بعضها بعضا إلى درجة أنه لم يبق بأعالي الدغل (*) سوى عائلة ضباع تتكون من الضبعة – الأم، والضبع – الأب، والضبع - الابن. فرّ الثلاثة سعيا لتجنب الكارثة. في أثناء الطريق، سقطت الضبعة الأم، للأسف، نافقة من الجوع والعطش. أكل الضبع – الأب، والضبع - الابن الجثة. صلُحت الجثة، على الأقل، لشيء ما.

بعد أيام متعددة، شعر الضبع - الأب، من جديد، بجوع شديد. شعر بقواه تخور؛ وهو لا يريد أن ينفق. وبما أنه لم يكن ممكنا بالنسبة إليه أن يأكل نفسه، فإنه لم يبق أمامه سوى حل واحد: أن يأكل ابنه.

(من أجل ذلك، أسر لنفسه: عليّ أن أجد سببا ملائما، سببا يعلل موقفي أمام قبائل الضباع الثلاث: ذَوي الزغب الأشقر،

(*) هو أيضا اسم لجهة من جهات السنغال.

وذوي الزغب الرمادي، وذوي الزغب الأسود).

غرق الضبع - الأب، فيما بدا أنه تأمل عميق. تملاه ابنه حائرا. عندما شعر الضبع - الأب بأن ابنه يتأمله بطريقة غير معتادة، عمد إلى جعل مؤخرته تنخفض أكثر مما هي منخفضة أصلا.

آه ياصغيري! صاح. يُحكى أنه في غابر الأزمان، حوّل الله أجساد الحيوانات بعضها إلى بعض دون اعتبار لنوعها. وصحة هذا الكلام تبدو في أن عينيك هما عينا حمل وليستا عيني ضبع صغير!

صاح الابن، الذي لم يكن غافلا عن نوايا أبيه غير الطبيعية:

(إي - أي - أي - إي! أي - أي - أي - إي! يا أبي أنا! كيف يمكنني، وأنا ابنك، أن أكون ابنا لضأن أقرن؟

- الدليل هو أنك أصدرت ثغاء، يا سليل الغنم! اعلم أن ابن الشاة على الرغم من أنه يقضي في زغب الضبع مدة طويلة، لا يصيح أبدا ج - ن - و - ي - ي (*) ! وكي أعاقبك على احتلالك، دون وجه حق، أحشاءَ آكل لحم، تعال إلى بطني كي تبحث عن بقاياك!

وكي يقرن الضبع - الأبُ القولَ بالفعل، قفز على ابنه والتهمه دون هوادة.

الجوع لم يكتف بطرد الضبع من الغابة، بل جعله يأكل ابنه أيضا (**).

(*) محاكاة صوتية لصيحة الضبع.

(**) تستخلص التقاليد من هذه الحكاية درسين:

- عندما يؤكد إنسان متخلق أمرا، فإن بإمكاننا، بالتأكيد، أن نصدقه، اللهم إلا إن قال: «حتى ولو مت جوعا، لن أفعل هذا الشيء أو ذاك»، لأن الله وحده يعلم إلى أي مدى يمكن للجوع أن يدفع بالإنسان.

- عندما يريد الزعيم أمرا بشخص ما، فإنه ينتهي دائما بأن يتمكن منه.

الكذبة التي أصبحت حقيقة

«حكاية فولانية»

ذات يوم، عثرت ضبعة، وهي تصطاد في ضواحي القرية، على جـدي نافق. فرحـت وحملته وابتعدت عن القرية جـارَّة إياه إلى غابة كي تفترسـه مطمئنة. لكن، وفي الوقت الذي كانت تسـتعد لأكلـه، لمحت بعيدا قطيعا مـن الضباع مقبلا نحوها. وخوفا من أن يفسد عليها بنو جلدتها وليمتها، سارعت إلى إخفاء الجدي، ثم أتت كي تقعد على قارعة الطريق. وهناك شرعت تصيح بقوة: (بواه ! بواه ! بواه !). توقفت الضباع الجارية:

ماذا دهاك أيتها الضبعة الأخت؟

– سـارعوا إلى القريـة! لقد نفق كل القطيـع وألقيت الجثث في المزبلة. لقد أكلت منها حتى شبعت وأنا عائدة الآن إلى بيتي كي أنام.

عندما سـمعت الضباع هذا الخبر المشَـهِّي، سارعت بقوة نحو القرية، إلى درجة أنها أثارت بقوائمها سحابة من الغبار.

بعد أن تأملت الضبعة هذا المشهد، خاطبت نفسها:

هـا كذبتي قد أصبحـت حقيقة؛ إن كذبـة حقيقية لا يمكنها أبدا أن تثير وحدها كل هذه السحابة من الغبار! لأجري بسرعة، فقد أصبح الأمر حقيقة! أصبح الأمر حقيقة!

ثم تركت جديها حيث هو وسارعت بدورها نحو القرية.

تلك هي قوة الكذب؛ فبتكراره ينتهي الكذاب نفسه بأن يصدق كذبته.

الشيطان و«المعرض - الكارثة»

«حكاية فولانية»

تناهى إلى علم ميياندافو، ذات يوم مشؤوم - صادف آخر أربعاء من الشهر القمري - أن معرضا - كارثة سيقام على قدم التلة الحمراء، في السهل الذي يُطلق عليه اسم سهل «الحمقى المستنيرين»، فقرر أن يحضره، وقد استولى عليه فضولُ أن يعرف أية بضاعة ستعرض فيه، ومن سيكون أقل فطنة حتى يرتاد معرضا مثل هذا، حيث لا يمكن أن يُحصد سوى سوء الحظ والخيبة وكوارث أخرى! وصل باكرا إلى مكان العرض فاختبأ في تجويف عش أرَضة أقيم على مقربة من ساحة السوق.

صعدت الشمس رويدا رويدا في السماء. ومثل سعير محتدم، شرعت تنشر حرارتها الجحيمية.

انتظر ميياندافو ساعات، لكنه لم ير أحدا مقبلا. وفجأة رأى سحابة عظيمة من الرمال ترتفع في الجو، كأن جيشا كاملا على الخيل يعدو في الساحة. تساءل مع نفسه عمّن قد يكون رفع هذه السحابة الغريبة من الرمال، لأنه لم يستطع أن يرى شيئا على الرغم من أنه حدق مليا في المكان.

آنذاك أخرجت عظاءةٌ رأسها من ثقب صغير على خاصرة عش الأرضة، وقالت: أنت يا ميياندافو! اعثر لي على جرادة وسأسلّمك ليس فقط وسيلة ترى بها المعرض، بل ستمكنك أيضا من رؤية منظّمه والحديث إليه.

عثر ميياندافو بسرعة على الجرادة. سلمها للعظاءة. مزقتها وأكلتها، ثم قذفت في يد ميياندافو ببصاق.وقالت له:

حك عينك اليسرى به، مستعملا خنصرك اليسرى، وسترى ما ستراه!

نفذ ميياندافو على الفور. وما كاد ينتهي من حك عينه اليسرى حتى لمح - جالسا وسط الساحة - كائنا ذا مظهر إنساني، رغم أنه مشوه وغريب للغاية. كان ذقنه يعتمر لحية تيس، ويتدلى أسفل ظهره ذيل فرس وهو يقف على ساق واحدة في شكل لولبي، تنتهي بحافرِ خنزير وحشي. لمح ميياندافو، غير بعيد عن الكائن، ثلاث عرمات عظيمة من البضاعة، وتتشكل كل عرمة من عدد كبير من العلب.

كان الكائن الغريب، صاحب لحية التيس - والذي لم يكن سوى تجسيد للشيطان! - يتنقل من عرمة بضاعة إلى أخرى على ساقه اللولبية، مثل زوبعة هوائية. كان تنقله ذاك هو ما يثير سحابة الرمال. وبين الفينة والأخرى، كان ينظر حوله، يعكس وجهه قلقا، مثلما يحدث لشخص ضرب موعدا لشخص آخر، ولم يرَهُ يقبل في الوقت المحدد.

تقدم ميياندافو واقترب من الشيطان. صاح هذا الأخير، وهو في قمة التعجب من أن يكتشفه فجأة إلى جانبه:

كيف صنعت حتى أبطلت السحر الذي يحجبني عن أنظار الناس الفانين؟ ألا تكون عظاءة صغيرة تسكن عش الأرضة الرمادي، هي التي سلمتك، مقابل جرادة، قطرة بصاق مكنتك من أن تراني وأن تقترب مني؟ آه! يا لها من خائنة!

وبدلا من أن يجيب ميياندافو عن سؤالِ وحيدِ السّاق، سأله بدوره:

هل يمكنك أن تخبرني، يا أيها الرجل الغريب، بطبيعة هذا المعرض الكارثي الغريب وبالبضاعة التي تأمل أن تبيعها فيه؟

قال الشيطان:

- نعم يا ميياندافو. لقد أتيت لهذا المعرض كي أبيع فيه ثلاثة أنواع من البضاعة. وهي مصنّفة وفق نوعها في هذه الكومات الثلاث التي تراها هنا.

- نعم. أنا أرى بالتأكيد الكومات الثلاث، لكنك لم تقل بأية بضاعة يتعلّق الأمر. إن ما يدهشني هو أنني لا أراك تقدمها لأحد، ولا أحدَ، أيضا، يأتي ليسألك عن ثمنها، ولو من قبيل الفضول.

- ذلك أن لا أحد يراني! قال الشيطان. وفضلا عن ذلك، فإن بضاعتي ليست مما هو معتاد لدى البشر. الكومة الأولى التي ترى تحتوي على «الجحود»، وهو النزوع إلى عدم الاعتراف البتة لأحدٍ بشيء. أما الكومة الثانية، فتضم «الحسد»، وبمعنى أدق، الألم الذي نشعر به من أن نرى أحدا ينجح في شيء. وأخيرا، فإن الثالثة تحوي «العناد» وكل ما يدفع بالإنسان إلى مواجهة خطر محدق دون داعٍ حقيقي (*).

قال ميياندافو ضاحكا «إذن فإن تجارتك ستبور، لأنني لا أرى، في الحقيقة، من قد يكون من البلادة بحيث يشتري منك بضاعة مثل هذه، لا يكاد يقبل عليها أحد!».

(*) هذه إحدى المميزات التي كانت تُحسب من النّبل الأفريقي القديم: ذلك أن بعض الرجال يعاندون ولا يستطيع شيء أو أحد أن يجعلهم يعدلون عن أفكارهم، فيعرّضون أنفسهم للموت لأسباب واهية.

- لا تكـن مخطئـا، قال الشـيطان. إن بضاعتي طُلبت سـلفا. لن يمر وقت قصير حتى ترى مُقتنين متميّزين للغاية يأتون كي يأخذوها.

وبالفعـل، مـرت لحظـات، بعـد ذلـك، حضـرت امـرأة تتزيـن بأناقة، مصحوبة بحشـد من الخدم: «نهارك سعيد، يا ذا اللحية الطويلة(*)، قالت، لقد أتيت لآخذ ما اشتريتُه».

أشـار الشـيطان إلـى الكومـة الأولـى، قائـلا: تأكـدي مـن أن البضاعة كاملة، واحمليها.

فحصـت المرأة الجميلة، بدقـة، العلب، وصرّحـت بأنها كاملة وفي حالة جيّدة، ثم حملتها وهي تشكر الشّيطان وانصرفت.

بعـد انصرافها، أقبل ناسـك مَهِيبٌ، محاطـا بمريديه، فتقدم نحـو البضاعة المعروضة، وقال: أتيت لآخذ بضاعتي. أشـار عليه الشـيطان بالكومـة الثانيـة. فحص الناسـك العلـب بعناية ثم طلـب مـن مريديه حملها. بعد ذلك شـكر، مثل المرأة الشـيطانَ بحرارة على عمله الجيد، وولى مدبرا.

أخيـرا، وبعـد مـدة طويلـة، أقبل ملـك عظيم، مصحوبـا برفقة كبيرة. سأل الشيطان عن طلبه، فأشار عليه هذا الأخير بعرمة العلب الأخيرة. حمل خدمُه كل العلب وأطرى على الشيطان وانصرف.

عندما خلت الساحة من جديد، التفت الشيطان إلى مياندافو قائلا:

أنـت الـذي رأيتني أبيع هـذه الكوارث، إن كنـت تريد أن تعرف كيف ستُسـتعمل، عليك أن تجوب الأرض. سـترى في أماكن عدة

(*) لقب الشيطان.

المرأة وقد استولى عليها الجحود فلا تعترف لزوجها بجميل إلا بطريقة كارثية؛ ومهما يفعل الزوج من أجلها، سترى هي دائما أنه كان عليه أن يفعل أكثر؛ وإذا ما وقع بينهما خلاف، فإنّها لن تذكر إلا الشر الذي نالته من زوجها، أما الخير فلن تذكره أبدا.

أما معظم النّساك (*)، فإن الألم الذي يشعرون به من أن يروا أحد زملائهم يحقّق نجاحات، يفوق كلّ تصور! إن الحسد الذي اشتروه يدفعهم لأن يقفوا ضد بعضهم البعض، حتى لو كان ذلك على حساب الحقيقة الربّانية والتّفتح الروحي للنوع الآدمي.

أخيرا، وفي كل مكان وزمان، سترى زعماء يعاندون محاولين بسط سيطرتهم وفرض إرادتهم حولهم، هذا إن لم يحاولوا حتى أن يُسخّروا الطبيعة لمصلحة أهوائهم! وهم يستعملون، من أجل النجاح في مساعيهم، القوة كما يستعملون الحيلة والخديعة والخيانة. وهم، عندما يفشلون، بدلا من أن يستسلموا لطبيعة الأشياء، يعاندون ويُشعلون، في الأخير - تبجحا وعنادا - ما به تكون نهاية حكمهم!

هكذا تكلم الشيطان الذي من المفروض أنه يعرف الطبيعة البشرية. لكن ألا نلاحظ، حتى في ثمرة فاكهةٍ متعفّنة، وجودَ قطعة صغيرة سليمة؟ لا مجال إذن للتعميم. فلله الحمد، ثمة نساء كثيرات من هذا العالم لم يستهلكن البضاعة المبتاعة من معرض الشيطان من طرف ممثلتهم المجازية. وقل الشيء نفسه عن النساك والزعماء الدنيويين.

(*) يرمزون هنا، بصفة عامة، لرجال الدين الكبار.

إن الزعماءَ المشغولين بنشر السلم والعدالة، والنساءَ الخيّرات والرجالَ الحقيقيين الربانيين، المنذورين للحقيقة - الفريدة، يرمزون، على مستوى آخر، إلى:

- القانون العادل الذي ينظم بلدة السعادة،
- الطريق الذي يقود إلى السعادة الدائمة،
- الحقيقة التي تنشر الحب والرحمة بين بني البشر.

دجِينَا نبارا، الجنّي المُقعد

«حكاية من بلاد ماركا»

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، ملك قويّ جدا، يعيش في أروع مملكة على وجه الأرض. كان بلده يعجّ بكل الثروات الممكنة. وكان النّاس يقضون به أياما رائقة.

كان الملك يعيش في بحبوحة من السعادة، حتى نسي الموت وما عاد يعرف ما الذي تعنيه كلمة «شقاء».

كان يتساءل في أعماقه: كيف يمكن لإنسان أن يكون شقيّا.

وكي يعاقبه الله، ربما، أصاب ابنه الوحيد بشلل كامل. لم يستطع الطّفل، طيلة سبعة أعوام، أن يغادر فراشه. آنذاك عرف الملك الألم وخيبة الأمل. كانت معاناته تساوي ألف موت. ملأ الحزنُ عليه كلَّ قلبه. كان أكثر شقاء من المريض الصغير نفسه! الحياة التي كانت بالنسبة إليه، حتى تلك اللحظة، حفلا لا ينقضي، أصبحت مثل ليل دامس لم يسبقه عَشاء.

بحث الملك في كل مكان وبأي ثمن عن علاج للألم الذي كان يعانيه الأمير الصّغير، لكن سدى. أُسقط في يده إذْ لم يستطع أحد من المعالجين والمتنبئين والمشعوذين، الذين تعاقبوا على فراش مرض الأمير، أن يعيد إليه صحّته ولا حتى أن يخفّف عنه آلامه.

ذات يوم، وقفتْ على باب القصر امرأةٌ عجوز، شيباء، درداء، عرجاء، حدباء من أمام ومن خلف، يسيل أنفُها وترشح الدموع من عينيها الذّابلتين. طلبت لقاء الملك، لكن الحرس رفضوا

طلبها فأطلقت صرخة مدوية اهتزت الأرض منها.

خرج الملك من غرفته لا يعرف ما يحدث. من ذا الذي أطلق هذه الصرخة الرهيبة؟ قُدمت له المرأة الشيباء، فسألها:

لماذا أطلقت هذه الصرخة، أيتها العجوز الطَيبة؟

- لقد أتيت أيها الملك العظيم، كي أقدم لك معلومة ستوقف جريان دموعك، لكنهم غَلَّقوا الأبواب في وجهي، ولذلك صحت.

- تكلمي بسرعة أيتها العجوز الطيبة، فأنا أستمع إليك مثل تلميذ طيِّع نجيب.

- اسمع! علمت أنك تبحث، منذ سنوات، عن معالج عبر كل ربوع المملكة. والحال، أنه لا يوجد، في الكون برمته، سوى كائن وحيد قادر على أن يساعد في شفاء ابنك من المرض الذي يعانيه، إنه دجينا نِبارا، الجني المُقعد (*). يقال إنه يعرف كل شيء! هو يقطن بين السماء والأرض في منطقة لا يستطيع أحد أن يصل إليها، لكنه يأتي، مرة كل أسبوع، كي يشرب من ماء البركة الزرقاء، التي توجد في الوادي الأحمر، على قدم سلسلة الجبال الصفراء. فإن كان ثمّة أحد بإمكانه أن يساعد فس شفاء ابنك، فهو هذا الجنّي.

- لكن، أيتها العجوز الطيبة، كيف يمكنني أن ألتقي بهذا الجني؟ فهو ليس أحدَ رعاياي، ولا سلطة لي عليه.

- يجب أسره.

- لكن بأية قوة يمكنني أن أقبض على جنّي قادر على أن يقضي، في رمشة عين، على جيش بأكمله؟

(*) «الجني المقعد» هي الترجمة الحرفية لـ: دجينا نبارا.

أطلقت العجوز ضحكة عالية، وقالت:

الحيلة أقوى من أقوى الجيوش أيها الملك! أنا أشفق لأملك. سأقول لك أيضا كيف تفعل كي تأسر دجينا نبارا. أصدر الأمر لكل القرى بأن يتم إعداد أكبر كمية ممكنة من العسل، ثم اجعلهم يحملون هذا الشراب المسكر إلى ضفة البركة التي يأتي الجني للارتواء من مائها، ثم اجعلهم يفرغونه في مياهها.

تم الأمر كما قالت. تم جمع العسل من كل جهات البلد؛ لم تُهمَل أيّة خلية نحل وأيّ تجويف في جذوع الشجر. عندما جُمع كل العسل، أُفرغ في مياه البركة، حيث تخَمَّر. وعلى الفور أصبحت البركة مثل بحيرة من نبيذ العسل.

عندما أقبل اليوم الموعود، أتى دجينا نبارا، كالمعتاد، كي يستحم في البركة ويرتوي من مائها. فوجئ عندما لاحظ أن لون مياه البحيرة قد تغيّر. أخذ منه جرعة. وجدها معسُولة ولذيذة. فأسر لنفسه: لا شك أن الله قد قرر أن يغير هذا الماء كي يحسُن من مذاقه. آنذاك شرب منه ماء كثيرا. وفي الأخير سقط، سكرانا تماما، بتثاقل على الأرض، وانخرط في نوم عميق. كان الملك قد أرسل ثلاثة صيادين كي يَكْمُنوا بالقرب من البركة، آمرا إياهم بأن يأسروا الجني، دون أن يسيئوا معاملته. عندما رأوه نائما نومته العميقة، أحاطوا به وانتظروا هادئين استيقاظه، متجنبين إزعاجه.

عندما فتح دجينا نبارا عينيه، وجد نفسه محاطا، عن قرب، بثلاثة من أبناء آدم، لكنهم، على ما يبدو، يحرصون على عدم إصابته بأيّ أذى.

آنذاك سألهم: من تكونون وما الذي تريدونه مني؟ أنا أرى أنكم لا تريدون بي شرّا، وإلا لكنتم قيدتموني أثناء نومي.

أخذ الكلمة زعيم الصيادين، وقال:

لِكلنا وريثٌ واحد يحبّه حبا كبيرا، لكن الأمير مريض ولم يعد يستطيع الحركة منذ سبع سنوات. وقد جاب ملكنا الأرض والسماء معا بحثا عن معالج يكون قادرا على المساعدة في شفاء ابنه وإعادة السرور إلى قلبه، لكن دون جدوى.

والحال، أن امرأة عجوزا شيباء ومشوهة تماما، أتت، منذ أيام، وحدثته عنك. قالت له إنّك تعرف كل ما يمكن أن يكون معروفا على الأرض، وأنك الوحيد الذي تستطيع أن تساعد في شفاء هذا الطفل الذي يُعتبر أمل شعب بأكمله. ولهذا السبب أسكرناك، كي نستطيع الحديث إليك. إن الملك يرجوك بقوة أن تذهب معنا لتعالج ولده. سيعطيك ما تشاء وسيبقى ممتنّا لك إلى الأبد.

شرع دجينا نبارا يضحك. بعد ذلك نهض برويّة وتبع الصّيادين من دون أن يسبب أيّة مشاكل.

في أثناء سيرهم، التقوا بثلاثة رجال. كان الأوّلان باحثيْن عن الذهب. كانا آخذين في مطالبة الرجل الثالث، وهو منجِّم يتكئ على جذع شجرة ضخمة، أن يدلّهما، اعتمادا على فنّه، على المكان الذي يمكن أن يكون فيه منْجم للذّهب. نظر دجينا نبارا للرجال الثلاثة، فحيّاهم وردوا عليه التّحية. وعندما ابتعد عنهم، شرع يضحك للمرّة الثانية.

أخيرا وصل الرفقاء الأربعة، دون مشاكل، إلى باب القصر.

دخلوا الساحة، ثم ولجوا مسكن الملك الذي استقبلهم في غرفة نومه. وعندما اجتازوا عتبة باب الغرفة، شرع دجينا نبارا يضحك للمرّة الثّالثة. لم يعر الملكُ اعتبارا لضحكه، لأنه كان مهموما بعلاج ولده المحبوب، وارث حكمه. حيا الملك دجينا نبارا، معتذرا له عن الطريقة التي استعملها كي يستقدمه، والتي يجد لها تبريرا في الألم العميق الذي يستشعره. قبل الجني عذر الملك ثم قال:

أيها الملك! بإمكاني بالفعل أن أساعد في شفاء ولدك، وبطريقة أسرع مما تتصور، لكن ليس قبل أن تتحقق ثلاثة شروط من طرف ثلاثة أشخاص: وزيرك الأول وزوجتك المفضلة وأنت نفسك.

- ما تلك الشروط؟ سأل الملك.

- على كل واحد منكم، أنتم الثلاثة، أن يعترف، وسط جلسة عامة ومن دون أدنى تمنّع، بحقيقة واقعية لها اتصال برغبة حميمية، لا يتم التعبير عنها، بصفة عامة، بصوت عالٍ وواضح. ستكون جديتك مثل شعاع من ضوء، وستجعل الظلمة التي تحول دون شفاء الأمير تنقشع.

التفت الملك إلى وزيره:

أنت أيها الوزير، يا من يخدمنا بكل إخلاص! الكلمة لك.

أدار الوزير، منزعجا، بصره يمنة ويسرة، وفي الأخير أطرق ولم يجب.

قال الملك: لا تخف. ارفع رأسك وعبر بجدية عن الرغبات التي لم تجرؤ أبدا على إبدائها بصوت مرتفع.

استمر الوزير في تردده، فألح الملك:

أنا أعدك وعد رجالٍ أنه، مهما يكن جنوح الرغبة التي ستعبر عنها، ستبقى حظوتك عندي هي نفسها ولن أحقد عليك.

آنذاك رفع الوزير رأسه وقال:

أيها الملك الشهم الذي أنا مدين له بكل شيء، باستثناء الحياة التي وهبنيها الله بواسطةٍ من أبويّ، أنا مستعد للتضحية بحياتي من أجل إنقاذ حياة ابنك، لأنك قد مكّنتني من أن أحتلّ المرتبة الثانية في مملكتك. فسلطتي تعلو الجميع باستثناء شخصكم. أنت توافق على كل قراراتي، كأنني أنطق بقراراتك. لكن، وعلى الرغم من كل هذا، فإنني في قرارة قلبي، كنت أفضل أن أكون في مكانك وأن أراك في مكاني. هأنذا قد قلت الحقيقة! إن حلم كل من يحتل المرتبة الثانية، هو أن يحتل المرتبة الأولى.

انحنى دجينا نبارا وضرب في كفه قائلا: لقد قلت الحقيقة! فهذه بالفعل من الحقائق التي يُفكَّر فيها بصوت خافت، ولا يتم الإعراب عنها بصوت عال.

أتى دور زوجة الملك كي تتكلم. قالت:

زوجي، بالفعل، ملك عظيم، وأنا زوجته المفضلة. وهو غني وكريم، ويغمرني بكل ثمين: ذهب وفضة وأحجار كريمة وملابس فاخرة وأكل لذيذ.. لا شيء ينقصني. لكنني لست، مع ذلك، سعيدة للغاية. فأنا أبقى، في مجال الحب، على جوعي. صحيح أن زوجي الذي يبلغ من العمر سبعين سنة، يخصص لي القوة الضئيلة التي بقيت له، لكن ذلك لا يكفي لتهدئة ناري. إن قلبي البالغ من العمر خمسا وعشرين سنة، لَيفضّل

زوجا شابّا قويّا، وإن لم يكن سوى سائس أو فلاح متواضع، على زوج ثري جعلت السنون قواه تخور. أنا أفضل الزوج الشاب على كل ذهب الدنيا وفضتها. فالزوجة تفضل دائما أن تتقاسم ليالي رقيقة مع رفيق شاب، حتى إن قضت اليوم كله تنقي الأرض، معه، من حجر «لوغان»(*) عقيم، على أن تحيا نهارات باذخة متلونة بليالٍ خالية من العناق المحتدم الذي يهدئ جسدها ويسكن روحها.

صاح دجينا نبارا متعجبا: ليس ثمة من حقيقة أوضح من هذه! أنت فعلا أكثر نساء زمانك جدية!

بعد ذلك التفت إلى الملك نفسه، وقال له:

أيها الملك، لقد كان وزيرك وزوجتك صادقين. فهل ستعترف أنت أيضا برغبتك الحميمية التي تخبئها في قلبك وتود ألا يطلع عليها أحد؟

- نعم، بالتأكيد، قال الملك. فأنا، كما تعلمون، أكبر حاكم لكل الأراضي التي تقع بين النهرين. أملك محلات مملوءة ذهبا وفضة، وخزائن مترعة بكل ما يُمكّن الجسد من بذخ شبيه ببذخ الجنة. إنّني أملك من الثروة أكثر مما أنا في حاجة إلى إنفاقه. أنا أقدم هدايا وأتقبل أخرى. لكن، وعلى الرغم من كل هذا، فإنّ ما يروقني أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، هو أن أرى شخصا، وإن كان بائسا يمد يده نحوي ويقول لي: خذ! هذه هدية لك. وما يسيئني أكثر ويقلقني، هو أن أرى شخصا يمد كفه نحوي كي يقول لي: أعطني شيئا.

(*) لوغان: حقل.

- قلت الحقيقة، قال دجينا نبارا. فقد قال كل الحكماء، بالفعل، إن الملك الذي يعطي هو ملك خارق للعادة، لأن المعروف عن الملوك هو حبهم لأن يأخذوا أكثر من حبهم لأن يعطوا.

ثم أضاف قائلا:

لقد اعترفتم، ثلاثتكم، وبشجاعة، بحقيقة دفينة يصعب الاعتراف بها. لقد تحققت الشروط إذن، وسأقول لكم كيف تعالجون الأمير. أيها الملك، هل ترى الدجاجة السوداء التي توجد خلف سريرك مستعدة لوضع بيضتها؟ اذبحها واجعل ابنك يأكلها. بعد ذلك، أَخْفِ تحت الأرض العظام واللحم الذي لم يستهلك. بمجرد أن تدفن البقايا سيشفى ابنك.

نفذ الملك الوصفة. على الفور استعاد الابن قدرته على تحريك أطرافه فقفز خارج سريره. كانت فرحة الجميع عظيمة. أقام الشعب كله احتفالا.

أراد الملك أن يقدّم هدايا كثيرة لدجينا نبارا، لكن هذا الأخير رفض. وعندما ودّع الجميع وهمّ بمغادرة القصر، اقترب منه أحد الصياديـن؛ وكان قد حضر منذ البداية كل ما حدث، فأمسك بكفه قائلا:

أيها الجنّي الطافح علما وحكمة؛ منذ أن التقينا، ضحكْتَ ثلاث مرات، هلاً أخبرتني لماذا؟

أجاب دجينا نبارا:

- لقد ضحكت من غرور البشر، وبالخصوص من الثقة التي يؤكد الناس بها أمورا لا علم لهم، في الحقيقة، بها.

قالوا للملك إنني أعرف كل شيء، والحال أنني لا أعرف حتى

أن العسل المذاب في الماء يمكنه أن يسكرني ويجعلني عاجزا؛ وإلا لكنت تحاشيت فخكم. لهذا ضحكت ضحكتي الأولى.

وضحكت في المرة الثانية، لأن الرجل الذي يعتبر نفسه متنبئا ويبحث عن منجم للذهب، كان جالسا تحت شجرة جذورها مغطوسة في أشسع منجم للذهب يوجد الآن في أحضان الأرض.

وأخيرا، عند دخولنا إلى غرفة الملك، ضحكت للمرة الثالثة لأن الملك صرف ثروة كاملة كي يعالج ابنه، في الوقت الذي كان العلاج ملك يديه، فقط خلف سريره! آنذاك، وقبل أن ينفتح فم أي واحد من الحضور كي يَطرح على الجني الطّيب سؤالا آخر، تحول دجينا نبارا إلى ضوء وحلق مثل نجمة هاوية، مختفيا في الفضاء، دون أن يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان قد ذهب فوقَ أو أسفلَ!

تلك هي فضائل الخضوع الجدّي وسلطة الحقيقة المحرِّرَة! فدجينا نبارا لم يكتف بأن يتجنب الغرور بالسّمعة التي صُنعت له، مفضلا قول الحقيقة عن نفسه، بل أضاف إلى ذلك قيادة شخوص الحكاية الثلاثة إلى الاعتراف بأسرارهم الحميمية، محررا بذلك قلوبهم، وهو شرط علاج الأمير الطفل.

حفنة رمل

«حكاية فولانية»

كان يعيش في إحدى القرى، رجل غني جدا، إلى درجة أنه لم يكن يعرف ما يفعله بماله. وكان هذا الرّجل يحبّ أن يقف في شرفة منزله، فلاحظ أن رجلا فقيرا يمر كل صباح، قُدّامَ بابه: كان يتوجه إلى الدّغل كي يجمع الحطب ويبيعه ليعول عائلته.

ذات يوم، قال الرجل الغني للفقير: أراك كل يوم تمر أمام بابي، فأشفق لحالك. ومن الآن فصاعدا، تعالَ كل صباح كي تطلب مني المال الضروري لمصاريف عائلتك؛ وبذلك لن تعود في حاجة إلى الذهاب إلى الدغل لجمع الحطب. صباح اليوم التالي، أتي جامع الحطب ووقف أمام الثري وحياه ومكث منتظرا.

كم يلزمك لمصاريف يومك؟ سأل الغني وهو يدخل يده في جيبه.

- أعطني حفنة رمل. ستكون كافية. أجاب الفقير. وعلى الرغم من اندهاش الغني من هذا الطلب، انحنى وجمع حفنة رمل من الأرض وسلمها له. شكره الفقير كما لو كان قد تسلم منه حفنة من معدن ثمين، ثم، وكعادته، انطلق لعمله.

صباح اليوم التالي، وقف الرجل الفقير من جديد أمام باب الغني وطلب منه، مرة ثانية، حفنة رمل، فسلمها الثري له.

استمرت الأمور على هذه الحال لبضعة أشهر، من دون أن تطرأ أي مشكلة. وذات صباح، عندما أقبل بائع الحطب ليطلب حفنة رمله، خاطبه الثري بسخرية:

- اسمع يا صديقي! إن كنت تريد حفنة رملك، كلف نفسك مجهود الانحناء واجمعها من الأرض بنفسك. فأنت في النهاية تتعبني!

عندما سمع جامع الحطب هذه الكلمات، انفجر ضاحكا:

آه أيها الرجل الغني! ها أنت قد تعبت من مجرد إعطائي حفنة رمل لا تساوي سوى مجهود الانحناء لجمعها. ماذا كان سيحصل لو كنت آتي إليك كل صباح كي أطلب منك قطعة نقدية؟

دعني إذن أحصل أنا نفسي على ما أعيل به عائلتي؛ فعرق جبيني لن يتضايق أبدا مما يقدمه لي كل يوم، لكن أي شيء آخر غيره سينزعج من ذلك عاجلا أو آجلا.

تنتهي كلمة «خُذْ» دائما بإتعاب من ينطق بها. فعلى الرغم من أن هذه الكلمة لا وزن لها، فإنها تصبح ثقيلة إن قيلت لمدة طويلة.

الملك والرجل الأحمق

«حكاية فولانية»

في أعماق الغابة، كان يبسط حكمَه ملكٌ طاغية يسمى هيديالا. كل صباح، كان خبث هذا الملك يُنتِج ما به تَغلي أدمغة الرعايا من القلق.

وعلى الرغم من نصائح مستشاري هيديالا، فإنه كان قد قرر بصفة نهائية، مستسلما لعناده، أن يعذّب كلّ من أصبح له صيت طيّب في البلد. كان حاجباه مقطّبين علىٰ الدوام، ولم يكن يرفع يده إلا كي يضرب، ولم يكن يفتح فمه إلا ليسب. كان يطلب من البعض أن يبتلعوا ألسنة لهب، ومن آخرين أن يلعقوا مدية قاطعة، وأمورا أخرى لا يعلمها إلا الله!

وكان يعيش بالمنطقة رجل معروف بمعرفته الغزيرة. كان الناس يلتمسون الاستفادة من حكمته الكبيرة. وهذا كان كافيا كي يرغب هيديالا في إزعاجه، فطلبه للمثول أمامه. اجتمع حشد كبير من الناس، يوم اللّقاء، حريصٌ كل واحد على أن يكون حاضرا لمعرفة ما سيحصل.

قال الملك:

لقد سمعت أنك تدّعي معرفة كل شيء.

- سيدي، أجاب الحكيم، أنا لم أدّع أبدا أنني أعرف كل شيء. إنّ ما أعرفه ليس سوى قطرة، في حين أن ما لا أعرفه محيط شاسع.

- آه! آه! أنت إذن لا تعرف أي شيء، ومع ذلك تتبجح وسط

تلامذتك المزعومين! إذن، فسيكون عليك أن تغطس في قطرة معرفتك الصغيرة كي تعثر فيها على الجواب عن هذا السؤال: عندما نترك مدقا يسقط في جرن فارغ، عن أي شيء سيصدر الدَّوِي الذي سينبعث: عن المِدقّ أم عن الجرن؟ فكر جيدا وأجِب، وإلا فإنني سأشنقك على الفور.

ظل الحكيم صامتا للحظة، ثم قال:

يصدر الدوي عنهما معا.

- لكن ما هي نسبة الكثافة؟ سأل الملك من جديد.

ظل الحكيم صامتا، لا يعرف بما يجيب.

قال هيديالا من جديد:

بسرعة، أيها الحكيم الشهير الذي تتجاوز معرفته مدقا وجرنا!

في هذه اللحظة، أزاح رجل أحمق الجمهور من طريقه وتقدم نحو هيديالا.

أيها الملك! صاح. لا يستطيع أحد لم يسبق له أن أصيب بارتجاج دماغي أن يطرح مثل هذا السؤال، ومن يجيب عنه، يجب أن يكون ذا عقل مخبول. وأنا من سيشبع فضولك. آنذاك رفع ذراعه ووجه للملك صفعة كانت من القوة بحيث سمعها كل من كان في القرية. ثم انفجر ضاحكا: ماذا ترى أيها الملك! عن كفي أم عن خدك صدر الدوي، وبأية نسبة؟

غالبا ما يَلزَم أحمق لتربية طاغية.

درس الخضوع

«حكاية صوفيّة فولانية»

كان ناسك اسمه سولي يعيش، في مملكة ساولي، داخل مغارة تقع على خاصرة جبل تتناوب عليه الشمس الحارقة والرياح القوية والأمطار العاصفة. لم يكن يقتات إلا من الفواكه الوحشية والعسل الذّهبي، ولم يكن يشرب إلا ماء النبع، ولا يخرج للتنزه في الغابة إلا عندما يكون النّحل يجني لقاح الزهور.

ذات يوم غامَر راعٍ، معتاد على لعق عرق الزهور الحلو والفواكه الوحشيّة، بالذهاب إلى الجبل، بعيدا عن الأماكن التي اعتاد الذهاب إليها. وثمة لمح الناسك. أراد الاقتراب منه ومحادثته، لكن الرجل الوحداني فرّ منه كأن حيوانات متوحشة تهدده. استولى الفضول على الراعي فانطلق يعدو وراءه. قاما، بين الأشجار والحجارة، بسباق جنوني وغير منظّم، كأنهما جرذان يطارد أحدهما الآخر. لم يجد الناسك، في الأخير بُدّا من الالتجاء إلى مغارته. دلف الراعي إليها وراءه، لكن المغارة كانت شاسعة وممراتها الداخلية يفضي بعضها إلى بعض، إذْ لم يكن بها مكان يمنع المار من الاستمرار في سيره.

تعب الراعي من العدو فتوقف. وعندما استعاد أنفاسه خرج من المغارة وأخذ طريق العودة.

توجه رأسا إلى الملك سايدو، زعيم القطر ونائب ملك صاولي الأعظم، فقال له:

سيدي! لقد رأيت بأمّ عيني، في المغارة المقدّسة، رجلا يلبس أوراقا وأليافا نباتية. وقد حاولت أن أعرف من يكون فاقتربت منه لأكلمه، لكنه فر مني كما يفر حمل من ضبع، فعجزت عن القبض عليه. لا شك في أن هذا الرجل ناسك، وإلا فإنه لن يكون إلا إنسانا مخبولا أو جنّيا شريرا.

أُثير فضول الملك فنادى على حامل سيفه وقائد الحرب المسؤول عن الجياد، وأمرهما قائلا: اجمعا فرقنا العسكرية واذهبوا لتحاصروا الجبل الذي سيقودكم هذا الراعي إليه. في إحدى مغارات هذا الجبل المقدسة يعيش رجل، إن لم يكن جنيا. عليكم أن تأتوني به مهما يكن الثمن. وإلا فإنني سأذبحكم! هيا!

طوّق الجنود الجبل وقطعوا كل الطرق التي تؤدي إليه، ثم أخذوا يصعدون. نادى زعيمهم على الناسك رافعا صوته نحوه بأن الملك يريد مقابلته. عندما رأى الوحداني أنه قد وقع في الفخ، خرج من مخبئه وقبِل أن يمشي مع الجنود الذين أخذوا طريق قصر سايدو.

بمجرد أن أُدخل الناسك على الملك، استولى على هذا الأخير، عندما رآه، شعور غير قابل للتفسير. اجتاح قلبَه شعورٌ عميق بالاحترام الديني. سأله بلطف:

ما اسمك؟

- اسمي سولي.
- ماذا تفعل بمغارة الجبل؟
- أتدرب فيها على كيفية التحكم في نفسي، وأتعلّم.

- ولماذا تفر من مماثليك من الناس كأنّهم مرضٌ مزعج مقرف؟

- لا أستطيع أن أجيب عن سؤالك، أيها الملك، لأنك توجد على قمة جبل، بينما أوجد أنا في عمق وادٍ منخفض. لن يصلك كلامي إلا على شكل صدى متلاش لأصوات بعيدة. المسافة التي تفصل بيننا كبيرة للغاية.

- وما الذي يجب القيام به كي تنعدم هذه المسافة فيصل كلامك حتى يصير مِلك روحي؟

- عليك أن تصبح مريدي النجيب.

- أنا مستعد للاستماع إلى تعليماتك. لكن ما الذي عليّ أن أقوم به كي أصير كذلك؟

- أن تنزل من عرشك وأن تغير ملابسك الجميلة بأسمال وأن تنسى ثروتك الكبيرة. وكي لا تندم البتة على وضعيتك، عليك أن تعتبر كأن سوءا أصابك وأن تقول لنفسك إنه مهما تكن قسوة المحنة التي أصابتك من فورك، فإن ثمة دائما شقاء أفظع جنّبك الله إياه فضلا منه ومنّةً.

نزل الملك، من دون أن يضيف كلمة واحدة، من على عرشه الجميل، وسلم قيادة مملكته لأخيه وتجرد من ثيابه الفاخرة وتبع سولي. غادرا المدينة معا، وتسلقا الجبل ثم ولجا المغارة.

وهناك، بعيدا عن الحركة وعن دَعَة المدينة ومتعة القيادة، تعلم الملك سايدو التأمل تحت قيادة سولي. بعد شهر من التمارين، لاحظ أن حاله قد أصبحت سلفا أحسن مما كانت. واصل مجهوده دون خَوَر فاستطاع، أخيرا، أن يجتاز الحواجز

التـي تفصل بين الكائنات. اسـتطاع أن يدرك ويتيقن من تفاهة وضعيات وطموحات البشر في هذا العالم الزائل. استطاع أن يلج سـرَّ الوجود. علـم أن وجود كل مخلوق، مـن الحجر الجامد إلى الإنسـان الذي استطاع فكرُه أن ينتج كل تلك العجائب، ضروري ولا يعوض. تعلم كيف يحترم كل الكائنات الحية، النشيطة وغير النشـيطة، التي تعمر مملكات الطبيعـة الثلاث. تطور لديه هذا الوعـي بعمـق إلى درجة أنـه لم يعد يرى على هذه الأرض شـيئا واحدا قيمته أقل من قيمة شخصه هو.

قال سولي، بعد أن رأى التطور الكبير الذي حققه مريده:

سـايدو، أنـا سـعيد لأننـي ألاحـظ أنك مـا عدت ذلـك الملك المتعالي الذي يعتبر بقية الناس مجرد ذرات رمل توطأ بالأقدام. أنـت الآن تعرف أن كل شـيءٍ موجودٍ يحتـل مكانا فريدا لا يمكن لغيـره أن يحتله، وأن كل شـيء موجهٌ ويمشـي رويـدا رويدا نحو الخيـر الأسـمى. لقد ولَجَت هـذه الحقيقة - أنـا أعرف ذلك - كينونتك وتنظَّف قلبك تماما من العُجْب إلى درجة أنك لم تعد ترى أي شيء أقل منك قيمة.

قال سايدو:

- هذا صحيح. أنا أعتبر نفسي اليوم أقل المخلوقات.

- وإذن، قبل أن أَفُكَّ لك العُقَد التي تلفُّ أسرار الخير الأسمى، عليـك الآن أن تذهـب لتجـوب الدنيا ولتحاول اكتشـاف كائن أو شيء تُقَدِّر أن قيمته أدنى من قيمتك.

ودّع سـايدو معلمـه وركـب كل مجـاري ميـاه الأرض وتسـلق الجبـال والتـلال والهضـاب، وزار القرى والبلـدات وقصور الملوك

ومغارات اللصوص، واستشار المسنين، وسبر بعينيه السماوات، وتملّى بفكره المجرات والنجوم، وتأمل بانتباه ما يدفع به المد نحو الأرض وما يسحبه الجزر نحو أعماق البحر؛ بكلمة، تأمل كل شيء، لكنه لم ير في أي مكان أي شيء يقدّر أنه أقل قيمة منه. وكل مرة يقدّر أن شيئا ما قد يكون متواضعا، يعود ليرى فيه فضيلة أو خاصية هو نفسه محروم منها.

في النهاية، وبعد أن اقتنع بالفعل بأن موقعه يقع في آخر السلم، قرر أن يعود كي يقول لمعلمه إنه لم يعثر، فوق هذه الأرض، على كائن واحد أو شيء واحد أدنى منه قيمة.

في طريق عودته، أحسّ في لحظة أنه، كما يقال، في حاجة «للذهاب إلى الدغل» كي يقضي حاجة طبيعية. دخل إلى غابة صغيرة. عندما شرع يفحص المكان، اكتشف فضلات له جافة كان قد وضعها أثناء ذهابه لأول مرة، فقال مبتهجا: أخيرا! عثرت على ما كنت أبحث عنه، فأنا، من دون شك، أساوي، على الأقل، أكثر من قيمة فضلاتي الشخصية!

مد كفه كي يمسك بالكوَيرة الجافة ويحملها ليريها لمعلمه، لكنه سمع فجأة، مندهشا، أصواتا صغيرة متعددة تنبعث من الكويرة! كانت كل ذرة من هذه المادة التافهة تتأوه وتتوسل إليه: من فضلك، أنت أيها الإنسان، جنبنا كل اتصال مشؤوم! كنا في الأصل، وقد خرجنا من زهور فواحة، ذرات معطرة. في أول اتصال لنا بك أصبحنا دقيقا، فاقدين بذلك خاصيتنا الأساسية المتمثلة في أن نتوالد كي نؤبد نوعنا. وفي اتصالنا الثاني بك، تحولنا إلى مواد غذائية. وهنا علينا أن نعترف بأننا كنا أصبحنا

ذَوَاتِ منافعَ مشَهِّية ومغذية. لكن عند اتصالنا الثالث بك، أدخلتنا فيك، ومن ثمّ خرجنا للوجود ثانية في حالة مزريّة! ظللنا لأيام طويلة مادة منفرة نؤذي أنوف المارة وحناجرهم. الآن وقد نظفَنا الهواء وييبستنا الشمس، الآن إن أخذْتَنا ثانية، ما الحال الذي سنصبح عليه؟ نرجوك واصل طريقك يا ابن آدم، ويا أيها الكائن التافه والسامي في الآن نفسه! إننا نخشى، إن لمستنا، أن نصبح هذه المرة شيئا لا يستطيع لا الماء ولا الهواء ولا النار تطهيره!

عاد سايدو، محزونا، إلى معلمه. روى له حكايته وقال ملخصا: إنني أتفه الكائنات مادامت قيمتي أقل حتى من فضلاتي!

وقف الرجل التقي. وضع كفيه على رأس وجبهة وصدر سايدو، ثم قال:

لقد أدركت روحك، يا أخي في الله، ذروة الحكمة. عندما نحس بأننا أكثر الكائنات بؤسا نكون قد أدركنا أوج الحياة الروحية. اذهب. عد إلى بيتك وعرشك. ستكون، من الآن فصاعدا، محسوبا من بين العدد القليل من الملوك الذين لا يعميهم لمعان تاجهم. ستكون «ملكا متعلما». لن يسود النورُ والسلمُ والحبُّ والرحمةُ، على الأرض إلا عندما يكون كل الذين يحكمون مثلك، متعلمين.

ماتزال الإنسانية، على ما يبدو، تنتظر هذا اليوم السعيد.

أسطورة نجدو ديوال

«مقدمة أمادو همباطي با»

تنتمي الحكاية التلقينية الكبرى «نجدّو ديوال»، أمّ الكارثة، إلى صنفِ حكايتيْ «كايدارا» و«التماعة النجم الأعظم» (*)، وتحتل منه المرتبة الأولى. نعثر في هذه الحكايات الثلاث المتكاملة، على شخوص مشتركة: نعثر على حمادي - بطل «كايدارا» - في «التماعة النجم الأعظم»، بينما نجد في نجدو ديوال باغوماويل، الملقّن الأكبر في الالتماعة، في شكل طفل معجز، شاب وعجوز، في الآن نفسه.

وإذا كانت «كايدارا» تلقي الضوء على البحث عن المعرفة، مع ذكر ذهابٍ وإيابٍ محفوفين بالمحن وبالإشارات الخاصة، فإن «التماعة النجم الأعظم» تتحدث عن البحث عن الحكمة مع تعليم حفيد حمادي من طرف باغوماويل السلطةَ الملَكية، أما حكاية نجدو ديوال، أم الكارثة، فنعثر فيها على صراع بين الخير والشر.

في هذه الحكاية، نجد مسارا خطيا، مثل الحكايتين الأخريين، يمتد بين نقطة بداية ونقطة نهاية، لكننا نعثر

(*) تتم الإشارة باستمرار إلى الكتب «كومين والتماعة النجم الأعظم وكايدارا» في هوامش هذا الكتاب.

ورفعا لكل التباس، فإنني ألح على أنني لم أتعاون ولم أعط موافقتي على بعض «القراءات» وبعض «أوجه النظر» التي أنجزها أشخاص انطلاقا من حكايات سبق لي أن نشرتها، وبالخصوص كايدارا. إن هذا النوع من الكتب وما ورد فيها من أفكار لا يعني، بالضرورة، إلا أصحابه. لكل بحث غرض يسعى إليه؛ لكن ليُسْمَح لي أن أحذّر، حبيا، الباحثين الشباب من مغبة محاولة «إلصاق» بعض الحكايات الأفريقية بأنساق فكرية مسبقة أو ببعض المعايير الفكرية الغريبة عنها.

فيهـا، عكس الحكايتين الأخريين، على تغيـرات مفاجئة عديدة فـي الأحداث، وعلى معارك عجيبـة ورحلات محفوفة بالمخاطر، تتخللها نجاحات وإخفاقات ومغامرات تتجدد باسـتمرار إلى أن نصل إلى النهاية السعيدة. حكاية نجدو ديوال هي صورة الحياة نفسها: فالصراع بين الخير والشر يحدث دائما حولنا كما يحدث داخل ذواتنا نفسها.

وكما هو الشأن بالنسبة إلى كل الحكايات التلقينية الفولانية، يمكن لحكاية نجدو ديوال أن تُقرأ، أو أن تُسـمع، على مسـتويات عـدة. فهـي، أولا، حكايـة عجيبة كبرى، قادرة على أسـر وتسـلية الصغـار والكبار معا. وهـي، ثانيا، حكاية تعليمية على المسـتوى الأخلاقـي والاجتماعـي والتقليـدي، حيث يُعَلَّمُ، عبر شـخوص وأحـداث نموذجيـة، مـا يجـب أن يتصف به السـلوك الإنسـاني النموذجي.

وهي، أخيرا، نص تلقيني عظيم، على اعتبار أنها تبرز المواقف التـي يجـب تقليدهـا أو رفضهـا، والفخـاخ التي يجـب تجنبها، والمراحل التي يجب قطعها عندما نأخذ الطريق الصعب للبحث عن اكتمال الذات.

أمَـامَ نجـدو ديـوال، ممثلة الشـر القويـة جدا، والتـي تعتمد فقـط علـى قدراتهـا الخاصة وعلـى التحكـم في بعـض القوى السـحرية، تَبْرُزُ شخوص تجسـد أنبل الصفات الإنسانية، وتكون قوتها الحقيقية، في النهاية، هي وضع الثقة، كل مرة، في العناية الربانية أثناء مواجهة صعوبات الحياة.

وعليـنـا ألا ننسـى أن الأسـاطير والحكـايـات والخـرافـات

أو لعب الأطفال، قد شكلت، باستمرار، بالنسبة لحكماء الأزمنة القديمة، وسيلة ينقلون من خلالها، وعبر القرون، بطريقة مقنِّعة بهذا القدر أو ذاك، ومن خلال صور، معارفَ تظل، منذ أن تُتَلَقَّى في الصِّبَى، محفورة في الذاكرة العميقة للفرد، كي تعود إلى الظهور، ربما، في الوقت المناسب، مُنَارة بمعنى جديد. كان الشيوخ الملقّنون في بلاد بامبارا يقولون: إن كنتم تريدون إنقاذَ معارفَ وجعلَها تسافر عبر الزمن، أَسِرُّوا بها للأطفال.

* * *

لحكاية نجدو ديوال فائدة خاصة، من حيث كونها تقدم، منذ البداية، مشكلة أصول الفولانيين. فهي تصف لنا البلد الرائع هيلي ويويو حيث قد يكون عاش، منذ أزمنة سحيقة، الفولانيون، سعداءَ متمتعين بكل الخيرات، في مأمن من كل شر، بل حتى من الموت نفسه. بعد ذلك أثاروا الغضب الإلهي بسلوكهم السيئ وبجحودهم، فقرر جينو أن يعاقبهم فخلق مخلوقا رهيبا وشريرا، هو نجدو ديوال المشعوذة العظمى، التي أصابت تمائمُها سكانَ هيلي ويويو التعساء بالكوارث التي اضطر الفولانيون، كي يتقوها، إلى الفرار عبر ربوع الدنيا.

وحدها الكائنات الطّاهرة «با - وامندي وزوجته وكوبو، الخروف المعجز، والمعلم سيري ولاحقا باغوماويل الطفل المبَشَّرُ به» ستستطيع مقاومةَ المشعوذة الرهيبة والانتصارَ عليها، في النهاية، بفضل عون جينو.

وتثير هذه الأسطورة التي تتحدث عن الأصول، بطريقة عرضها، مختلف الأسئلة التي تناولناها في الملحق، من خلال

الهامشين ١ و١٥، خصوصا ما تعلق منها بتأثير موروث بلاد ماندي على بعض الأساطير الفولانية.

وهناك فائدة أخرى لهذه الحكاية: نعثر فيها، مع بعض التنويعات، تقريبا على نفس حبكة الحكاية الغربية الأُبَيْهِمُ الصغير (*) لكن مع غنى أكثر في التفاصيل وفي التحولات المفاجئة في مسار الأحداث. كما نعثر فيها أيضا على الإخوة السبعة المتسمين ببعض الغباء، وعلى الفتى الصغير الماكر والماهر (يتعلق الأمر في حكاية نجدو ديوال بباغوماويل ابن أختهم) الذي يواجه، بدلا من الغول (في الأُبَيْهِمُ الصغير)، نجدو ديوال مصاصة الدماء. ومن الغريب، فوق ذلك، أن نجدو ديوال لن تموت إلا بالطريقة التي يموت بها أمثالها من مصاصي الدماء

(*) ملخص لحكاية الأُبَيْهِمُ الصغير: نال الفقر والبؤس من الحطّاب وزوجته، فقررا أن يضيعَا أبناءهما السبعة في الغابة، لأنهما لم يعودا يجدان ما يطعمانهم به. لحسن الحظ، كان أصغر أطفالهما والمكنى «الأبَيْهِم الصغير»، بسبب قصر قامته، مايزال مستيقظا فسمع محادثتهما. وعندما كانا متوجهين بأطفالهما إلى الغابة، عمد «الأبيهم الصغير» إلى تعليم الطريق بحصيات بيضاء صغيرة، اعتمد عليها في إعادة إخوته إلى المنزل. فرح الأبوان بعودة الأطفال، لأن سيد البلد كان قد سدد لتوه للحطاب دينا كان في ذمته. لكن لحظات السعادة لم تدم إلا قليلا.
قرر الأبوان من جديد إضاعة أبنائهما في الغابة، فاقتاداهم عامدين إلى منع الأبيهم الصغير من جمع الحصيات. وجد الأطفال أنفسهم، ثانية، ضائعين في الغابة، فعثروا على كوخ حذرتهم المرأة التي تسكنه من أن يلجوه لأن زوجها غول وسيأكلهم. لكن الأطفال فضلوا مواجهة الغول على مواجهة ذئاب الغابة. أدخلتهم زوجة الغول وأخفتهم في سرير، لكن زوجها الغول سرعان ما اكتشف مخبأهم. عندئذ أقنعته زوجته بأن يؤجل وليمته إلى صباح الغد، فنام الأطفال. بعد ذلك عمد الأبيهم الصغير إلى تغيير تيجان البنات السبع، بنات الغول، بطاقيات إخوته، تحسبا لما قد يقدم عليه الغول أثناء نومهم. وبالفعل، دخل الغول تحت جنح الظلام إلى الغرفة وذبح البنات السبع، ظانا أنه يذبح الإخوة السبعة. آنذاك فر الأطفال وطاردهم الغول بعد أن ارتدى حذاءه. وعندما تعب، جلس على الصخرة التي يختبئ تحتها الأطفال. أقنع الأبيهم الصغير إخوته بالعودة إلى بيت أبويهم، أما هو فقد ارتدى حذاء الغول وعدا في اتجاه كوخه. قال لزوجة الغول إنّ قطاع طرق أسروا زوجها وهم يطالبون بفدية كبيرة وأن الغول يطلب منها كل ثروته. وكي يقنعها أراها الحذاء قائلا إن الغول هو من سلمه إياها كي يصل بسرعة. عندما حصل على ما أراد، عاد إلى منزل أبويه اللذين استقبلاه بترحيب وفرح (المترجم).

فـي الحكـايـات الغربيّة، كمـا سـنرى في نهاية الحكاية. فكيـف لا نطرح، إذن، بعض الأسئلة حول أصل بعض الأساطير؟

* * *

نجـدو ديـوال – مثـل كايـدارا والتماعـة النجـم الأعظـم – تعـد حكايـة من نوع «جانتـول» وهو جمع كلمـة «جانتي»، وتعني حكايـة طويلـة جدا تقوم على شـخوص آدميـة أو عجائبية، ذات بعـد تربوي أو تلقينـي، وغالبا ما يلتقي فيهـا البعدان معا، كما يقـول، فـي البداية، راوي حكاية كايدارا: «أنـا، في الآن ذاته، تافه وذو جدوى وبناء».

يُنشـد الجانتـول دائمـا، إمـا عبـر أشـعار ذات إيقـاع سـريع (ميرجـي: شـعر)، أو نثـرا (فولفولـدي ماونـدي : طريقـة كلام الفولانيين العظمى). نسخة نجدّو ديوال المحكية هنا نثرا، على الرغـم من أنها تَسـتعمل «ميرجـي» مرارا، فإنها، عكـس كايدارا، أكثـر اكتمـالا وأكثر ثـراء بالتفاصيـل، من هذه الأخيـرة. ولهذا السبب اخترنا هذه النسخة كي نقدمها للجمهور.

في الجانتول، يكون على الحكّاء التقليدي ألا يغير أي شـيء مـن حبكـة الحكاية (يعنـي: تطور الأحـداث ومراحلهـا والرموز والأحـداث الدالـة). غير أن بإمكانه أن يغنيهـا ببعض التلوينات حـول نقط ثانويـة، وأن يجمّلها وأن يفصّل أو يختصر في بعض الأجـزاء وفق قدرة اسـتيعاب مسـتمعيه. يكون هـمّ الحكّاء، قبل أي شـيء آخـر، أن يثيـر اهتمـام مـن يحيطـون بـه، وأن يعمـل، بالخصـوص، علـى تجنـب إصابتهـم بالضجـر. علـى الحكايـة أن تكـون دائمـا ممتعـة عند سـماعها، كمـا أن عليهـا، في بعض

اللحظـات، أن تجعل أكثر الناس صرامة يبتسـمون. فحكاية من دون ابتسام هي مثل طعام بلا ملح.

إن النسـخة المقدمة هنا، لم تحتـرم، بصرامة، حبكة الحكاية كمـا يجـب، فقط، بل احترمـت، أيضا، تفاصيلها، كمـا نُقلَت في الموروث نثـرا. إننا لـم نسـمح لأنفسـنا، في بعـض المواضـع، إلا بالإتيان ببعض التدقيـقات، ذات الطـابع الشـكـلي الصـرف، كي نسهل الفهم على القارئ، وتحديدا كي ندقّق بعض الترابطات الزّمنيـة، أو كـي نظهـر العلاقة بين السـبب والمسـبِّب، وهي أمور لا يحفـل بها المسـتمع التقليـدي، الذي قليلا مـا يهتم بمنطق الأشياء أو بتعاقبها الزمني.

جـرت العادة بـين الحكائين التقليديين المؤهّلـين، أن يقطعوا حكاياتهـم كـي يذكروا عـددا من التفاصيـل التعليميـة. وهكذا تصبـح كل شـجرة وكل حيوان مادة لتعليـم تطبيقي ورمزي، في الآن نفسه. أما نحن فلم نرد أن نقطع إيقاع الحكاية باستطرادات مـن هـذا النوع، هذا فضلا عن أن النص نفسـه يحوي بعضا من ذلـك، خصوصـا في بدايته. كما أننا أشـرنا في الهوامش إلى كل الأمور التي أردنا رفعها إلى علم القارئ.

وسـيعثر القـارئ (فـي هوامـش مرقمة) علـى الإشـارات ذات الطابع اللغوي أو التي أردنا بها تسـهيل فهم النص، كما أننا قد سقنا في الملحق التفصيلات الرمزية الخاصة بالموروث الأفريقي بصفة عامة.

* * *

تقوم الحكاية – بعد جزء أول خصِّص لوصف البلد الأسطوري هيلي ويويو – على محورين رئيسَين:

يتحدث المحور الأول عن البحث الذي قام به با – وامندي، جدُّ باغوماويل. وبا – وامندي هذا، رجل بسيط وطيب وخيِّر تجاه كل شيء حي في هذا الوجود. فهو يجسد، رفقة زوجته ويلوري، كل الفضائل الإنسانية. فهو، كي يهيئ لمجيء حفيده المنتظر، والذي سيكون الوحيد القادر على مواجهة نجدو ديوال الخطيرة، لن يتردد في القيام ببحث محفوف بالمخاطر، سيقوده إلى قلب بلد المشعوذة العظمى. هو، بروحه البريئة والواثقة، لا يهتم البتة بما سيحصل له. كما أن جينو سيساعده في كل خطوة من خطواته، وستكون الطبيعة كلها رهن إشارته.

سيتوجه با – وامندي، في البداية، مصحوبا بخروف مُعْجِز، كي يطلق سراح سيري، وهو رجل ذو قدرات خارقة، تأسره نجدو ديوال. بعد ذلك، سيقومان معا، رفقة الخروف، برحلة مثيرة، كي يخلصا إلاها تستعبده نجدو ديوال، ويشكل منبع قدرتها السحرية. سيسمح نصرهم هذا بحل العُقَد الأولى للقدرة الشريرة لـ «الكارثية» والتمهيد لما سيقوم به باغوماويل لاحقا.

يعد باغوماويل نموذج المطلع على الأسرار. فالطرق التي يتصرف بها ليست في متناول البشر. في «التماعة النجم الأعظم»، يرمز إلى المعرفة: فهو المعلم والمربي والملقن. وهو يتجسد في حكاية نجدو ديوال هذه، في شكل طفل يأتي لنجدة الشعب الفولاني وتخليصه من شر نجدو ديوال. وما يقوم به، لا يفعله استجابة لإرادة شخصية، بل يقوم به باسم

القدرة والمهمة اللتين تلقاهما من جينو، في حين أن نجدو ديوال تتصرف، من جهتها، دائما، كي تشبع رغباتها الشخصية، بانية قدراتها على أسْرِ واستعباد قوى وسيطة (آلهة أو عفاريت) من دون الرجوع البتة إلى جينو، الخالق الأسمى. فهي لن تلتفت إلى جينو إلا في آخر الحكاية، عندما ستنقلب، أخيرا نحوه - وقد أشرفت على الانهزام وجُردَت من كل شيء وأصبحت تعيسة - كي تلتمس عونه، لكن دائما بنِيَّة الإيذاء.

* * *

يُعْتَبر كلُّ جانتول، في المجتمع التقليدي، بمنزلة كتاب ينشده المعلم ويعلق عليه. أما الشاب، فيجب عليه أن يستمع وأن يتأثر بما يسمع وأن يحفظ الحكاية وأن يعمل، ما استطاع، على أن يعيشها مع نفسه. وهو يُنصَح (كما هو الشأن في كايدارا) بأن يعود دون انقطاع إلى الحكاية خلال اللحظات الفاصلة في حياته. فبالموازاة مع نضجه الداخلي، سيتغير فهمه وسيعثر، في الحكاية، على إشارات جديدة. وكل امتحان يجتازه في حياته، سيجعله، في الغالب، يفهم الدلالة العميقة لهذا الفصل أو ذاك من الحكاية؛ وفي المقابل، فإن فصلا من الحكاية قد يساعده على فهمٍ أجودَ لمعنى ما يحياه ويعيشه.

وبالفعل، فإن لكل شخوص الحكاية ما يماثلها فينا. نجدو ديوال وباغوماويل يعيشان فينا مثل قطبين متباعدين تماما أحدهما عن الآخر. وكينونتنا هي ميدان معركتهما.

كي ننتصر، في ذواتنا، على نجدو ديوال، يجب أن نعرف، أولا، كيف نحددها ثم كيف ندجنها، وأخيرا كيف ننصت ونتعرف على

صوت باغوماويل الذي يعرف كيف يشحذ فينا شجاعةَ مواجهةِ الشر بمساعدة جينو. إنه صوت الخير وصوت من يعرف كيف يسامح ويضحي بنفسه من أجل الآخرين. ولذلك، فهو محفوف بمساعدة جينو وأجداده الأوَّلين؛ إذْ يأتي دائما حدث غير منتظر ليساعده، في الظروف الأكثر مدعاة لليأس.

لكننا نحمل في ذواتنا أيضا غباء الإخوة السبعة وعنادهم وعدم انتباههم (*)...

وأخيرا، فإن الولوج إلى داخل حكاية، هو، تقريبا، بمنزلة الولوج إلى داخل الذات. الحكاية هي مرآة يمكن لأيٍّ كان أن ينظر إلى صورته فيها.

وهذه مناسبة بالنسبة إلي كي أتقدم بامتناني إلى نورية، المتعاونة النشيطة، التي بفضل عملها وعنايتها خرج هذا الكتاب وكتبٌ أخرى للوجود.

أمادو همباطي با

أبيدجان، ١٩٨٤

(*) وينسحب هذا على بقية الحكايات أيضا، وخصوصا كايدارا. يجب البحث في ذواتنا، وليس في تلك الفئات الاجتماعية الخارجية، عنما يوافقنا من صفات حميدة وسيئة للشخوص.



الأصل الأسطوري لحكاية نجدو ديوال

«في نظرية بلاد ماندي حول نشأة الكون»

قبل نشـأة الكون، وقبل بداية أي شـيء، لم يكن ثمة أي شيء، سـوى كائـن. كان هـذا الكائـن فراغا بلا اسـم ولا حـدّ، لكنه كان فراغا - حيّا، حاضنا في ذاته مجموعَ كلٍّ الموجودات الممكنة.

كان الزمـن اللانهائـي واللازمنـي هـو مسـكن هـذا الكائن - الأوحد.

اتخذ لنفسـه عينين؛ أغمضهما فانتشـر الظلام، ثم فتحهما فوُلِد النهار.

تجسـد الليـل في ليورو، (القمر). وتجسـد النهـار في نانغي، (الشمس).

تزوجت الشمس القمر. فولدا دومونا، الزمن الزمَاني الإلهي.

سـأل دومونا الزمن اللانهائي بأي اسـم سيناديه. أجاب هذا: «نادني جينو، الخالد (*)».

أراد جينـو أن يكـون معروفا؛ أراد أن يكون له مُخَاطب. حينئذ خلـق بيضـة عجيبـة، تحوي تسـعة أجـزاء، ودس فيهـا الحالات التسع الأساس للوجود.

بعـد ذلـك سـلم البيضـة للزمـن الزمانـي دومونا وقـال له: احضنها بصبر. وسيخرج منها ما سيخرج.

حضن دومونا البيضة العجيبة وسماها بوتشيندي.

(*) جينو «الخالد»، هو بالنسـبة إلى الفولانيين، الإله الخالق الأسـمى (المعادل في بلاد بامبارا لـ: مانغالا).

عندمـا فقصـت هذه البيضـة الكونية، وُلِدَ منها عشـرون من الكائنات الرائعة التي شـكلت مجموعَ الكـون المرئي وغير المرئي، ومجموعَ القوى الموجودة وكلَّ المعارف الممكنة.

لكن، للأسـف، لـم يَبْدُ أي من هذه الكائنات العشـرين مؤهلا لأن يصبح المُخَاطَب الذي أراده جينو لنفسه.

آنذاك انتزع جزءا من كل واحد من المخلوقات الموجودة. خلط هذه الأجزاء ثم نفخ في الخليط فانبعثت شرارة من نَفَسِه وولد كائن جديد هو نيدو، الإنسان.

تَسَلَّم نيدو، الإنسان الأصلي – الذي هو تركيبٌ من كل عناصر الكـون، العلوية منهـا والدنيا، ووعاءٌ حقيقي للقوة الأسـمى، كما أنه ملتقى كل القوى الموجودة، الجيدة منها والسيئة – في الميراث جزءا من القوة الخالقة الربانية، والمتمثلة في هِبَة العقل والكلام.

شـرح جينو لنيـدو، مخاطَبه، القوانين التي شَـكَّلَت، انطلاقا منهـا، كلَّ عناصـر الكون. ثم عيَّنَه حارسـا ومدبـرا لكونه وكلفه بالسـهر علـى التجانـس الكوني. ولهذا السـبب يُعتَبـر ثقيلا أن تكون إنسانا(*).

بعد أن تعلم نيدو من خالقه، نَقَل لاحقا لنسله مجموعَ معارفه. كانت تلك هي بدايةَ السلسلة الكبرى للنقل الشفوي التّلقيني.

(*) كأنه يشـير هنا ضمنا إلى قوله تعالى «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّـمَاوَات وَالْأَرْض وَالْجِبَال فَأَبَـيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَـانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوما جَهُولا» الآية ٧٢ من سـورة الأحزاب (المترجم).

ولَـدَ نيـدو، الإنسـانُ الأصلـيُّ، كيـكالا(*)، أوَّلَ رجـل أرضـي، وستكون ناغارا هي زوجتَه.

ولد كيكالا هابانا - كويل: «كلٌّ يعمل لنفسه».

ولَدَت: كلٌّ يعمل لنفسه «مذراةَ الطريق».

رزقـت «مـذراة الطريق» طفلـين: يمثل أَحدُهمـا، وهو «الرجلُ العجـوز» (غوركـو - مـاودو)، طريـقَ الخير؛ وتمثـل الأخرى وهي «العجوزُ الضئيلة الشيباء» (ديويل - نايبويل)، طريقَ الشر. وقد انحدر منهما سلالتان بنزوعات مختلفة:

ولَدَ «الرجلُ العجوز» نيدو - ماودو، «الرجلَ الجدير بالاحترام»، الذي ولد بدوره أربعة أطفال: «السماع الأعظم» و«النظر الأعظم» و«الكلام الأعظم» و«التدبير الأعظم».

أما أخته «المرأة الضئيلة الشيباء»، فقد ولدت، هي أيضا، أربعة أطفال: «البؤس» و«المصير السيىء» و«البغضاء» و«المكروه».

* * *

كما نلاحـظ، فإنه انطلاقا من «مذراة الطريق»، التي أعقبت، هي نفسها، «كلٌّ يعمل لنفسه»، تحددت سبل الخير والشر.

أصبـح «الرجل العجوز» تجسـيدا للخيـر. وأصبحت «العجوز الضئيلة الشيباء» تجسيدا للشر.

ونجدو ديوال هي تجسـيد أسطوري فولاني لديويل - نايويل، «العجوز الضئيلة الشـيباء»، والتي يسميها بامبارا موسوكوروني كوندجي١.

(*) كيـكالا: هو مـا يعادل تقريبا آدم؛ لكن، وفق الموروث الفولاني، قـد يكون تَعَاقَب العديدُ من «آدم». وكيكالا هو رمز القِدم، وبالتالي، رمز الشيخوخة والحكمة.



نجدو ديوال أم الكارثة

حكاية، حكاية، أريد أن أحكي حكاية.
دعوني أستلقِ على ظهري وأسترِحْ، (*)
أغصْ في الكلام وأسبح فيه بضربات قوية، (**)
أسبح فيه وقدماي تضربان الماء محدثة
صوت (بونتو بونتا). (***)
ما سأقوله يفوق الحلم روعة!
غير أن كلامي ليس هذيانا.
اللسان سيفجِّر الكلام!
ليست الخديعة ما سيحرك لساني.
رنين لساني سيكون أوضح من رنين الجرس الملكي.
لساني سيصعد الطريق أحسن مما يصعده أي دليل حاذق.
سيثير كلامي اهتمام كلِّ ذكي موهوب
واهتمامَ كلِّ الذين يتأملون ويفكرون.
هذه الحكاية مذَكَّرة (****)
مِنْ سماعِها سيصاب البعضُ، أحيانا، بالحمّى.

* * *

(*) وضعية استرخاء تقليدية... يتم الاستلقاء على الظهر، وتثنى ساق نحو الجسد، مع الاحتفاظ بأخمص القدم على الأرض؛ وتثنى الساق الأخرى أفقيا، الركبة نحو الخارج، وتوضع القدم على الخصر المقابل، مما يشكل رسما شبيها بالمثلث.

(**) الحديث من دون عائق ومن دون تعثر.

(***) محاكاة صوتية: ضرب الماء بالقدمين، بالتتابع، بشكل موقع.

(****) نعت «المذكر» يشير إلى القوة والقيمة. ففي هذه الحكاية سنعثر على كثير من الحركة والمغامرات والشجاعة والنبل. النعوت المؤنثة، من جهتها، تستثير الحب والحنان والرأفة والشفقة.

كان جدنا بويتورينغ (*) أولَ من حكى هذه الحكاية، بفخر، لولده البكر هيليري؛ حكاها له خلال سبعة أسابيع. وها هي ذي الطريقة التي باشر بها حكايته.

أمسك بويتورينغ بعصاه التي يستعملها في الرعي، والتي قدَّها من خشب الشجرة المقدسة نيلبي٢. هي لم تكن بالتأكيد عصا عادية.

ثمة ثلاثة أنواع من شجر النيلبي: شجرة النيلبي التي تنبت في الأرض، وشجرة النيلبي التي تنبت في الماء، وشجرة «نيلبي اللامكان» التي لا تنبت لا في الأرض ولا في الماء. شجرة النيلبي الأخيرة هذه، ليست في حاجة، كي تترعرع، لا إلى ماء ولا إلى تربة عضوية خصبة. وسواء أكان موسم الأمطار مدرارا أم شحيحا، فإنها تنمو. ومن يحمل بيده عصا مصنوعة من خشبها السحري، يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل من دون أي خطأ. ففي الغصون الخضراء لشجرة نيلبي اللامكان، يسري نسغ من نار. ومن أحد هذه الغصون كان «جينو» قد قطع أول عصا للرعي وسلمها لكيكالا، الرجل الأول. هذه العصا نفسها هي التي نُقلت أبا عن جد إلى أن وصلت إلى بويتورينغ.

أمسك إذن بويتورينغ بهذه العصا المعجزة، المأخوذة هي أيضا من شجرة لا تقل إعجازا، كي يخط على الأرض صورة نجم ذي سبعة أطراف٣

(*) يعتبر بويتورينغ أحد المشهورين من أجداد الفولانيين. وقد عُمِّم من طرف الموروث الفولاني لجيري، على فيرلو السنغالية (جهة لينجيري). ويقدم في الغالب على أنه ابن كيكالا، الرجل الأول. وقد نقلت إليَّ الحكايات التي تتعلق به، خصوصا بواسطة حامِلَيّ التراث الكبيرين أردو ديمبو ومولو غاولو. انظر الهامش ٧٨.

بعــد ذلك أتى بجمجمــة آدمية؛ نقلت إليــه، بدورها، أبا عن جــد، ووضعهــا ضمن خانة - مركــز النجم. وعندمــا أخذ مكانه، مع ابنه، ضمن هذه الخانة، عزّم على الجمجمة فشرعت تتكلم.

استمع بويتورينغ وابنه، خلال ستة أسابيع، لكلام الجمجمة، وهما يأخذان مكانهما، كل أسبوع، في خانة مختلفة.

هــذا القــول هو مــا تم حفظه والاحتفــاظ به فــي الذاكرات، فصنــع منــه بويتوريـنــغ حكايــة حفظهــا هيليري وأنشــدها، كي ينقلها إلى نسله من بعده.

هــذه الحكاية القادمــة من عمق التاريخ! هي التي ســأحكيها بدوري من أجلكم.

آه! أنصتــوا إلــي! ســأحكي لكــم الحكايــة التــي كان يحكيهــا بويتورينغ وهيليري.

ســأحكيها لكم، ليس عن طريق الـ «ميرجي»، بإيقاعه المتواتر، بل بواسطة الـ «الفولفولد ماوند»؛ طريقة كلام الفولانيين العظيمة(*).

اعذروني إن أخطأت؛

إن نسيت أو تجاوزت؛

أو إن سها لساني.

كلُّ حلاَّل غَزْلٍ

يحصل لخيطه أن يتشابك.

عندما تتداخل خيوطه

يقطعها ويعقدها من جديد.

اعذروني إن تعب لساني أو ارتخى.

(*) ميجي: شــعر ذو إيقاع ســريع. فولفولد ماوند: نثر (انظر حول هــذه النقطة مقدمة أمادو همباطي با).

في بلد هيلي ويويو
الجنة المفقودة

تدور الحكاية في (فالو) (*)، بالبلد الأسطوري هيلي ويويو(**)، حيث كان يُجهَل ما جرى خلال ليلة لا عشاء فيها. في هذا البد، كان كل شيء متوافرا: ثروة وقطيع وزروع؛ كل شيء كان يوجد فيها بقدر يفيض عن الحاجة.

لا هَمَّ كان يوجد بهذا البلد. كان الموت به نادرا، والتوالد كثيرا، والمرض غيرَ معروف. وكان الجميع يتمتع بصحّة جيدة. حتى العَجَزة ذوو الرؤوس الشيباء كانوا يحتفظون بحيويتهم؛ لم يكونوا يعرفون الحمّى أو السعال أو العجز.

كلّ ما كانت المزارع تحتويه، كان بدوره معافى من أي مرض. لم يكن ثمة لا إسهال حاد ولا أمراض رئوية ولا ذباب مؤذ. ولم يكن الجراد يجتاح الحقول.

في هذا البلد المبارك الذي تندر فيه حالات الوفاة ويكثر «العارفون» (***)، لم يكن ثمة أثر للفقر. كان من لا يملك سوى قطيعين يثير الشفقة وينعت بالبؤس. وبعد الحصاد، كان الجراد يأتي إلى الحقول فقط كي يلتقط الحب المتساقط.

(*) فالو: منطقة معروفة بالفيضانات. فالو ودجيري هما أيضا اسمان لمنطقتين بالسنغال.

(**) احتفظ الفولانيون بذكرى مكان أصلي؛ وهو عبارة عن جنة أرضية حقيقية، عاشوا فيها سعداء. وقد يكونون طردوا منها بفعل جائحة ضربهم بها جينو عقابا لهم على ما اقترفوه من خطايا. كانت هيلي ويويو مدينتين رئيسيتين فيها. كانت يويو هي العاصمة الكبرى. ويويو هي محاكاة صوتية. هيلي تعني حرفيا (كسر).

(***) العارفون (غاندو، من أندال «المعرفة»): وهم علماء، بالمعنى الشامل للكلمة، في المعرفة النظرية كما في التطبيق، وفي كل الميادين. تشمل معرفة العارف المظهر الخارجي كما تشمل المعنى الخفي للأشياء.

هـذا هـو البلـد الـذي كان الفولانيـون يعيشـون فيـه أغنياءَ سعداءَ!

كانـت تسـطَفُّ علـى الأفق قمـمُ جبـال تتسلسـل انحناءاتها وتتناغـم. وكانـت بالأوديـة بحيـرات عظيمـة مملوءة بالسـمك ومغطـاة بنبتـة النينوفـار ذات الزهـور المتفتحـة والحبـات التي تعـادل فـي كثرتهـا حبـات الـذرة، وكان يكثـر العُنّاب كثيـرُ الماء، اللذيذ والمكتنز.٦

وفي أعالي الأدغال، كانت الظباء الرشـيقة والجاموس المهيب تعيش في سـلام، لأن الأدغال كانت خالية من الكواسـر، ولم يكن بالبلدات صيادون.

كان جينو يحب هذا البلد، إلى درجة أن القمر إن غادر مسكنه، مساء، قائلا «لن أعود»، تبزغ النجومُ اللامعة، حافرة السماء على شاكلة «غربال» كي تنير الفضاء ومساكن الناس.

كانت أشجار القابوق القوية، ببلد فالو، تجاور أشجار الباوباب ممتدةِ الغصون، كأنهما تريدان أن تشاهدا معا أشجار الكايلسدرا العظيمة٧ وهي تفرد فروعها الكبيرة التي يُسـتَخرج منها خشبٌ ثمين.

كانـت الحقـول الخصبة، بهـا، تعادل في شسـاعتها شسـاعة الفضاء الكوني.

ولم يكن ممكنا عدُّ الوديان ومجاري المياه التي تسقي الأرض بتموجاتهـا. كانت الهضبات المكسـوة بالغابة، معمورة بما لا يعد ولا يحصـى مـن الطيـور التي تأتـي لتُغطس سـيقانها في المياه كما لو لتغتسل إلى حدود الرّكب، فتمشي مع الماء متراقصة إلى

حدود انعراجات الوديان، كأنها ترافق الأمواج إلى بيت زوجيتها.

لا يوجد في الطبيعة شيئان متماثلان (*)؛ فالحواجز الصخرية تبدو أحيانا كأنها تسعى إلى الحيلولة دون جريان الماء إلى غايته النهائية؛ أي البحيرة المالحة. لكن الماء، تلك المادة الأم التي بلا روح٨، هو تجسيد للصبر وللقوة. عندما يعوق حاجز مجراه، يأخذ، في البداية، في الارتفاع على مهل إلى أن يغطي الحاجز. بعد ذلك يتجاوزه، محدثا سحابة من قطرات، إلى درجة أنه يحدث اليقين بمجيء «غاتامار»، عاصفة العام الأولى. يتبخر جزء من سحابة الماء تلك، فيصير نثارا، لكنه نثار لا يخنق الخياشيم ولا يحول البتّة دون التنفس؛ وما تبقى يتجمع في الأسفل مشكلا، من جديد، شريطا جديدا أبيض يواصل طريقه نحو هدفه، قارضا الجرف وشاقا مجراه كي يضاعف مداه٩.

وعلى حواف مجاري المياه، يُلطِّف النثارُ الجوَّ إلى درجة أن شخصا إن اقترب منه يشعر بجسده ينتعش ويعرب، في لحظة، عن رغبة لا تقاوم في النوم الفوري.

باختصار؛ كان البلد من الروعة بحيث ينسى كل غريب قَدِمَ إليه، أن يعود إلى بلده.

أفاض الشعراء المُغنُّون لهيلي ويويو في التغني بهذا البلد الرائع. كانوا ينادونه البلد السَّبْعي١٠ (نسبة إلى الرقم سبعة)، لأن سبعة أودية كانت تخترقه بين سبعة جبال عالية، كما كان به سبعة حقول رملية شاسعة تبدو كثبانها الجميلة كأنها تجري في شكل تموجات متجمدة.

(*) حرفيا: «الله لا يخلق شيئين» (ويُفهم متماثلين).

وفضلا عن شجر اللوز، كانت الأشجار المثمرة التي تنبت في الأدغال تمثل سبعة أنواع مهيمنة: السنط ذو الفاكهة المأكولة والنخيل المثمر الذي كانت تثمر عناقيده المتزاحمة فاكهة أحلى من أجود عسل؛ وشجر العُنَّاب الذي كانت حبة واحدة من فاكهته تترع أضخم الأفواه؛ وشجرة التمر الهندي التي تداوي ثمرة واحدة منها أي مرض!! ؛ وشجرة الرونيي التي تشبع حبة فاكهة واحدة منها فيلا. أما شجر التين فكل محاولة لوصف فاكهته تعد من قبيل سَلْبِه قيمتَه. وأخيرا، آه، نعم، نعم! ببلد هيلي ويويو، كل شجرة كريتة كانت تنتج من السمن ما يكفي لتغذية حي من القرية بأكمله لمدة سنة! كانت هذه الشجرات السبع المباركات تنتج ما يفيض عن الحاجة من الفاكهة التي يمكن جنيها طيلة السنة. كان السمن بهذا البلد كثيرا؛ ولم يكن يستقى فقط من شجرة كريتة، بل أيضا من شجرة «مبيغو»، دون الحديث عن السمن ذي القشدة المحصل من حليب البقر الثر. وكان الفول السوداني الذي ينبت في الحقول يوفر، مع سردين الأودية، الزيت الضروري.

أما العسل ذو الطعم اللذيذ، فكان من الكثرة بحيث لم يكن يباع.

في بساتين العائلة أو بساتين الأسر الصغيرة (*)، كانت تقطف حبات اليقطين والذرة وحبات دباء ضخمة وبطيخ لذيذ وفاصوليا ذات حبات كبيرة ولذيذة.

كانت الدباء واليقطين تصطف متناغمة إلى درجة أنها كانت تغطي، خلال كل الفصول، سقوف القش، بحيث تمنع الدخان

(*) يوجد، غالبا، في القرى التقليدية حقل كبير جماعي أو عائلي يشتغل فيه الجميع. كما يمكن لكل فرد أن تكون له حديقته الصغيرة أو بستان فاكهة خاص.

من عبورها للانتشار في الهواء (*).

في كل بلدة، وفي كل قرية صغيرة، كانت تتردد أصداء الدجاج - الذكور١٢. وكان نباح الكلاب بنفس عذوبة ألحان النفير، ولم يكن نهيق الحمير يؤذي السمع. كانت الثيران١٣ تخور كما لو كانت تثير الانتباه إلى جَمالها وسِمَنها. أما ثغاء التيوس التي تلتمس إناثها، فمن الممكن تشبيهها بغناء جماعي لأصوات آدمية.

أجل، كان ذلك هو البلد الذي يستجيب فيه - قصد إيقاظ السكان - نهيق الحمير إلى النداء الرائق للديكة، بينما تصدي صيحات الطيور الليلية العائدة إلى أعشاشها.

لم يكن ثمة من وجود، ببلدّ هيلي ويويو، للخفافيش التي يعميها ضوء النهار الوليد، وهي متوجهة مذهولة للتعلق بالأشواك.

وكان جراد هيلي ويويو يقضم سيقان الزرع وليس سنابله، لم تكن أمور الإنسان تصاب بسوء.

في كلمة، لا شيء في هذا البلد كان يمكن أن يحدث سوء. حتى سم العقرب وسم الأفعى لم يكونا يقتلان أبدا، بل لم يكونا يحدثان أدنى تورم.

كان لون سماء بلاد هيلي ويويو شبيها بأول ريق صباغة النيلة؛ الزرقة الأكثر رقة.

النسيم بها رائق

الفرس رائعة

والفتاة بارعة الجمال.

(*) عندما يكون السقف مصنوعا من القش، فإن الدخان يخرج عبره. وعندما يكون مصنوعا من أوراق، فإن الدخان يخرج من الباب. هذه الصورة تشير إلى كثافة وغنى النباتات التي تحمي، فضلا عن ذلك، السقف خلال فصل الأمطار.

وكان المسافر يكتشف، مع مواصلته لتجواله، المساكن وقد أضحى كل مسكن أجمل من سابقه.

كان جينو يُهطل على البلد مطرا مدرارا، لكن هذا المطر لم يكن يفسد لا الحرث ولا الكلأ الذي كان ينبت بغزارة.

لم تكن الزوابع تؤدي إلى صواعق. لم يسبق لصاعقة أن أحرقت شجرة، أو منزلا. كان البلد مبرأ من أي سوء:

المجد لك، المجد لك!

المجد لك أيها الخالد!

كان سخاؤك يعُمُّ هذه الأرض التي لم تكن قليلة القيمة!

يقولون إن الملك سليمان١٤ نفسه - والذي تعتبر زوجته بلقيس، ملكةُ سبأ، بمنزلة خالة للفولانيين - هو من وضع تصاميم هيلي ويويو. وقد أنجز العفاريت الذين سخرهم لذلك روائع كثيرة، فعملهم لم يكن، بالتأكيد، أمرا هينا.

أجل، في هذا البلد الشبيه بالجنة، كان يسكن نسل هيليري ابن بويتورينغ، جدَّيْ الفولانيين ومالكيْ قطعان عظيمة١٥.

المعلمون الكبار١٦ الذين طالما لاحظوا ودرسوا وفهموا، لم يتّفِقوا على المكان الذي وُجد به بلد هيلي ويويو. فبعضهم جعل موقعه شرق البحر الأحمر، في بلاد خالتنا بلقيس، ملكة سبأ. ويؤكد آخرون أنه قد وُجد غرب البحر الأحمر بين بلاد الحبشة (إثيوبيا) وبلد الفرعون ملك مصر (*).

ليس قصد هذه الحكاية أن تتثبت من صدق أو خطأ هذا الكلام. وفي جميع الأحوال فإن آلافا وآلافا من الناس سيقولون

(*) هذه الفقرة مع الفقرات التي تليها (إلى نهاية الفصل) تدخل في النص التقليدي للحكاية.

إن الكذب هو الحقيقة، والكذب سيبقى كذبا، وآلاف آلاف آخرون سيقولون إن الحقيقة هي الكذب، والحقيقة ستبقى حقيقة!

تُحْكَي هذه الحكايةُ قصْدَ تعليم الفولانيين حتى لا ينسوا الأحداث الجسام القديمة التي كانت سبب اندثار أجدادهم وهجرتهم وتلاشيهم وتفرقهم في مختلف الأصقاع؛ وحتى يعرفوا بلدهم، حتى إن كانوا لا يستطيعون تحديد موقعه في الكون؛ وحتى يعرفوا لماذا تم طردهم ولماذا هم تائهون في كل مكان، وكيف أصبحوا رحلا أبديين وأناسا غير مرغوب فيهم، يقيمون بضواحي القرى، لكنهم، على الرغم من ذلك، لا يترددون في أن يهاجموا برماحهم من يحتقرهم وفي استعباد من يهاجمهم وفي إصابة الأمراء الذين يحقرونهم بالدهشة (*).

عندما يتم استعباد أحد الفولانيين، يَقْبَلُ ويعرف كيف يتحلى بالصبر، إلى أن يحين اليوم الذي يكون متأكدا فيه من قدرته على الانتقام. لا يقبل الفولانيون أن يُحتقروا. وإن عوملوا معاملة سيئة، بدأوا بإحراق كوخهم الشخصي، كي يُظهروا بجلاء أنه لا شيء لديهم يخسرونه، ثم يعمدون إلى إحراق أكواخ عدوهم. يجرحون ويقتلون ثم يغادرون البلد صحبة قطيعهم، لأنه لا شيء يشدهم إلى مكان بعينه (**).

هم أكثر تجوالا من الإعْصار، وهم ينتقمون ممن يعتدي عليهم من دون أن يحدثوا جلبة. هم يحرصون على شرفهم وعلى حسن معاملتهم أكثر من حرصهم على حياتهم. من

(*) بأن يصبحوا المنتصرين عليهم.

(**) ثروتهم الوحيدة هي قطيعهم. وهم يتنقلون معه. ولا يتم استبقاؤهم في مكان إلا لتكريمهم.

يقتــرب من فولانــي، فليقترب منه من أجل فعــل خير، وإلا فإنه سيؤدي الثمن غاليا!

ليــس للفولانيــين أدوات حفــر؛ ذلك أنهــم بحوافــر جيادهم يحفرون للبذور مواقع بالأرض.

عصا الفولانيين أقدر على القتل من بندقية.

ومــا يثير غضبهم هو أن يُمَس قطيعهم الذي هو كل ثروتهم، أو أن يتم المس بمظهر نسائهم (*) الذي هو شرفهم. إنهم يجعلون من يقترب منهن يَعَضُّ على التراب.

مولد نجدو ديوال

فــي زمن بعيــد، لا يمكن تحديــده بالضبــط، كان الفولانيون يحيون سعداء ببلد هيلي ويويو. لكنهم، مع مرور الزمن، امتلأوا كثيرا بهذه الســعادة، فأصبحوا منها متباهين بذواتهم فأضاعوا أنفســهم. أصبحوا يتصرفون، جراء ذلك، بطريقة ســيئة للغاية. مــا عــاد بعــض منهــم يحتــرم شــيئا، إلــى درجــة أنهــم أصبحوا يمسحون قاذوراتهم بسنابل الزرع. ورافقت النساء ذُكْرَانَ الحيوان، وتخلت بعضهن عن الماء وشــرعن يغتسلن بالحليب (**). طفقن يســتعملن الحليب حتى في غســل ثيابهن واســتحمام أطفالهن وغســل خِرافِهِــن الداجنــة (***). ثــم، ألم تعمدن إلى اســتعمال

(*) لا يتعلــق الأمــر هنا بحلي أو بزينة لا قيمة لها، بل بكل ما يشــكل القيمة الأخلاقية للمرأة: فمظهرها هو خصالها.

(**) أن يتم الاغتســال بالحليــب معناه الخروج عن المعيار والإفــراط والتبجح، خصوصا عند الفولانيين الذين يعتبرون الحليب مادة مقدسة.

(***) الخــروف الداجن خروف عائلي، وهو نوع من الحيوانات التي تعتبر جالبة للحظ، تتنقل داخل البيت بحرية. هي تنتمي إلى العائلة، فهي إذن محبوبة ومدللة.

دقيق الأرز المعجون في صبغ جدران منازلهن؟ وكانت الرغبة تستبد بهن، أحيانا، فيخرجن إلى الطرقات متبرّجات وقد أبدين فتنتهنّ.

قلدهن الرّجال أيضا ففعلوا مثلهنّ. ثمّ شرعوا يقابلوهن في الدغل فيتصرفون مثل الدواب (*). وشيئا فشيئا شرعت النساء يرفضن الزواج قاصدات، من ذلك، تحصيل مجد؛ فأضحى حالة عادية أن يبقين عازبات (**).

هكذا أصبح يعيش عدد كبير من الفولانيين، من دون أن يأتي ناه ينهاهم عما يقترفونه من منكر.

وعندما دامت هذه الحال مدة طويلة، غضب جينو. ولما قرر أن يصيب الفولانيين بسوء، شرع في ابتداع الكائن الذي سيكون أداة الشر.

أمسك جينو بقط أسود؛
قط، يسْوَدُّ من سواده الفحمُ
والليلُ الأشدُّ حلكة!
ثم أمسك بتيسٍ منتن منتوف الزغب¹⁷
وبطيرٍ غامق السواد؛
أحرق كلَّ ذلك بشعاع أخضر؛
وضع الرماد في قرية صفراء؛

(*) يعتبر الجنس، في أفريقيا التقليدية، أفريقيا السافانا، فعلا مقدسا، لأن «بطن المرأة هو معمل جينو». وفي مجتمع يركز على التحكم في النفس، يصنِّف الفعل الجنسي الممارَس خارج إطاره ومن دون احترام للأعراف، صاحبَه في خانة الحيوانات.

(**) إلى الآن، تعتبر حالة العزوبية أمرا غير معروف في أفريقيا، كما يتم الحكم عليها حكما سلبيا للغاية؛ فهم كانوا يقدرون أن العازب ليس رجلا واعيا بمسؤولياته، وإذن فلا يمكن الاعتماد عليه.

عجنه بماء لا لون له؛
وضع العجين في درع سلحفاة؛
سلحفاةٍ عملاقة من سلاحف المياه العميقة ١٨
فحوّل كل شيء، صانعا منه بيضة١٩
سلّم البيضة لتمساح ذي جلد صلب، ليحضنها؛
تمساحٍ عجوز، سنواتُ عمره بلا عدٍّ ٢٠
حضنَ التمساح
وفرخ جينو البيضة.
خرج منها كائن؛
لهذا الكائن، ذي الشكل الآدمي غير الواضح،
سبع آذان وثلاث عيون؛٢١
كان فتاة.
كل ما كان مسموما شريرا،
كل ما يعيش في الغابة
أو في أعالي الأدغال،
ويحيا في الوديان
ويستقر في الجداول
أو يختفي في باطن الأرض
ويتسلق الهضاب
أو يلتجئ إلى المغارات
والشر الذي يسكن النار
والذي يختفي في النباتات؛
بكلمة، كل ما نلتمس من جينو

أن يجنبنا إياه،
كل هذه الكائنات أرضعت، بالتناوب،
الفتاة التي وُلدت لتوها.
كبرت الفتاة وأضحت طفلة قصيرة بدينة،
يمجها النظر، بآذانها المشوهة.
لم يكن كائنٌ على الأرض بهذه الآذان.
سميت الفتاة المشوهة نجدو ديوال إينا بازي، الشرسة السّبْعيّة الكبرى، أم الكارثة (*).
تعلمت الأصوات السبعة للكلمات السحرية.
وتعلمت كل التعزيمات الخاصة بالتحكم في أرواح الشر المنتمية للعناصر الأربعة ولنقاط الفضاء الست.
قادرة على اتخاذ كل الأشكال، والتحول من شكل إلى شكل كما تشاء، قاذفة بالأذهان في أتون الحيرة.
وهكذا أدركت نجدو ديوال - محاطة بالعتمة وبكل الأرواح المؤذية وعفاريت الشر - سن الرشد.
رآها رجل يسمى داندي (فلفل) ابن ستي «ملح البارود» (**)، فطلبها للزواج. قُبِل طلبه. انتقل الزوجان، بعد حفل الزواج، للسكن بتولال - بالوال، الغابة السوداء الحزينة.

(*) نجدو مشتقة من جِدِّي التي تعني سبعة. فهي إذن «السبعية». ديوال مكونة من ديو (امرأة)، ومن آخر الكلمة «ال» الذي قد يكون دالا على التحقير، كما قد يكون دالا على الإعجاب، وفق السياق. ويمكن لـ ديوال أن تعني «خارق للعادة»؛ والكلمة تعني، هنا، «المرأة ضخمة الجثة»، أو «الشريرة العظمى». أما «إنا بازي» فتعني حرفيا: «أم الكارثة».
(**) يسبب الفلفل الحرق، بينما يدخل ملح البارود في مكونات البارود المتفجر، أي المدمر، وفي مكونات مختلف الأعمال الشريرة. والقصد هو ذكر أي المكونات الشريرة، من جهة الأب كما من جهة الأم، اجتمعت لتولد عنها سبع فتيات لـ نجدو ديوال.

ولـدت نجـدو ديوال مـن داندي سـبع بنات، كل واحـدة منهن أجمل من أجمل جنّية.

ذات يوم، قابل داندي طوكي (السم).

سـأله طوكي: إلى أين، يا داندي؟ وبدون سـبب واضح، انقذف عليه. شرع طوكي ينتفخ بسمه فارتفع مثل جرف عالٍ. بعد ذلك أخـذ بتلابيـب داندي وضغـط على عنقه إلى أن أضحى جسـده باردا تماما.

كانـت ثمة، قريبا من موقـع وقوع الواقعة، ضفادع قاعية على مؤخراتهـا تبـدو بطونهـا مثل بطون نسـاء حوامل، وهـي تتابع المشـهد. انقذفت الضفـادع بدورها على طوكـي وقتلته فابتلعته دون أن تترك منه شيئا.

خرجت بعض الأفاعي من حيث لا يدري أحد، وسـارعت نحو الضفادع فالتقمتها دفعة واحدة؛ ثم أسرعت نحو جحورها.

آنذاك، هاجمت عقارب سـوداء، كبيرة مثل سلاحف، الأفاعي، فتمكنـت منهـا وابتلعتهـا كمـا كانت هـي، الأفاعي، قـد ابتلعت الضفادع (*).

من أين أتت هذه العقارب؟؟؟

صمـت !... سـأقول من أين أتـت حتى تنقل أفـواهُ الخبر إلى آذان.

هذه العقارب أسَنُّ من كيكالا نفسه،

جدِّ النوع البشري.

هي أقدم من الفيلة،

(*) يُظهِر تعاقب الحيوانات التي يبتلع بعضها بعضا، أن لكل شر شرا آخر أسوأ منه.

هي أقدم من أقدم العقبان،
أسن من شجر الباوياب.
هي أسن حتى من بعض الجبال٢٣
خلال ذلك اليوم القديم الذي سقطت خلاله أولى قطرات المطر على الأرض، كانت العقارب ثمة سلفا، وقد اغتسلت بها. بعد ذلك ولجت جحورا وكمنت منتظرة حصول ما سيحصل، فوجدَها ما حصَل ثمة (*).

بداية الشّرور

في ذلك الزمان، كانت نجدو ديوال - الأداة الشريرة لتنفيذ غضب جينو - قد استقرت في كوخ مصنوع من أغصان شجرة تيايكي؛ تلك الشجرة السحرية التي يصيبها المطر بالجفاف وتخضر من الحَرّ٢٤. كانت ثمة، بآذانها السبع وبعيونها الثلاث المفتوحة. عندما تعطس، كانت شرارات تنبجس من رئتيها، وعندما تحك أطرافها كان نحل يخرج من جسدها. كانت الشجرة تجف إن تنفست نجدو ديوال بالقرب منها، وإن صاحت على جبل، كان ينهار منكسرا فيغدو مثل دقيق من تراب. كانت تكمن في كوخها منجزة عملياتها السحرية التي تنشر آثارها المشؤومة على كل بلاد هيلي ويويو.

ذات يوم، عندما توجهت نساء فولانيّة إلى السوق كي يبعن لبنا، وجدن بها أمورا غريبة: قناني مترعة بروث الغنم، وجفنات

(*) ليس لهذا المشهد من غرض غير أن يقدم وفاة داندي، الذي كان له دور واحد هو أن يجعل نجدو ديوال تلد الفتيات السبع اللائي سيكون لهن دور أساسي في الحكاية.

ضِخَام بها براز آدمي وروث بقر وفضلات عظاية، كما وجدن يقطينات مملوءة بالبول وبالبصاق، وعثرن على عظام طويلة لسيقان آدمية، ملقاة على الأرض مثل سيقان نباتات.

صاحت النساء الفولانيات: يو! يو!. لقد دخل السوقَ كلُّ كريه منتن!

شرعن يسألن بعضهن بعضا: ما الذي حدث؟ لم يكنَّ يعرفن أن جينو قد قرر أن يُنزل بالفولانيين عقابه، وأن نجدو ديوال، أم الكوارث، كانت أداة تنفيذه لعقابه.

عندما نظرت النساء إلى أوانهنّ، رأين أن اللبن أضحى دما وأن الحليب (*) أصبح قيحا. فررن، وتوجه بعضهن إلى هيلي وبعضهن إلى يويو، ثم شرعن يحكين ما حصل لهن.

تناهت هذه الأحداث الخارقة للعادة إلى سمع ملك (**) هيلي. أخبر الملك٢٥، بدوره، رجاله بالأمر، فانتقل الجميع إلى يويو، العاصمة التي يقطنها الملك الأعظم.

استدعى هذا الأخير المعلمين الاثنين والعشرين الكبار في البلد، والرعاةَ الكبار الستة والخمسين٢٦. طلب منهم أن يضربوا الرمل وأن يفسروا ما توصلوا إليه حتى تتم معرفة دلالة هذه الظواهر الغريبة. بعد أن مارس المنجمون فنهم، خلصوا إلى أن شرّا مستطيرا سيصيب بلدهم هيلي ويويو، لأن الأقدمين كانوا يقولون:

(*) القصد هو الحليب المختثر الذي بلا قشدة.

(**) تعني لامدو حرفيا: «الذي يقود». وفوق الزعماء والملوك المحليين، كان ثمة ملك وحيد لبلد هيلي ويويو. ومباشرة بعده يأتي ملك هيلي.

الويل للبلد
عندما يتحول الحليب دما وقيحا؛
عندما يباع الغائط والبول
في السوق!
آنذاك، سيتحول الكون؛
ستُسحق هيلي ويويو وتطحن كالدقيق.
سينهار جرف النهر
مثلما تنهار جدران من لَبِنٍ
تحت وقع العاصفة.
ستنزل مياه الوديان إلى أدنى مستوياتها،
وستصبح الغابات صحارى.
لن تعود البلدات الكبيرة سوى أكوام من حطام.
لن نعود نرى، حيث كانت تجري المياه،
سوى أرصفة رملية.
المنازل الكبيرة ذات الطابق
ستصير مثل كثبان مكومة،
وستصير أخرى شبيهةَ مغارات،
وشبيهةَ أعشاش العظايات،
أو أعشاش الخفافيش والصراصير.
في الحقول، ستغدو اليقطينة المأكولة
مجرد قرعات شديدة المرارة،
وستعقم النساء والبقرات.
وإن أطفلْنَ، مغامرة،

لن يستطعن إرضاع صغارهن.

لا أحد سيشفق على ما يثير الشفقة!

لن يشتغل الإنسان إلا من أجل نفسه (*)

كلٌ سيمجد نفسه ويذم الآخرين.

سترى الناس يتحادثون ويتبادلون الابتسامات بنفاق ظاهر، ثم يستهزئ بعضهم ببعض ويتسابُّون بمجرد أن يغادر بعضهم بعضا.

سيصبح الناس مثل طيور الحذف (**)؛ عندما يغطس طير منها في الماء، تشرع بقية الطيور في الدعاء:

«آه يا جينو! أغرقه، امنعه من الخروج من الماء!» لكن بمجرد أن يعود الغاطس إلى الظهور، تخاطبه بمودة: «لقد دعونا من أجلك. هل اصطدت شيئا؟».

في ذلك الزمن الكارثي، الذي سيكون مسبوقا بجائحة، سترتفع في الشمال النجمة الشريرة٢٧ .

آنذاك سيقول الغريب الذي نزل عندك: «لن أغادر أبدا» سيربط صرّته وسيحتفظ بما يملك ويعتاش مما تملك. والأدهى من ذلك أنه، يوم يقرر أن ينصرف، سينتظر أن يتسلم منك هدية!

أجل. خلال تلك الحقبة الملعونة، سيطمع المعلمون الموجِّهون في متعلِّماتهم (***).

(*) لن يشتغل الإنسان إلا من أجل نفسه: تعتبر الأنانية، في التقليد الأفريقي، أقبح الأشياء... فالذي «لا يتقاسم» أو الذي يعيش منفصلا عن المجموعة، يعتبر على أنه غير عادي. ولْنشر إلى أنه، في أسطورة نشأة الكون، تأتي ثنائية الخير والشر، مباشرة بعد «كلٌ يعمل لنفسه».

(**) نوع من الإوز، يرمز إلى النفاق.

(***) رمز انهيار القيم. ذلك أن المعلمين الملقنين... يعتبرون نموذجا للعفة والأخلاق. إن وظيفتهم لن تكون مشروعة وفعالة إلا إذا احترموا الموانع الكبرى: عدم الكذب أبدا وعدم التعصب للرأي وعدم ارتكاب الفواحش... إلخ.

وسيطمع الأصدقاء الحميمون في نساء أصدقائهم.

لن يكون على ألسنة النساء، خلال تلك الحقبة، سوى: «أريد الطلاق، سأحصل على الطلاق، وليذهب الأطفال الناتجون عن الزواج إلى الجحيم!».

خلال ذلك الزمن، سيكذب الزعماء - يمكنهم أن يفعلوا ذلك من دون خوف ماداموا زعماء - جهرا (*)، ولن يستحييَ الناس الأكثر غنى من سرقة الناس الأشد فقرا.

خلال ذلك الزمن ستؤخذ الأرض على أنها سماء وستؤخذ السماء على أنها أرض (**).

هكذا كانت تقول التكهنات.

سأل زعماء هيلي ويويو المعلمين الكبار والمنجمين:

هل ثمة قربان يمكنه أن يطرد الشر أو أن يقلل من القلاقل التي ستنفجر مثل زوبعة! ما العمل كي نجهض هذا الإعصار الكارثي، وكي لا تصيب الصاعقة هيلي ويويو، وكي لا يتحطم البلد؟

توجه المنجّمون بأنظارهم نحو المعلمين الكبار (***)، لأن هؤلاء يتجاوزونهم علما.

أصعب شيء، بالنسبة إلى أحد الرعايا، كما يقال، هو أن ينظر إلى ملكه وجها لوجه وأن يخبره بالحقيقة من دون

(*) يقال بأن الزعيم، أو الملك، لا يحتاج إلى الانحدار إلى درجة الكذب، مادام في كل الأحوال، ومهما فعل، لا يكون معرضا لأي خطر. يُفهَم بأفريقيا أن يشتط في سلطته، لكن لا يُقبل منه أن يكذب. في التماعة النجم الأعظم، عندما يقدم باغوماويل الصولجان الملكي لدجيندو ديبري، الملك الشاب الذي علمه، يقول له (ص ٩١): «لا تدع أي كذبة تتسرب إلى كلامك؛ فنهاية كل كذّاب أن يصبح مفسدا. من له سلطةُ أن يَشْتَطَّ في حكمه، عليه ألا يكذب».

(**) رمز الخلط المطلق والاضطراب الكامل للقيم.

(***) يمثل المعلمون الكبار (Les silatiguis)، كما سبق أن قلنا، الدرجة العليا من التعليم الفولاني. وكل كاهن أو راع متعلم يحلم بأن يصبح معلما كبيرا (انظر كومين).

موارية. لكن المعلمين الكبار لهيلي ويويو لم يترددوا. كان كلامهم واضحا لا لبس فيه. قالوا:

لا شيء يستطيع منع وقوع ما تم التكهن به.

سيؤدي الثمنَ مَنْ عاقر الخطايا (*).

ستُحطّم هيلي ويويو وستتحّول لَبِنَات الجدران إلى مسحوق.

ستجف غصون الشجر على الجذوع.

ستجف الوديان ويتحوّل النبات إلى حشائش.

لن تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية إلاّ بعد وفاة نجدو ديوال، أم الكارثة. لكن، ويا للأسف، سيدوم الظلام الأعظم طويلا، لأنه من معدن صلب، صعب الذوبان٢٨.

بلد ويلي ويلي الملغز

عندما كان الملك وزعماء هيلي ويويو يبحثون، كما رأينا، عن وسيلة لاجتناب الكارثة التي كانت تهددهم، باشرت نجدو ديوال تشييد بلدة غير مرئية في محيط إقامتها. عندما أنهت بناء البلدة سمتها ويلي - ويلي، وتعني «الاثنان معا، الاثنان معا!».

لم يكن ينقص شيء من متع مادية أو روحية وهمية (**)، بويلي ويلي، إلا ما يكفي من النساء ليرافقن الرجال. كان كل ما يوجد من نساء بويلي ويلي، هن الفتيات السبع لنجدو ديوال، واللائي ولدتهن من زوجها داندي. لم يكنّ فقط جميلات مثل

(*) مما يعني ضمنا أن الذين لم يرتكبوا خطايا سينجون وسيُجنَّبون الكوارث.

(**) كل ما يوجد بهيلي ويويو ليس إلا وهما وسرابا؛ فالجمال ليس له من دور سوى أن يقنّع ما ليس، في جوهره، سوى قبح خالص.

الوهم الروحي أو السراب الروحي... هو كل ما يؤدي بالمريد إلى التوقف في منتصف الطريق؛ فهو عندما يصاب بالاندهاش أمام ظاهرة روحية أو أمام ما يتصوره هو نفسه، يفقد الرؤية الواضحة للهدف الحقيقي الذي يسعى إليه.

جنّيات، بل عملت أمهن، أيضا، عن طريق السحر، على جعلهن يحافظن دائما على عذريّتهن. قد تتزوّج رجلا، لكنها تصبح وقد عادت عذراء من جديد.

في تلك الحقبة، شرعت نساء هيلي ويويو يمتن تباعا. لم يبق منهن إلا النساء الفاضلات، زوجات المعلمين الكبار وبعض الزعماء (*). أضحى الرجال، بمجرد سماعهم بوجود امرأة غير متزوجة، في مكان ما، يسارعون في قوافل كاملة كي يجربوا حظهم، فيتشابكون ويقتل بعضهم بعضا في الطريق.

والحال أن مسافرين غريبي الأطوار، كانوا يجوبون بلاد هيلي ويويو، وما هم في الأصل إلا عملاء لنجدو ديوال، عملوا على إشاعة خبر مذهل: في بلدة بعيدة، تعيش سبع فتيات عذراوات لا مثيل لجمالهن، تعتزم أمهن، ملكة البلدة، تزويجهن. لكن الملكة قررت، ألا تزوج بناتها إلا من الرجال الذين تختارهم الفتيات أنفسهن. وهي تستدعي الخُطّاب كي يأتوا ليجربوا حظهم.

بمجرد ذيوع الخبر، شرع المترشحون يشدون الرحال من كل الأقطار المجاورة. لم يكن يسمح لهم بولوج البلدة إلا في مجموعة من سبعة أشخاص.

وعندما كانوا يدخلون البلدة، كانوا يُقَدَّمون إلى نجدو ديوال، وكانت هذه، وقد عمدت إلى اتخاذ زينة باهرة جميلة، تخاطبهم بهذه الكلمات:

آمل أن يكون لكم الوقت الكافي كي تشاهدوا بناتي. ابحثوا لكم عن مستقر، الآن، وعودوا غدا مساء. فكما أن كل فارس

(*) كما قلنا من قبل، فإن النساء والرجال الذين لم يرتكبوا خطايا ولم يستسلموا لتفسخ المرحلة، لم تشملهم الكوارث.

يسعى إلى معرفة مميزات مطيته الجميلة التي يستعد لركوبها، ويتساءل عما إذا كانت من نسل «جبلينغو»، فرس الشيطان، فإن كل رجل أيضا، يريد أن يعرف مميزات المرأة التي يسعى إلى الاقتران بها.

كان المترشحون السذج، للأسف، يجهلون أن نجدو ديوال قد اعتادت على استعادة نشاطها بشرب الدم البشري، وأنها تفضل، أكثر من أي دم آخر، دم الفتيان مُرْد الذقون٢٩ ! كان لكل واحدة من بناتها، قريبا منها في مخبأ، مَعِيٌّ طويل مدبوغ بشكل جيد، ينتهي بمنفذ مشكل من قرن ظبية قميئة. ومعلوم أن رقية مؤذية تثوي في رأس الظبية القميئة٣٠ التي يستعمل قرنها، في عدد لا يحصى من الأعمال السحرية. أما الطرف الآخر من الأنبوب فكان يوجد في غرفة نجدو.

عاد العشاق السبعة مساء اليوم التالي، ففتحت الملكة لكل واحد منهم باب مسكنِ واحدةٍ من بناتها.

مكث كل خطيب يجالس خطيبته إلى أن حلّ منتصف الليل. آنذاك شرع كل واحد منهم يخفض صوته ويُخفت من نور المصباح، ويلتحق بخطيبته في سريرها. وعندما يريد الاقتراب منها، تتركه العذراء يفعل إلى أن يخال أنها متلهفة إليه، لكن بمجرد أن يصير شديد القرب منها، تتقهقر:

«على مهلك يا أخي. لا تكن لجوجا. التسرع عادة ما يحطم أكثر مما يحل الأمور. أنا أريد، قبل كل شيء، أن أكون متيقنة من أنك تحبني حبا حقيقيا؛ أنك تحبني كما تحب نفسك. أريد أن أكون لك وحدك وتكون لي وحدي. عليك أن تقدم لي

دليـلا علــى حبــك؛ دليلا على أنك لــن تضِنَّ علي بأي شــيء هو ملك لك. عندما ســيحصل لدي هذا اليقين، ســأعلم أنني حتى إن طالبتك بروحك، ستسلمني إياها؛ آنذاك سأسلمك ما يشكل سعادتي وحياتي: عذريتي».

كان مثل هذا الكلام يلهب قلب العاشق، فيتصاعد دخان الحب ليلف سماء فطِنته. كان يثْمل من هذا الكلام حتى لا يعود يعرف موقعه من الكون؛ فيضعف ذهنه ويكفّ عن التفكير ويصبح عبد رغبتــه، محســوبا، مؤقتا، على صنف الحيوانــات؛ هكذا يتصرف المرء عندما يستولي عليه العطش إلى المرأة.

كان الخطيب يصيح، متلهفا:

اطلبــي منــي، أختــاه، مــا تشــائين أســلمك إيــاه فــي الوقــت واللحظة؛ اصنعي بي ما تشائين! أنا أحبك وأتحرق شوقا إليك، فلا تتمنّعي!»

عندما تَعْمَى بصيرةُ المتبصّر، تجيب الماكرة:

«آه، يــا أخــي! أمي مريضــة. والحال أن الــدم المذكّر وحده قادر علــى إشــفائها. اقبل أن أجرحــك وأن آخذ بعــض دمك من أجل أمي المســكينة. بمجرد أن تشــربه ســتنام بعمق. آنذاك سأســتغل فرصــة نومهــا فأســلمك نفســي. ومهمــا طــال الليل ســتجدني صابرة طيعة. ستجدني عذراء ومستجيبة لك.

ســتعجب مــن رشــاقة ســاقي، وســترى كيــف أضحــى كعبــايَ ملســاوين ومقدوديــن، وكيــف أصبــح ذراعــاي منحوتــين، وكيف أرَقَّ جينو أناملي. ســتتأمل أظافري ذات الشــكل الطويل واللون الأبيض الناصع.

نعم يا أخي ! أنا عذراء لم أُمسس بعد. وبالنسبة إلى من لا يفهم هذه اللغة أقول: أنا منزل لم يسكنه أحد بعد.

عندما كانت كل بنات نجدو ديوال يقلن مثل هذا الكلام، كان خُطّابهن، وقد انطلت عليهم الحيلة، يقولون بتأثر: اجرحيني. نعم اجرحيني لتروي أمك، لكن دعيني، أنا العطشان، أرتوي من حبّك!

آنذاك، وعلى الفور، كانت الفتيات تخزِّن عصبا وتضعن به قرن الظبية القميئة. أما نجدو ديوال، فكانت، وقد أُخبرت عبر إشارة معلومة، تمسك بالطرف الآخر للمعي الطويل الذي يمتد من سرير ابنتها إلى سريرها، وتشرع تمتص دم الرجل الشاب الشقي.

عندما كان الشاب يُفرغ من جزء مهم من دمه، كانت الفتاة تسمح له بالاقتراب منها، وهي متأكّدة أن عشيقها سيموت من الإنهاك غدا أو بعده بقليل، وأن أمها، بعد أن تستعيد نشاطها، سيمْكنها مواصلة عملها المرعب والشرير.

هكذا بدأ شباب هيلي ويويو يصلون سبعة سبعة، دون أن يمنعهم شيء، البتة، من الإسراع، بابتهاج، نحو هذه النهاية الرهيبة.

خلال كل ذلك، كانت نجدو، كل مرة ترتوي من الدم الطري، تنفث الهواء من صدرها الجهنمي، فتتيبَّس أعشاب البلد، بدءا من النباتات الصغيرة وانتهاء بالأشجار الأكثر قوة. جفت الوديان ومجاري المياه، ولم تُستثن حتى الآبار. تكلّست الأشجار في الغابات فماتت الحيوانات التي تقتات من النبات ونفقت

الطرائد جوعا، حيث كان يتم العثور عليها مُبَادة جراء أمراض غير معروفة.

أصابت البلدَ، تباعا، كلُّ الكوارث التي تنبأ بها العرافون. لم يمر يوم واحد أو أسبوع أو شهر أو سنة من دون أن تتم رؤية كارثة تتحقق: انهارت مدن عن آخرها وجفت وديان وتحطمت جبال. انعدمت المؤونة وما عادت النساء والأبقار، بأردافهن الواسعة، يُطفلن. وحدها بعض المناطق المأهولة بأناس شرفاء وطيبين استُثْنِيت، لكن الجميع كان يعاني. هكذا عاش سكان هيلي ويويو، طيلة سبعة أعوام، جائحةٍ مُمِضَّة، بالقدر نفسه الذي كانت به حياتهم، من زمان، رائعة ومبتهجة.

البحث العظيم الذي قام به با - وامندي؛ الرجل الخيِّر حلمٌ مُبَشِّر.

كان يعيش بقرية هايو (*)، الواقعة على سفح أحد جبال هيلي ويويو السبعة، والتي كان زعيمها هو حمادي مانا، رجلٌ طيب يدعى بابا وامندي «أب السعادة». كانوا ينادونه با - وامندي. كانت غالبية سكان منطقة هايو لا تقترف آثاما، لكن با - وامندي كان أكثرهم، بكل تأكيد، حكمة وفضلا.

لم يكن يُعدّ من بين مُتْرَفي هيلي ويويو، لكنه كان يُعتبر نموذجا للاستقامة. لم يسبق له أبدا أن خدع أحدا، كما لم يسبق له البتة أن استجدى أحدا. كانت أعدادٌ من الفقراء تأتي لتقترض منه (**)، لكنه لم يطالب قط باسترجاع دينه. وهو

(*) هو، في الآن نفسه، اسم قرية واسم بلد، كما أن هيلي ويويو هما اسما بلدتين، وفي الآن نفسه، اسما بلدين.

(**) لا يتعلق الأمر، بالضرورة، بالمال (أو بما يدخل في معناه)؛ فالاقتراض قد يكون من الدواب.

نفســه، علــى أي حــال، لم يكن يســتدين قط علــى الرغم من أن أســرته الصغيرة كانت مرارا، منذ مَقْدم الشرور العظمى، تقضي يومها من دون أكل وتنام من دون عشاء.

كانت زوجة با - وامندي تدعى ويلدو - هور«الرأس اللطيف - المحظوظ». وكانوا ينادونها ويلوري. كانت أشـد جَلَدا من زوجها، وكان بعضهـم يقول إنهـا تفوقه دماثةَ أخلاقٍ وكرما، كانت تجمع في ذاتها، بوصفها تقية مثل قديسـة، الخصال الأربع التي كانت المـرأة تعتبـر بفضلها امرأة ممتازة، فلا يأتيهـا الرجـل بضرة٣١ ، لم تكن تعرف الحسد، كما لم تكن تضايق زوجها.

ذات ليلـة، رأت ويلـوري حلما. رأت فيما يـراه النائم أنها تأكل وجبة طُبخ أرزُها في الشمس ومرقُها في القمر (*). وعندما أنهت طبقها رأت نفسها تلد جَذَعا أبيضَ كالحليب.

أذهلهـا هذا الحلـم وبلبلهـا فحدّثت أباها عنــه، وذهب هو لملاقاة الكاهن الأعظم أغا - نوتيورو٣٢ الذي كان يجيد، بشكل مذهل، تأويل الأحلام. حكى له حلم ابنته. اتكأ أغا - نوتيورو، بعد أن اسـتمع إليه، على مرفقه واضعا ذقنه في كفه اليمنى، فتهلـل وجهـه وطَفَـقَ يضحـك. ضحـك طويلا ثم قـال لأبي ويلوري:

سـتضع ويلوري سـبعة أطفـال ذكور وطفلة؛ لكـن لا أحد من الأطفال الذكور سـتكون له ذرية؛ وحدها البنت سيكون لها طفل

(*) اجتماع الشمس والقمر، القطبين المتكاملين (مؤنث ومذكر - ذهب وفضة - ليل ونهار «الليل مؤنث في الفرنسـية - مترجم»)، يدل هنا على فكرة الشمولية والتجانس. الأمر ليس اعتباطيا، مادام يتعلق بالعلامة التي تعلن الميلاد المقبل لباغوماويل، الطفل المبشَّـر به الذي سيرسله جينو كـي يقاوم نجـدو ديوال وينتصر عليها. وهذه الأخيرة، بوصفها أداة للشـر، ليسـت مكتملة في خلقتها وفاقدة للتوازن، مادامت مكونة فقط من عناصر ظلامية.

ذكر، وسيكون طفلا مباركا؛ سيتجسد هذا الكائن الملغز، أولا وقبل تكوينه، في نجم عظيم. سيبزغ هذا النجم كل مساء من جهة الشرق، عند مغيب الشمس غربا؛ وكل صباح سيغيب غربا عندما تكون الشمس تشرق شرقا (*). وبمجرد أن تصبح ابنتك حاملا، لن يعود النجم إلى البزوغ لا عند مشرق الشمس ولا عند مغيبها. سيكون هذا النجم قد ثوى في أحشاء ابنتك حيث سيتجسد طفلا.

سيكون طفلا متمتعا بالرعاية الربانية، لأن مصيره هو أن يقاوم بشدة نجدو ديوال، الكارثة العظمى. سيدوم صراعهما سبعة أعوام؛ وخلال هذه السنوات السبع سيواصل البلد تحملَ الشقاء الذي أصابه جراء فعل نجدو ديوال، عندما حبست الأمطار المخصبة التي ما عادت تسقط كي تحيي النباتات والكلأ، وعندما منعت الحيوانات من الولادة، وأيبست مجاري المياه، إلى درجة أن المسافرين العطاش ما عادوا يجدون ما يبلون به ريقهم أو يُوَرِّدُون منه مطاياهم.

لكن بعد هذه الأعوام السبعة، ستعود الأرض – التي سترتفع حرارتها بفعل نفَس نجدو ديوال، إلى درجة أنها ستحرق الأقدام – إلى طراوتها.

ستكف الأشجار عن التحليق مع كل هبة ريح كأنها قد زودت بأجنحة، ستكف عن أن تطير، متوجهة فجأة كي تغوص تحت الأرض والضياع فيها.

(*) تعود هنا إلى الظهور تيمةُ النجم المبشر الذي يقدَّم، فضلا عن ذلك، على أنه تجسيدٌ قبليٌّ لباغوماويل. ومادام هذا النجم يبزغ من الشرق مساء ويغرب من الغرب صباحا، فهو بمنزلة بديل للشمس؛ وبمنزلة حضور للضوء العلوي في قلب الظلام.

كل أسقف القش التي أنشئت لتوها، تفقد - بفعل الأعمال السحرية للمشعوذة العظمى - قشها في اليوم التالي كأن الأمر يتعلق بسقف حيوان شَيْهم، فتجتاح الشمس الحارقة داخل الكوخ؛ لكن الظلال التي غادرت داخل المسكن، ستعود إليه وسيصبح الجو من جديد محتملا ولطيفا.

عندما سحرت نجدو ديوال البلد، عمدت إلى حبس تعويذة الفولانيين الخيِّرة٣٣، منبع قوتهم، في يقطينة معدنية؛ ثم أغطست اليقطينة في صخر، وأخفت الصخر في أكمة من تراب، ووضعت الأكمة في جزيرة صغيرة؛ وبعد ذلك، قذفت بالجزيرة الصغيرة وسط بحيرة مالحة شاسعة (*) وهيجت أمواجها الغاضبة، حتى فاق ارتفاعها ارتفاع أعلى الجبال، قاذفة بمن يريد الاقتراب منها بعيدا.

عندما أخبر أبو ويلوري زوج ابنته بدلالة الحلم، ذهب هذا الأخير ليسأل أغا - نوتيورو إن كان ثمة من تضحية يقدمها للحيلولة دون أن تُجهِض نجدو ديوال زوجتَه عندما تصبح حاملا.

ضرب أغا - نوتيورو الرمل، ثم فحصه بعناية. كانت النتائج الست عشرة متطابقة. قال:

ها، ما عليك أن تقدمه قربانا؛ عليك أن تبحث عن خروف من نوع كوبو - نولو وتقدمه صدقة لرجل أصم أخرس أعور.

(*) يتم، هنا، اقتراح امتداد شاسع - بحر أو محيط - يتمنَّع على كل إمكانية للقياس. ومادام يشكل حقيقة تنتمي إلى عالم آخر، فإن بإمكانه أن يكون شاسعا أو غير قابل للعبور بالنسبة إلى البعض، أو سهل العبور بالنسبة إلى آخرين. لقد أخفت نجدو ديوال منبع قواتها في قلب محيطِ ما بين العَوَالِم، حيث لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه.

بدا با – وامندي مبلبلا، لأنه كان يجهل ما عساه يكون خروفا من هذا النوع، فقال: أرجوك، كن طيبا وفسر لي ما يكون خروف كوبو – نولو – كوبو – نولو، أجاب أغا – نوتيورو، هو خروف أبيض الصوف، عيناه بلونين مختلفين: واحدة لونها داكن، والثانية لونها لَبَني.

– هل هذا فقط ما يميز هذا النوع من الخرفان ؟

– لا. صوفه لا بد أن يكون أبيض دائما [*]، وكذلك إحدى عينيه، أما العين الأخرى، فيمكنها أن تكون داكنة كما يمكن أن تكون حمراء.

شكر با – وامندي أغا – نوتيورو بحرارة، ثم أخذ طريق العودة إلى بيته سعيدا مثل عريس. وبما أنه كان يحمل بعض قطع الغوري النقدية، فقد توجه إلى سوق الخرفان كي يشتري خروفا من نوع كوبو – نولو، سمينا وناصع البياض. من حسن حظه أنْ عثر بسرعة على الحيوان الذي يبحث عنه. وعكس المعمول به، سلم صاحبه الثمن من دون أدنى مجادلة.

شرع يجر خلفه، بحبل، خروفه كوبو – نولو، وهو يبحث عن رجل أصم أخرس وأعور. لم يكن هذا الأخير، بالتأكيد، من أنواع الناس الذين يمكن العثور عليهم بسرعة، لكن الصلوات، عندما تُؤدّى، تصبح الأشياء الأشد ندرة في متناول اليد، لأنه يصبح للسماء دخل في المسألة! بعد بضع ساعات من البحث والتجوال عبر أزقة وطرقات البلدة، لم يلتق با – وامندي برجل أصم

(*) البياض، لون الحليب (السائل المقدس بامتياز، بالنسبة إلى الفولانيين)، هو رمز الطهر، إذن فهو مقدس.

أخـرس أعـور، بـل التقى برجل أحـدب أعور أعرج أصـدف. حيّاه باحترام كبير وقال له:

هل يمكنك، يا أخي، أن تقدم لي معلومة؟

قال الأحدب، الأعور، الأعرج، الأصدف، مندهشا:

لماذا لا تضحك مني كما يفعل الآخرون، عندما يلتقون بي؟

- ولماذا أضحك منك؟

- لأن بنيتـي مشـوهة ومظهري غريب ومثيـر للضحك، على ما يبدو. ألا تجدني مثيرا للسـخرية؟ ألا ترى فيّ فرصة لإشـباع سخريتك؟ لماذا لا تهزأ بي مثل بقية الناس؟

أجاب با - وامندي وهو أقرب إلى الشفقة على الرجل منه إلى الضحك، عيناه دامعتان:

أنـت يـا أخي لـم تصنع نفسـك بنفسـك. إنك لم تشـتر من السـوق حالتك التي توجد عليها. من يضحك من مظهر شـيء إنما يضحك، بطريقة غير مباشرة، ممن صنع هذا الشيء. ومن جهتي، فإنني لا أرى فيك البتة رجلا يدعو إلى السـخرية، لأنك على الشاكلة التي أراد جينو أن تكون عليها.

انفجـر الرجـل، الأحدب، الأعـور، الأعرج، الأصـدف بضحكة ابتهاج وقال:

- ما المعلومة التي تبحث عنها؟

- أنا ابحث عن رجل أصم أخرس أعور.

- ولماذا تبحث عنه؟

- لأسلمه هذا الخروف الذي نصحني أغا - نوتيورو بتسليمه إليه هو وحده وليس البتة لغيره.

- هل يمكنك أن تسلمني نواة كولا كي أنشط أضراسي وحفنة نشوق أنشقها وأسرح خياشيمي؟

كأنه بفعل المصادفة، كان با - وامندي يحمل معه علبة بها نويات الكولا وعلبة نشوق مترعة بنشوق «المونغلا»، مطحونة بعناية ومعطرة. بدلا من أن يسلمه با - وامندي قدرا من النشوق ونواة واحدة من نويات الكولا، أعطاه علبة النشوق بأكملها وكل علبة نويات الكولا. قسم ذو العاهة أضخم النويات إلى جزأين، قادرٌ كل جزء على ملء فم بكامله، ثم تناول جزءا منها وشرع يمضغه بأسنانه، وسلم الجزء الثاني لبا - وامندي، داعيا إياه أن يفعل مثله.

بعد ذلك أمسك باليد اليمنى لبا - وامندي، فمه مترع بالكولا، وتنحى به جانبا. لنجلس هنا، قال له؛ فمهما تكن مدة الجلوس قليلة، فهي دائما مفضلة على وضعية الوقوف. الجلوس مريح.

جلس الرجلان على الأرض مباشرة، أحدهما قبالة الآخر. آنذاك فتح الرجل الأحدب، الأعور، الأعرج، الأصدف علبة النشوق التي سلمه إياها لتوه با - وامندي. وضع من النشوق قدرا ما بين إبهامه والسبابة ثم استنشقه بشِقَّيْ أنفه معا مع إحداث صوت صفير مميز. سالت من عينيه دمعتان. مسحهما بظهر كفه اليسرى وقال:

هكذا إذن؛ أنت تبحث عن رجل أصم، أخرس، أعور، ولم تتحرج من سؤالي عنه. هل سألتني لأنني أنا أيضا أحدب، أعور، أعرج، أصدف، أم أنك سألتني لسبب آخر؟

أجاب با - وامندي: يحصل مرارا أن نعثر على جوهرة نادرة في بركة ماء صغيرة، بعد أن نبحث عنها، سدى، في المحيط الأعظم (*).

- وإذن، يا با - وامندي، إن الذي لا يستنكف عن سؤال الجميع، لَهُو متأكد من العثور على بغيته. إن فعلك الحسن وتقديرَك يُلْزِمَانني جدا. لذلك سأخبرك بالمكان الذي يمكنك أن تعثر فيه على الرجل الذي أُشيرَ عليك به.

لقد بنت نجدو ديوال الكارثية، أم البؤس والكآبة، مدينة ملغزة سمتها ويلي ويلي (الاثنان معا، الاثنان معا). وقد حبسَت فيها أخي التوأم «سيري»، لأنه يحمل سرّا يمكنه أن يؤدي إلى هلاكها. وكما أنني، أنا عبدو، أحدب، أعور، أعرج، أصدف، فإن أخي سيري، من جهته، أصم، أخرس، أعور. تحبسه نجدو ديوال في دهليز كانت تريد أن تحبسنا فيه معا، لكنني أفلحت في الفرار. لقد كبلت أخي بالحديد، وكي تتأكد من عدم قدرته على الفرار عبر أزقة المدينة، جردته من ثيابه، فتركته دون قميص أو سروال. وكل يوم يُضرب، عاريا ومكبلا، إلى أن يُنهك تماما من قبل خدم نجدو. ستعثر إذن على من تبحث عنه في مدينة ويلي - ويلي.

بعد أن أَطلع عبدو الأحدبُ، الأعمى، الأعرجُ، الأصدفُ، با - وامندي على كل الأسرار الخفية المرتبطة بأخيه سيري، أخرج

(*) يدل هذا الجواب على أن با - وامندي لا يسعى أبدا إلى التقليل من شأن أي كان. هو ليس فريد نوعه؛ هو فقط يقدر الناس ويتمتع بذهن متفتح. هو يتصرف مثل أي شخص يسعى إلى التعلم. تلك هي خصال با - وامندي التي ستعمل الحكاية على إبرازها باستمرار، والتي يجب على كل مريد أن يتمتع بها: خفض جناح الذل والاستقامة واحترام الآخرين، فضلا عن الرأفة.

مـن جيبه طلسـما وقال لـه: احمله على جيدك. سـيمكنك من الوصول إلى ويلي ويلي من دون أن تصاب بمكروه.

في الطريق إلى ويلي - ويلي.

شـكر با - وامندي عبدو كما ينبغي له ثم عاد إلى بيته وشـرع يسـتعد للسـفر. في الغـد، في الصبـاح الباكر، حمـل على كتفه جرابـه وجـر خلفه كوبو - نولـو، وغادر البيت آخـذا طريق ويلي ويلي، حيث سيعثر بالتأكيد على سيري، الرجل، الأصم الأخرس، الأعور، الذي هو ملزم بأن يسلمه الخروف.

مشـى بـا - وامنـدي؛ مشـى منـذ الصبـاح وإلـى أن أصبحت الشـمس في كبد السـماء، قاذفة الأرض بحرارة منهكة، ترغم كل مسافر على البحث عن ملجأ.

ذهب كي يسـتريح تحت شـجرة كثيفة الأوراق. ولم يكد يأخذ مكانه، تحتها، لبضع لحظات، حتى رأى سربا ضخما من الجراد يقتـرب. احتـل الجـراد منطقـة الظـل وشـرع يرقص حـول با - وامندي وينشد:

با - وامندي، يا با - وامندي، ما وجهتك؟

- أنا ذاهب إلى ويلي - ويلي، البلدة الملغزة لنجدو ديوال.

- ومـا الذي تبحث عنه في تلـك المدينة المنفرة الجهنمية، والخالية تماما من النساء، إلا من البنات السبع لنجدو ديوال الكارثيـة؟ إن عيـون ويلـي - ويلـي لتجري دمـا؛ وأرضها أكثر إحراقـا مـن النار؛ وكل يوم، تنهي نجدو ديوال وجبتها بشـرب دم فتيان.

أجاب با - وامندي:

أنـا أسـوق إلـى ويلـي - ويلي خـروف كوبـو - نولو هـذا الذي أمامكم كي أهبه إلى سيري الرجل الأخرس، الأعور، الأصم، أخي عبـدو، الرجل الأحـدب، الأعور، الأعرج، الأصدف. أجل، سـيكون الخـروف كوبـو - نولو خـروف خلاص سـيري، الأصـم الأخرس الأعور. وحدهما سيري وأخوه عبدو يقفان في وجه نجدو ديوال، لأن سـيري يعـرف السـر الذي بإمكانـه تجريد المشـعوذة من كل فعالية أو سلطة، وحرمانها من الوسائل التي تمكنها من اجتياح هيلي ويويو.

أجـل، فبفعل سـحرها أصبح سـكان هيلي ويويـو غارقين في بـؤس فظيـع ! وقد كـف الأطفال هناك عن العـدو والقفز. يبدو السكان منهكين كأنهم قد قضوا النهار ينقلون أحمالا ثقيلة من الحطب الجاف. إنهم يقومون، في الآن نفسـه، وبلا هوادة، بعمل مضن ولا جدوى منه، لكن لا أحد منهم، في المقابل، يملك وجبة طعـام بمنزله. تضعهم نجدو ديوال في وضعية شـبيهة بوضعية رجل يُطلب منه أن يصنع خزفا من طين جاف.

صاحت عميدة الجراد (*):

آه، يا با - وامندي! لقد خلقنا جينو وجمع فينا مميزات عدة حيوانات٣٤. دعنا نحك لك حكاية:

ذات يـوم، كنـا شـارعين نحلـق، متجمعـين مثـل سـحابة عظيمـة. وكنا قد نزلنا بحقلك العائلي وبمسكنك الشخصي، وقمنا بالتهام كل شـيء. لم نسـتثن أوراق أية شـجرة مثمرة.

(*) الجراد المتكلم: منذ أن بدأ با - وامندي رحلته، ولج عالما آخر؛ عالم الأشياء «الخفية». فهو يحصل على ملَكات جديدة ويمكنه أن يفهم لغة الحيوانات.

وتعد هذه الحميمية بين الإنسان والحيوان خاصية أخرى متداولة في الحكايات الأفريقية.

ثقبنـا أرض حقلـك ووضعنـا بيضنـا كـي نسـتطيع معـاودة الاجتيـاح السـنة التاليـة. والحال أنك علـى الرغم من ذلك، عندمـا وجـدت، يوما، الأطفـال يعبثون بجـراد لا أجنحة له، وإذن لا دفـاع لـه، عمدت إلى تخليص صغارنـا. إن هذا الفعل الكـريم الـذي أقدمـت عليه في مقابـل العمل الشـرير الذي ارتكبنـاه في حقـلك، يلزمنا اليوم بأن نعـرب لك عن اعترافنا بالجميـل. نحـن نعلـم أنـك متوجـه إلـى ويلي - ويلـي. أنت تعـرض نفسـك إلى موت محقق؛ ونحن نتقـدم إليك بعوننا: خـذ بعض فضلاتنا وحافـظ عليها في جرابـك بعناية. فقد تحتاجها في يوم من الأيام.

استجاب با - وامي لما طالبته به؛ ملأ كيسا صغيرا من فضلات الجـراد ووضعها في جرابه. بعد ذلك ودع الجراد المجتاح وواصل طريقه، ساحبا خروفه خلفه.

خـلال اليوم الثاني من رحلة با - وامندي، صادف في طريقه عرس سلاحف. كان عدد السلاحف كبيرا، إلى درجة أن المرور كان شديد الصعوبة. خاطبته كبيرة السلاحف:

أنت أيها الرجل ذو الخروف!

هـل تهـت أم تُراك فقدت صوابك؟ أي سـوء حظ سـاقك إلى هـذا المـكان الـذي يُحْظر على الجميـع ولوجه؟ المؤكد أن سـاعة حتفك قد أزفت وإلا لما كنت اليوم موجودا بهذا المكان!

فـي هـذه اللحظـة تقدمت سـلحفاة صغيـرة، هـي ابنة ملك السلاحف، وقالت لأبيها:

آه يا أبت!

إنني أتكفل بحماية با - وامندي، وأضمن له السلامة. لقد سبق لهذا الرجل أن عثر علي، في حفرة، أحتضر من الجوع والعطش، عاجزة تماما عن الخروج من الحفرة اعتمادا على إمكانياتي الشخصية. آنذاك، أوقف رحلته وأخرجني من سجني ثم حملني وأوصلني إلى بركة يتصل ماؤها بماء نهرنا. وعندما وصلنا إلى البركة أدخلني إلى الماء ووضعني في عمقه، وهو يسعى إلى جعلي في مأمن من أي نَهَّابٍ محتمل.

قال ملك السلاحف متعجبا:

أنتم يا قارعي الطبول! اعزفوا بصوت مرتفع نشيدنا الملكي على شرف با - وامندي! وبينما شرعت تصعد نغمات النشيد المبتهجة، أمسك ملك السلاحف بكف با - وامندي، ثم رفعها عاليا وشرع يحركها بود وهو يصيح: بوركت يا با - وامندي، يا منقذ طفلي الوحيد، وريث عرشي! نحن على علم بأنك متوجه إلى ويلي - ويلي، مدينة نجدو ديوال الكارثية. اعلم أنك ذاهب في اتجاه محن مرعبة، إن لم تكن متوجها نحو موت محقق.

بعد قوله ذاك، أمر الملك أن يأتوه بقطعة من درع سلحفاة، تحتوي على قدر من تراب صلصالي، ثم سلمه لبا - وامندي:

خذ! ضع هذا في جرابك. لا تُضِعه واحرص على أن يكون باستمرار في متناول يدك. عندما تجد نفسك، يوما، في مأزق، اكسره واقذف بقطعه في النار. هذه هدية نقدمها لك عربون اعترافٍ بطيبتك وكرمك.

أطنــب بــا - وامندي في شــكر ملك الســلاحف [*]. بعد ذلك شــقُّوا له طريقا فواصل مســيره نحو ويلي - ويلي، مرفوقا دائما بخروفه.

كانت الشــمس قد غابت لتوها خلف الأفق. لكن با - وامندي لم يتوقف، رغم ذلك، عن المشــي. اســتمر يمشــي إلى أن ارتفعت أولــى صيحات الديك. كان قد بلغ به التعب كل مبلغ، واســتولت عليــه رغبــة لا تقاوم فــي النوم، فانهــار على الأرض. هــل كان ما يشاهده حلما ؟ هل كان حقيقة [**] ؟ رأى قطيعا كبيرا من الكلاب يحوم حول وكرٍ لحشــرةِ الأَرَضَة. شــرعت الكلاب، عندما انتبَهَت إلى وجوده، تنبح. أخذت تُرعش براطيلها وتكشر عن أنيابها وهي تسارع نحوه، مستعدة لتمزيقه. في تلك اللحظة خرج كلبُ رَعْي ضخــمٌ من بينها وصاح: توقفوا يا إخوتي! اســم هذا المســافر هو بــا - وامنــدي، وهــو رجل خير وصدقة. ســبق لبــا - وامندي ذات يــوم أن عثــر علي مختبئا فــي ممر، وأنا في حالــة مرض مميتة، مجتاحــا بالجرب وبالقراد الشــره الماص للقليل مــن الدم الذي كان بقــي فيّ، مهددا إياي بالهلاك المحقــق. كانوا يطردونني من كل مــكان، لأنــه لا أحــد يحب كلبا مريضــا. حينئــذ أخذني با - وامنــدي وســاقني إلــى بيته ومكننــي من طعام فقــال لي اختبئ حيث أضع ذرتي. التجأت إلى حيث أشار عليّ، وطيلة بقائي ثمة، لــم يتركنــي أحتاج شــيئا ؛ أتاني باللحم وأتانــي باللبن. كنت آكل حتى أشــبع وآخذ راحتي كما أشــاء. وكان با - وامندي يعالجني.

(*) السلحفاة: انظر الهامش الرقم ١٨، من الملحق.

(**) التعجب الفولاني التقليدي أمام ظاهرة شاذة أو غير طبيعية.

وعندما استرجعت عافيتي كلفني بحراسة قطيعه المكون من الغنم والماعز السمين. بتلك الطريقة استعدت صحتي ونشاطي إلى أن حان اليوم الذي راودتني رغبة الرجوع إليكم. وحتى في تلك اللحظة، لم يعرقل أبدا عودتي.

هيه يا با - وامندي! أنت إذن مُرَحَّب بك في بلد الكلاب التي تحوم حول وكر الأرضة العجيبة٣٥، وسيأتي خالي الملك ليسلم عليك.

لحظتئذ، شرع كلب مريض، تساقطت كل أسنانه، تسيل من عينيه دمعات كبيرة ويتدلى من فمه لعاب، يتقدم نحو با - وامندي وهو يرتعش بشدة. لعق يدي با - وامندي وقدميه، ثم قال:

إن من تحدث إليك لتوه هو ابن أختي. لقد كنت رجلا طيبا في معاملتك له. وأنا الآن حريص على شكرك، لأن على فعل الخير أن لا يجازى، عند الناس المحترمين، إلا بفعل الخير. أنا أعلم أنك في طريقك إلى ويلي - ويلي. أجل، لقد بنت نجدو ديوال الكارثية تلك المدينة الخفية التي سمتها ويلي - ويلي (الاثنان معا، الاثنان معا)، والحال أنه كان عليها أن تسميها هيلي - هيلي (تكسير كل شيء، تكسير كل شيء!).

أمسك الكلب العجوز٣٦ بالسائل المتخثر حول حافتي عينيه وسلمه لبا - وامندي فقال له: خذ هذا ولُفَّه في قطعة ثوب واخفها في جرابك. فأنت إذْ تتوجه نحو ويلي - ويلي، فإنّك سائر، لا شك في ذلك، نحو موت محقّق. فربما كان عليك، ذات يوم، عندما تجد نفسك في مأزق وبلا عون - أن تضع في بعض

الأعين هذه المادة التي قدمتها لك لتوي، بعد أن تخلطها بكحل مـر٣٧، ثم أضاف إلى العلبة بعضا من مسـحوق الكحل المر ومن رماد المطبخ.

قبـل بـا - وامنـدي، ممتنا، كل مـا قدم له. شـكر بحرارة ملك الكلاب وواصل طريقه.

بعد لحظات أفضى به المسير، فجأة، إلى مكان تتخذه الضفادع مـأوى لها. كانـت الضفادع مقطوعةُ الذيل، تقفـز في كل اتجاه. وعندما انتبهت إلى وجود با - وامندي شرعت تصيح: ماذا دهاك أيهـا الرجل ذو الخروف؟ ما وجهتك؟ أتكون حياتك قد أشـرفت على نهايتها؟ لو لم يكن الأمر كذلك لما خطرت ببالك أبدا فكرةُ التوجـه إلـى ويلي - ويلي، وبالخصوص أن تسـلك الطريق التي تمر وسط مأوانا. لذلك، فأنت الآن ستؤدي ثمن جرأتك وتهورك.

اقتربت ضفدعة صغيرة من با - وامندي متقافزة:

ألـم تتعـرف علي؟ سـألته. لقد سـبق لـك أن طوقتني بعمل خيِّر؛ والدور عليّ الآن لأرد لك الجميل.

- أنـا مـا عدت أتذكر الآن أنه قد سـبق لـي أن التقيت بك من قبل، قال با - وامندي.

- مـن المعتـاد أن ينسـى فاعـل الخيـر ما قـام بـه، فذلك أمر مستسـاغ، عقبت الضفدعة الصغيرة. إن ما لا يُقْبَلُ ولا يليق هو أن ينسـى المسـتفيد من فعل الخير. وأنا، من جهتي، لا أنسى من شملني بفعله الخيِّر.

ذات يوم، كانت الشـمس حارقة، فكدت أموت عطشـا. شـرعت أشعر بألم ممض. آنذاك انتبهت إلى وجود آنية من طين مملوءة

مــاء، موضوعــة تحت شــجرة. عاودني الأمل وشــرعت أقترب من الآنيــة كي أروي عطشــي من مائها، لكن فـم الآنية كان عاليا كما أنه كان ضيقا بالنســبة إليّ. كل محاولة مني للقفز كي أدرك فم الآنيــة، كانــت تنتهي بالانــزلاق. كنت أنزلق وأتدحــرج ثم أنقلب على ظهري فلا أعود أرى قُدَّامِي سوى السماء.

لحظتئــذ، مرق طفل بديــن، هو بالتأكيد ابــن صاحب الآنية الخزفيــة. وجدني منهكة تماما، وأنا أئن على الأرض، على حافة الهلاك. كنت ألهث مثل كلب عطشــان. أمســكني الطفل البدين مــن ســاقي وربطهمــا إلى حبــل ضاغطا بقــوة، إلــى أن انتصبت أذناي. رفع الحبل الذي ربطني به، فوجدت نفسي معلقة، الرأس إلــى الأســفل، وشــرع يعدو وهــو يؤرجحنــي. وصدقونــي أن تلك الأرجحــة لم تكن تشــبه في شــيء هدهدة طفل لجعلــه ينام، بل كانــت، بالأحرى، اهتزازات تجعلني أغثو بأحشــائي! امتلأ بطني بالهواء إلى أن كاد ينفجر، وتورمت ساقاي المكبلتان. وكان الطفل يتلذذ بشدة من رؤيتي على تلك الحال البائسة.

آنــذاك كنْــتَ تدخلت يا با - وامنــدي، وخلصتني من الطفل. كنــت خلصتني مــن الحبل ونهــرت الطفل ومنعتَه مــن أن يعاود فعلتــه. أنــا لا أذكــر الآن مــا كنتَ ســلمته إليه مقابــل تخليصي، لكنني أذكر أنك كنت ســلمته شــيئا ما. إن ما لا يمكننــي أن أنساه هو ما قمت به من أجلي، وما حال بيني وبين الهلاك.

خرجــت أم الضفدعة الصغيرة من الصف واقتربت، متهادية، من با - وامندي. غثت بين قدميه بجوهرة بيضاء مســتديرة في حجم بيضة طيرِ آكلِ الذرة وقالت:

أنت يا من يشمل الحيوانات والدواب بأفعاله الخيرة، يا من يعطف حتى على فراخ ضفادع المياه الدافئة والبركات الموحلة! إن الحيوانات الأرضية والحيوانات المائية، ودواب بلدات الغابات ممتنة إليك. وعصافير الحقول تلهج بمدحك على أغصان غابات أعالي الأدغال!

أنت يا با - وامندي! خذ هذه الجوهرة وضعها في جرابك؛ فهي ستكون لك ذات فائدة في يوم صعب أنت الآن، لا شك، مقبل عليه. فالذهاب إلى ويلي - ويلي يعني الذهاب نحو الموت! وضع با - وامندي الجوهرة في جرابه.

قالت: جرت العادة، إن التقدير، بل الامتياز، يكون من حظ من يعترف بالجميل أكثر مما يكون من حظ فاعل الخير، لأن الجحود هو من جبلّة الإنسان.

بعد ذلك، حيا با - وامندي أم الضفدعة الصغيرة على طيبتها وحيا بقية الضفادع ثم واصل طريقه.

كان الوقت مايزال باكرا والجو منعشا. مشى با - وامندي ساحبا خلفه خروفه، لساعات طويلة، مستفيدا من طراوة الصباح. كانت الشمس مختفية خلف سحب، لكنها، عندما ارتفعت في السماء بمقدار أربع عَصَيَات لرمح كبيرة، ثقبت أشعتها الحارقة السحب ونشرت حرارة كانت من الارتفاع بحيث بدا الكون منها جامدا. لا هبَّةَ هواء واحدة! شرع با - وامندي يفرز عرقا مدرارا. لكن على الرغم من أن الحر كان يخنقه، واصل المسير، لكن بصعوبة بالغة، لأن الطريق، فضلا عن الحرارة، كانت تصبح أكثر وعورة؛ فهي مرة منحرفة، ومرة محفورة، وأحيانا

متعرجة وصعبة، وممرات ضيقة، إلى درجة أنه كان يتساءل كيف يمكنه المرور مع خروفه.

وبما أن المصائب عندما تأتي، تأتي مجتمعة، فإن با - وامندي قد لمح، في الأفق الشرقي، تجمعا شاسعا للسحب، شبيها بجبال متراصة. كانت بعض تلك السحب ميالة إلى البياض، وكانت أخرى سوداء نيلية وأخرى لونها أزرق. كانت تلك السحب تتقدم ببطء كأنها قطعان غنم ترعى في سهل. لا شك في أن الأمر يتعلّق بعاصفة هي قيد التكون، ما دام با - وامندي قد رأى وميضا ينير الفضاء. لا شك في أن السماء ستفتح أبوابها لإغراق الأرض.

هبت الرياح فجأة. شرعت تدلف في أوراق الشجر وفي جبة با - وامندي، مما جعل مشيه شديد الصعوبة. كان عليه، كي يتقدم، أن يميل بقوة إلى الأمام، إلى درجة أنه كان يبدو آيلا للسقوط على وجهه، كل لحظة. كان يُميل رأسه كأنه يتفادى الصفعات التي كانت الزوبعة تقذف بها صُدغَه. كان يسحب خروفه بيمينه ويسخر يسراه، بصعوبة بالغة، ليُلصق أطراف جبته على جسده، ساعيا إلى منعها من أن تنتفخ أكثر.

رفع با - وامندي عينيه لينظر إلى الأفق. بدت له التماعة أفقية واضحة بين سحابتين، ثم التماعة أكبر متشعبة. لا شك في أن عاصفة ضخمة ستنفجر.

لم يكن الوقت مناسبا كي يَبْتَلَّ لا هو ولا خروفه. لم يعد يستطيع أن يتقدم وقد نال منه التعب، وشرعت جبته المنتفخة بالهواء تعيق مشيه، فالتجأ إلى شجرة وجعل تحتها يدعو جينو:

يا جينو! امنع السماء من أن ترسل ماءها على الأرض! استمرت الرياح تهب بقوة. وكانت الشجرة التي التجأ إليها با - وامندي تقع في منحدرٍ أشجارهُ شائكة. كانت الطيور الشعثاء متشبثة بالأغصان الممتدة وهي تتمايل، حسب اتجاه الريح، مرتفعة أحيانا مثل أمواج مائجة، أو تهوي في الفراغ مثل مركب يغرق. وعند كل هبة، كانت الريح توقف ريش الطيور فتغدو أذنابها شبيهة بمروحة.

هل تمت الاستجابة لدعوات با - وامندي؟ فما هي إلا هنيهة حتى أعادت العاصفة إغماد سهام نارها التي كانت تتوعد بها الأرض بالإحراق، وسكنتِ الريح. بدا كأن جينو أراد ألا يبتل با - وامندي، الرجل ذو القلب الطيب، وخروفه. هدأ الرعد واستحال مجرد صدى متباعد. كانت الرياحُ، جالباتُ المطر، قد أبعدت العاصفة فأصبحت السحب الداكنة الضخمة، التي كانت منذ قليل تُظلم السّماء، مستنيرة مثل مشروب خُلط بالماء. أصبحت شفافة في انتشارها وهي تتداعى متموجة مثل كثبان رملية. سارت السحب الصغيرة في أعقابها متعثرة، ثانيّة ظهورها كأنها تشكل طريقا متعرجة.

آنذاك غادر با - وامندي ملجأه وواصل طريقه ساحبا خلفه خروفه في اتجاه ويلي - ويلي. بمجرد مغادرته للطريق الضيقة الملتوية (*)، أفضى به مسيره، فجأة، إلى سهل يصعب اجتيازه: كان عبارة عن امتداد شاسع لرمال دقيقة، يغوص الماشي فيها

(*) كل مرة نصادف في حكاية طريقا معوجا نسلكه أو نهرا نعبره أو جبلا نتسلقه، فإن ذلك يرمز إلى امتحان أو مرحلة علينا أن نقطعها على الطريق الروحي.

إلى الركبتين. وبمجرد هبوب رياح، ولو خفيفة، كانت ذرات الرمل تصبح مُعْمِية تخز الجلد مثل آلاف من النمل المسعور.

استطاع با - وامندي، بإرادة جينو ومساعدته، وبعد مجهود ومعاناة، أن يجتاز المنطقة الرملية القاتلة التي طالما ابتلعت، قبله، أكثر من رجل وأكثر من مطية (*).

لكن، وللأسف، بمجرد اجتيازه للسهل الرملي، وقع على قرية لحيوانات الشّيهم (**)، حيث كان يُعقد مجلس استشاري للعرش، هو في الحقيقة مجلس غير معتاد: كان الأمر يتعلق، بالأحرى، بمحاكمة. ومن الغريب أن المتهم كان هو الملك نفسه.

كانت المحاكمة منعقدة بالساحة العمومية التي يقام على أرضها، كل سبع سنوات، احتفال شعبي. كان السكان جميعهم مدعوين لحضور الجلسة. وُضع الملك - الذي كان مربوطا مثل حزمة حطب، ومحمولا مثل جثة مبتذلة - وسط الدائرة التي رسمت كي يخضع ضمنها لتحقيق أولي.

أي جرم اقترفه، إذن، الملك حتى يعامل بهذه الطريقة المذلة ويعرض هكذا أمام محكمة شعبية؟ كان قد أمر، ذات يوم، وقد تعكر مزاجه، بقتل كل القرود الموجودة بمملكته. والسبب، كما كان يقول، هو أن هذه القرود غريبة عن المملكة وغير مرغوب

(*) منطقة الرمال: هي بلد التعلم. إن لم تجد أحدا يقودك، غصت فيها، مهما تكن فطنتك ومهارتك. وأن تغوص معناه أنك تسقط في الفخاخ المبثوثة على الطريق. إنها الوهم والسراب الإلهي. نضع نصب أعيننا هدفا ليس إلا وهما. نعتقد أننا وصلنا، لكننا إنما غصنا. ومن ثمة ضرورة وجود دليل موثوق به. وبا - وامندي لم يستطع أن يتقدم في هذه المنطقة إلا لأنه محمي ومقود من طرف جينو.

(**) الشيهم حيوان بري من الثدييات أشواكه بيضاء وسوداء. شبيه بالقنفذ، لكنه ليس بقنفذ (المترجم).

فيهـا، وأنها مجرد عناصر مشوشـة تمتص البلـد وتُفقِر المواليد الجديدة.

لـم يسـتطع با - وامنـدي تصديق أذنيه، أو بالأحـرى ما تراه عيناه. أن يعرض ملك على محكمة شعبية، فهذا أمر يمكن تقبله على مضض، لكن أن يكون مربوطا مثل كومة حطب جاف، وأكثر من ذلك، بسـبب قرود لم تكن تنتمي بالتأكيد لفصيلة الشـيهم، فإن ذلك يتجاوز أي منطق. لكن الأمور هي كما هي، ويجب تعلم التكيـف معهـا كمـا هي. فـإذا كان من بين عادات ذلـك الزمن أن يَفْرِكَ كـلُّ المدعـويـن بطونهم قـبل تناول أي وجـبة، فـإن مـن لا يفـرك بطنـه قـبـل الأكـل، قـد يعـانـي عسـرا فـي الهضـم، ولا يكون عليه أن يلوم إلا نفسه.

كان الشاعر المغني المنتمي لفصيلة الشّيهم قد لمح با - وامندي فاقترب منه وقال له:

مـن تكـون أنت يا من لا ينتمـي لفصيلتنا؟ أنت لسـت من هذا البلد. من أين أتيت؟ وإلى أين تتوجه بكل هذا الطّيش؟ أنا أعتقد أنك قد نسـيت رشـدك فـي مكان مـا، وأنك قد علّقـت حظك إلى غصـن بغابـة قريتك؛ وإلا فإنه ما كان عليك أن تأتي هذا اليوم. إن أي أجنبـي يـرى ما رأيته أنت لتوك، عليه أن يموت حالا. اعلم أيها الغريب؛ يا ابن آدم، أن الملك الذي تراه هكذا مربوطا، ما يزال ملكا. وهو يملك سـلطةً أن يحكم على أي غريب، إلى أن يزاح عن عرشه، وهـو ما لـم يتم بعـد. والحال، أنه قـد أمرني بأن أرميك بالسـهام حتى الموت. تقدم! سـآخذك إلى مكان التعذيب، وهناك سـأقذفك بأدواتي الحادة كلها دفعة واحدة. ستخترق جسدك وستموت!

سار با - وامندي طوعا، في المقدمة، فتبعه الرامي وهو يقوده بصوته. عندما أدركا المكان، انتفض الشيهم بهمة فانطلقت إبَره (أشواكه) مثل أسطر في اتجاه جسد با - وامندي. لكن، يا للمعجزة! سقطت إلى جانب جسده وانغرست في الأرض مشكلة ما يشبه حاجزا. من الذي جعل السّهام في تلك الحال؟ هل تكون اصطدمت بدرع ملغز؛ درع لا تستطيع أي عين رؤيته؟... في تلك اللحظة نفسها انبثق قنفذ من اللامرئي، وقال:

أنتم يا معشر الشيهم! لو كان با - وامندي قد قُتل اليوم بسببكم، لكنتم جميعا قد هلَكتم جراء شرٌ مستطير.

سأله الملك، على الرغم من كونه مقيدا مثل كومة حطب:

من يكون إذن با - وامندي هذا؟ وأين ومتى قابلته؟

حكى القنفذ:

عرفت با - وامندي في يومٍ كان شرّه عظيما؛ عرفته ذات يوم وجدت نفسي، خلاله، محاصرا وسط حريق بالدغل. كانت النار، المندلعة بقوة، تتقدم بسرعة نحوي؛ وكانت ألسنة لهبها تلتهم بشراهة كل ما تجده في طريقها. شعرت بخوف عظيم وشرع قلبي يخفق بقوة، إلى درجة أن قوائمي تجمدت كأنها قد تورمت فجأة. قفز با - وامندي الذي كان يراقب المشهد، فوق ألسنة اللهب كي يصل إليّ. أمسك بي ووضعني في جرابه ثم قفز، على الفور، فوق النار كي يخرج من منطقة الحريق. بعد ذلك وضعني في جحر. وكي نرد له جميل خيره، أقام إخوتي القنافذ، التي لا تراها أعينكم، دائرة حوله. وقد قام كل واحد منا بصد سهم من السهام التي قذفها جلادكم، وغرسناها في الأرض. أما أنتم،

معشر الشيهم، فتعرفون القوة السحرية التي نتمتع بها، نحن القنافذ. وإذا لم تقوموا بإصلاح خطئكم بحكمة، فإننا سنُنزل بكم عقابا شديدا!

عندئذ تقدم أحد أفراد الشيهم، وهو أعور، ساقاه معطوبتان؛ تقدم بصعوبة وهو يجر جسده المنهك، فجعل عنقه ينتصب ثم غَثَا بحبة من فاكهة الفوجي٣٨ وقال: أنت يا با - وامندي! خذ هذه الفاكهة وضعها في جرابك.

ثم خاطب بقية حيوانات الشيهم: كان لكم دائما رأيٌ سيئ عني. كنتم ترفضون أي نصيحة أقدمها لكم، وتعتبرونني مجرد غبي. لكن أن أكون دميماً وأن يكون لي جسد مشوه، لا يعني بأي حال من الأحوال أن ذلك دليل غباوة! إن هذه الحال الخارجية لن تستطيع طمس البَرَكة التي يودعها جينو داخل إنسان ما (*).

أنت يا با - وامندي، واصل حديثه، كلْ هذه الفاكهة بمجرد أن تشعر بالجوع، ثم احتفظ بنوياتها في جرابك. ستكون ذات فائدة لك في يوم صعب، وسيأتي هذا اليوم حتما ما دمت متوجها إلى ويلي - ويلي.

شكر با - وامندي القنفذ وغادر حيوانات الشّيهم بعد أن سامحهم بحِلم على ما بدر منهم من نية سيئة.

واصل طريقه إلى أن أدرك نهرا. كان هذا النهر قد امتد إلى

(*) يعتبر المشوه جسديا، بشكل عام، مسكونا بالعفاريت ومهورا بقوة خفية. ويُعتقَد أن التشوه الخلْقي يحدث بواسطة قوة سحرية. سنلاحظ، دائما تقريبا، أن حيوانا مسنا أو مريضا أو مشوها، هو الذي يسلم لبا - وامندي هدية قيمة. ويذكرنا هذا بحكاية كايدارا حيث يظهر الرب دائما لحمادي في شكل رجل مسن ضئيل عموده الفقري معوج. وسيبارك حمادي لأنه لم يحتقر من يبدو لأول وهلة ذا مظهر منفر. يجب تعلم تقدير ما يوجد مخفيا خلف المظهر؛ ومن أجل ذلك يقال إن بإمكاننا أن نجد في بركة صغيرة جوهرة لا نستطيع العثور عليها في المحيط. (أو كما يقال عندنا: يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر) المترجم.

أن شرع يغادر حدوده مهددا بإغراق جزء من السهل. كان قد أغرق سلفا جزءا من جُرفيه العاليين، متسببا في اقتلاع أشجار متعددة، ومتلفا ما يقع على حدوده من نباتات. كان فيضانه العاتي قد التهم جزءا من غابات الجُزر الصغيرة التي ما عاد يظهر منها سوى النصف. وبفعل ضربات الأمواج المتكررة، بدا زبد أبيض على شفتي الوادي (*) شبيه بالذي نراه، أحيانا، على الشفتين الجافتين لرجل عطشان، تكلم لمدة طويلة.

والحَقُّ أن هذا النهر كان يختلف عن كل أنهار الدنيا: اسمه نهر غايوبلي، النهر السحري للفولانيين (**). كان يصب في بحيرات شاسعة، وكانت به، في مواضِعَ، أعماقٌ كبيرة. كان كل جيب من جيوبه المائية يحتوي أنواعا لا تعد ولا تحصى من الأسماك، مختلفة الأشكال والأحجام. كانت الأسماك الكبيرة التي تعيش في المياه الأشد عمقا، تتغذى على الأسماك المتوسطة التي تقترب من أحجامها. وكانت هذه، بدورها، تأكل الأسماك الصغيرة التي تسبح فوقها؛ وهي أسماك سيووجي. كانت هذه

(*) شفتا النهر: الشاطئان.

غايوبلي (من غايو (هنا)، ومن بلي (بحيرات)؛ ويعني هذا الاسم أيضا النهر غامبي، الذي أطلق عليه فولانيو المنطقة اسم نهرهم الأسطوري... يعتبر المشوه جسديا، بشكل عام، مسكونا بالعفاريت وممهورا بقوة خفية. ويُعتقَد أن التشوه الخِلقي يحدث بواسطة قوة سحرية.

سنلاحظ، دائما تقريبا، أن حيوانا مسنا أو مريضا أو مشوها، هو الذي يسلم لبا - وامندي هدية قيمة. ويذكرنا هذا بحكاية كايدارا حيث يظهر الرب دائما لحمادي في شكل رجل مسن ضئيل عموده الفقري معوج. وسيبارك حمادي لأنه لم يحتقر من يبدو، لأول وهلة، ذا مظهر منفر. يجب تعلم تقدير ما يوجد مخفيا خلف المظهر؛ ومن أجل ذلك يقال إن في إمكاننا أن نجد في بركة صغيرة جوهرة لا نستطيع العثور عليها في المحيط (أو كما يقال عندنا: يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر) المترجم.

(**) غايوبلي (من غايو: «هنا»، ومن بلي: «بحيرات»)؛ ويعني هذا الإسم أيضا النهر غامبي، الذي أطلق عليه فولانيو المنطقة اسم نهرهم الأسطوري.

الأسماك الأخيرة، عندما يغيب القمر، أثناء فصل الشتاء، تغادر جيبها المائي وتصعد مع تيار النهر. كانت رحلتها تستمر إلى أن تدرك البحيرة المسماة بحيرة العُنَّاب. وثمة، كانت تستغل فرصة صعود المياه وما ينتج عن ذلك من فيضانات، كي تنتشر في السهل، فتعرف كل سمكة منها، بدقة متناهية، المكان الذي تضع فيه بيضها. وكان انحسار الماء يصادف تفريخ البيض، فتجد السمكات الوليدة نفسَها مَقُودَة إلى النهر، فتنزل مع مجراه منفصلة عن أمهاتها، ذاهبة كي تعيش حياتها الراشدة، ملتجئة كل واحدة منها إلى أحد جيوب الغايوبلي المائة والثلاثة عشر، مستقرة عند مستوى العمق الخاص بنوعها٣٩ .

دخل با - وامندي النهر السحري، محاولا اجتيازه سباحة بصحبة خروفه. كان نجودا، التمساح ذو الذيل القصير٤٠، القابع في مكان غير بعيد، قد لمح كوبو - نولو وسيده يسبحان في اتجاه الضفة المقابلة. ظن الزاحف الضخم، ذو الترس السميك، أن لديه الآن، قريبا من أسنانه، مؤونة أكل تكفيه لعدة أيام. ضغط فكيه بقوة، وجعل ما تبقى من ذيله ينتصب مستقيما، ثم ولج النهر. كان أنفه المنتصب على السطح يشق الماء كما يشق المقص الثوب. كان يَظْهَر شريطان أبيضان ينْشَقّان إثر مروره. تقدم بسرعة مصمما العزم على الإمساك بالخروف ذي العينين متعددتيْ الألوان، أو بمالكه الطائش، أو حتى، ولم لا، بهما معا.

سبح با - وامندي وخروفه مطمئنّيْن غير واعيين بالخطر المحدق بهما. وعندما أدركا الضفة المقابلة وشرعا يستعدان للخروج من الماء، التحق بهما الجارح المائي ذو الجلد الداكن

والأسنان التي في شكل منشار. فتح فمه على مصراعيه. وعلى الرغم من قصر ذيله، فقد قوسه وقذف به كي يأسر، بضربة واحدة، با - وامندي وخروفه؛ فلا يبقى له بعد ذلك سوى جرهما إلى المياه العميقة كي يخنقهما ويغرقهما.

ولو كان التمساح نجودا قد تنبأ بما سيؤول إليه فعلُه لما كان قد قام به البتة بكل ذلك التّسرع والتصميم. وبالفعل، فقد كان فرس النهر نجابو، يوجد قريبا من المكان. قذف التمساح بذيله بقوة، لكن بدلا من أن يقبض على با - وامندي وخروفه، وجد نفسه، في الهواء، بين فكي نجابو القويين. أطبق الحيوان البرمائي ذو القوائم الأربع، دفعة واحدة، فكيه الكبيرين الضخمين القويين مثل مصراعين من حديد، واللذين يسندان أسنانه، ثم أطلق حمحمة رهيبة، وهو يمسك بفريسته، مسرعا في الوصول إلى اليابسة. كان التمساح المسكين معلقا في فم فرس النهر مثل فاكهة باوياب مبتذلة، فبدا ذيله متدليا مثل عنقود.

خرج با - وامندي من النهر مرتعش الجسد. لقد أفلت هو وخروفه من موت محقق! أرْجح نجابو، فرسُ النهر، التمساحَ ثم قذف به إلى أبعد مدى ممكن. كان نجودا المسكين مقذوفا في الهواء مثل حجر قذفه مقلاع، عندما قطعت انقذافَه شجرةُ باوياب كانت موجودة على بعد أمتار من المكان، فظل معلقا بين أغصانها. عندما سقط على الشجرة، كان قد ارتطم بفاكهة باوياب فسقطت على الأرض مصدية مثل جرس. آنذاك صاح نجابو فرس النهر:

أنت يا با - وامندي! خذ الفاكهة التي سقطت لتوها وافتحها!

سارع با - وامندي إلى الفاكهة وفتحها بحجر. لم تكن الفاكهة تحوي، مثلما هو معتاد، خبز قرد، بل - ياللأعجوبة!

- كانت بها جمجمة. نعم، جمجمة؛ هي الجمجمة نفسها التي كان بويتورينغ قد وضعها في خانة مركز النجم، والتي كانت قد حكت وتنبأت!. صاح نجابو: أنت يا با - وامندي السعيد! لو كانت فاكهة أخرى، غير الباوياب، قد سقطت، لكان ذلك إشارة إلى موتك. خذ هذه الجمجمة وضعها في جرابك، فهي ستكون لك ذات نفع في يوم عويص. آنئذ اسألها وستكلمك كما سبق لها أن كلمت جدك بويتورينغ وابنه هيليري. سأل با - وامندي:

- ما الذي قمت به، حتى أستحق أن أفلت بهذه الطريقة من الخطر العظيم الذي كان محدقا بي؟ فلولا تدخلك، يا نجابو، لما كانت قد أخطأتني الأسنانُ المدببة لضاري المياه ذي الجلد الداكن!

أجاب نجابو، الذي كان في الحقيقة فرس نهرٍ أُمّ:

ذات يوم - قالت - وكنتُ أُرضع وليدا صغيرا، حصل لي أن ذهبت أبحث عن الكلأ في حقل أرز يوجد بقريتكم. كان صيادون يتربصون بي، مستعدين لقتلي، لكنك منعتهم، مذكرا إياهم بأن العرف يحظُر قتل أنثى مُرضع، ونبّهتَهم إلى أنني أنثى فرس نهر.

وقد رأيتك قبل قليل تلج النهر صحبة خروفك، وكنت أعلم أن الجشِعَ ذا الذيل القصير يسعى إلى الفتك بك، فكمنت في المكان المناسب، مما مكنني من أن أمسك بذيله قبل أن يمسك بك وبخروفك.

شكر با - وامندي بحرارة نجابو، فرس النهر الأم، ثم أخذ الجمجمة ووضعها في جرابه وواصل طريقه نحو ويلي - ويلي.

بعد نصف يوم من المشي، ولج با - وامندي سهلا صخريا حيث سيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. كانت بيضات عنكبوت، في هذا السهل، شارعة في سحق صخور! بمجرد أن تلمس بيضة صخرة، كان تستحيل الصخرة مجرد غبار. شرع با - وامندي، في قمة اندهاشه، يراقب هذه الظاهرة الغريبة. وبالفعل، ما الذي عساه يكون أكثر غرابة من أن يكون بيض العنكبوت - رمز الضعف والهشاشة - آخذا في سحق صخور (*)؟

قالت عنكبوت ضخمة سوداء ٤٢، معلقة إلى شجرة بخيط غير مرئي من صنعها، للمسافر: أنت أيها الرجل، من أين أتيت وما وجهتك؟

- قدمت من بلد هيلي ويويو، وأنا متوجه إلى ويلي - ويلي، البلدة السحرية لنجدو ديوال.

- وما الذي تبحث عنه في ويلي - ويلي؟

- أنا أبحث عن سيري؛ الرجل الطويل، الأصم، الأخرس، الأعور؛ أخ عبدو، الرجل القصير الأحدب، الأعور الأعرج، الأصدف.

(*) هذا المثال الجديد لقَلْب الظواهر (انظر الهامش ٢٤ من الملحق) يدل على أن با - وامندي قد ولج عالما لا يخضع للقوانين الطبيعية. نعثر في هذا العالم الآخَر على نار لا تحرق، وعلى ثلج يدفِئ... إلخ. إنه عالم «التساكنات المتوازية» حيث تنعدم قواعد الطبيعة (انظر الالتماعة. ص ٥٣).

يدل المشهد أيضا على أن شيئا هشا يمكنه أحيانا أن يبدو أقوى من شيء صلب المظهر. ويقال: «أمرٌ ما تافهٌ يحطم أحيانا مملكة».

- تـزوّدْ مـن بيضـي، قالـت العنكبوت، وخـذه معـك. ذات يوم صعب، ستصلح لك قدراتُه لقضاء أمر ما.

لـم يتـردد با - وامندي؛ أخـذ مجموعة من البيض ولفها ثم وضعها في جرابه.

هو الآن يحمل في جرابه سبعة أشياء غريبة:

فضـلات جـراد كان يرقـص رقصتـه الملغزة؛ وقطعـة من درع سـلحفاة تحتـوي بعـض التـراب الصلصالـي؛ وبعـض السـائل الجـاف المأخوذ من عيني كلب عجوز مريض مخلوط بكحل مر؛ وجوهـرة معجزة غاثت بها ضفدعـة؛ وحبة فاكهة فوجي صفراء ناضجة مهداة من قبل حيوان شـيهم مشـوه الجسـد؛ وجمجمة عاريـة أخرجت مـن حبة فاكهة باويـاب؛ وأخيرا بيضات مكسِّـرة للصخور مهداةٌ من قبل عنكبوت أم.

أجل، تلك هي الأشـياء السبعة المفارقة للعادة التي توجد في الجراب الضخم لبا - وامندي المعلق إلى كتفه.

واصل با - وامندي طريقه، فأفضى به المسـير إلى سهل شبيه بغابة شاسعة؛ لكن بدلا من أن تكون هذه الغابة مملوءة بالأشجار، كانت تنبت فيها مسـامير صخرية دقيقة ومسـننة مثل إبر تبدو كأنهـا تريـد أن تخترق السـحاب. وعلى كل قمـة، كان يَثبت على سـاق واحدة، طيرُ بلشـون وهو يتفحص الأفق متفكرا. كان لون بعـض الطيور رماديا ولون بعضها الآخـر أرجوانيا، في حين كان بعضها أبيض ناصعا. وكانت الريشـات التي تزين رؤوسها ملساء مثـل الحريـر وتلمع مثل جواهر نفيسـة. وكانـت معلقة إلى كل زغبة من حوصلتها أو جانبِها جوهرةٌ تصلح لأن تكون مهر ملكة.

عندمــا رأت طيــورُ البلشــون٤٣ بــا - وامنــدي شــرعت تُحرك أجنحتها وتصيح:

- أهلا يا با - وامندي! أهلا أهلا ثم أهلا ببا - وامندي، سائق الخروف كوبو. لكن يا با - وامندي إلى أين أنت ذاهب هكذا؟

- أنت يا طيور البلشــون، في قرية طيور البلشــون! أجاب با - وامندي، أنا ذاهب إلى ويلي - ويلي، بلدة نجدو ديوال.

- أنــت إذن، يــا بــا - وامنــدي، قالت الطيور الأنيقــة متعجبة، متوجــه إلى حتفك؛ فنجدو ديــوال تحيا بدم الفتيان، وأنت الآن لست بعيدا عن هدفك.

غير بعيد عن المكان، كانت بعض طيور اللقلق٤٤، سوداء اللون، بطونها بيضاء، واقفة على بعض المســامير الصخرية وهي تُلقِم أفاعــيَ وفئرانــا صغارَها ذات الزغب الشــبيه بقــذى قَشّ. عندما ســمعت اللقالــق بــا - وامنــدي يصرح بأنــه متوجه إلــى ويلي - ويلي، صفقت بمناقيرها: ما الذي حصل لك، إذن، في حنجرتك وجعلك تشتهي الموت؟ إن ذهابك عند نجدو ديوال الشريرة يعني أنك ذاهب إلى حتفك المحقق!

اكتفــى بــا - وامندي بأن أجابها: أنت يــا طيور اللقلق، يا فأل الخيــر! دلنــي على مكان ويلــي - ويلي؛ أما ما عــدا ذلك، فلتكن إرادة جينو!

- توجــد ويلــي - ويلــي خلــف جبل ليــس ببعيد عن هــا هنا، أجابــت الطيــور ذات المناقيــر الطويلــة؛ لكــن ذلك الجبــل الذي تلامــس قمته الســحاب، هو جــدار غير قابل للعبــور. ثم، عندما تصــل إلى ســفحه، ابحــث في جرابــك واستشــر الجمجمة التي

سبق لأجدادك أن استشاروها. هي ستخبرك بما عليك القيام به كي تنتصر على ذلك الحاجز!

شكر با - وامندي بحرارة طيور اللقلق وواصل طريقه. وبعد سويعات من المشي السهل، وجد نفسه فجأة على قدم الجبل الجدار. آنذاك أخرج من جرابه الجمجمة المتكلمة ورجاها:

أنت أيتها الجمجمة، يا مستشارة أجدادي! أستحلفك باسم شجرة الباوياب التي التجأتِ إلى فاكهتها، خبريني بما عليّ القيام به كي أخترق هذا الجدار ذا الصخور السميكة.

- ابحث عن حطب شجرة الفوجي، أجابت الجمجمة، ثم أشعل فيه النار. وعندما تحصل على جمرات متقدة، ضعها في قطعة درع السلحفاة وصب فيها فضلات الجراد، ثم أحرق الكل، وسترى ما سترى!

انطلق با - وامندي باحثا عن حطب شجرة الفوجي. عثر بسرعة على بقية جذع من هذه الشجرة محاطا ببعض الغصون الجافة. كسرها وجمعها ثم أضرم النار في الحطب الجاف. وفي وقت وجيز حصل على الجمرات الضرورية.

فتح جرابه وأخرج قطعة درع السلحفاة وفضلات الجراد. وضع الجمرات المتقدة في قطعة الدرع وقذف فيها بالفضلات الجافة التي سرعان ما التهبت. انبثق منها دخان مُبيضّ صعد مستقيما في الجو، وشرع يتكثف ويصْلب ويستدير من طرفيه مثل قضيب معدني.

شرع هذا القضيب العجيب يضرب بعنف الجدار الصخري. وبعد ضربيات متكررة، فتحت في الجبل كوة على قدر من السعة

تكفـي لمـرور با - وامنـدي وخروفـه، فدلفا فيها علـى الفور. كان الممـر التحت - أرضـي المفتوح، طويلا ومعتّمـا، تطلب عبوره من قبل المسافرَيْن وقتا وجهدا.

عندمـا أدرك با - وامنـدي هدفه، وبمجرد خروجه من النفق، رأى أمامه مدينة ويلي - ويلي تمتد من الشرق إلى الغرب. كانت مـن الشسـاعة بحيث لـم يسـتطع أن يلمح طرفيها، ولـم يُدرِك كيف حُمل، في طرفة عين، إلى شارع كبير من البلدة!

ومـن عجـب أنه لم يـر أو يلمح، على الرغم مـن وجود المنازل ذات الطابق، أي علامة على وجود حياة أو حضور إنسانيّ. واصل مشـيه، مـن دون أن تكـون لـه وجهة محـددة. بعـد أن تجول لمدة طويلـة، انتهـى بأن وصل إلى ما بدا أنه سـاحة سـوق. لكن، بدلا مـن أن يـرى، كما هـو طبيـعي، جمـعا من البائعين الشّـارين، لم ير إلا حيوانات؛ وأكثر من ذلك، حيوانات تقوم بأشغال غريبة تماما: كانت كلاب تعرض، في بهو كبير، ذرّة بيضاء تحملها قرود؛ وفـي مكان آخـر، كانت إناث قرود تقدم حليـب جاموس لخنازير؛ وتيـوس نتنة تحـدّث بصـوت مرتفع طيـورا عملاقة؛ وسـلاحف تحدث همسا فهودا.

وأبعـد، كان حمـار يقف في معمل حدادة وهو يصنع مجرفات ومديات ومسامير وإبرا. وكان قنفذ ينفخ في الكير. كان الحمار، الذي يسـتعمل فمه للإمسـاك بالأدوات التي يضرب بها الحديد ساخنا وباردا، يطلق، قبل أية عملية نهيقا خاصّا.

ظل با - وامندي مندهشا حائرا فيما عليه أن يفعله أمام كل هـذه الأمـور التي يفوق بعضهـا بعـضا غـرابة. قـال في نفسـه:

من المؤكد، أن الأمر يتعلق هنا بكائنات متحولة مسحورة! حينئذ تذكر، فجأة، التحالف الموجود بين الفولانيين والحدادين٤٥ فتوجه رأسا إلى مَشْغل الحمار، وخاطبه قائلا:

(نهارك سعيد أيها الحداد ذو الأذنين الطويلتين، والذي يحرك أدواته بفكيه!

- نهارك سعيد، يا مُخْتَال الفولانيين! أجاب الحمار. أنا أراهن على أنك، بدلا من أن تجد نفسك أنت مثيرا للسخرية، تعتقد أنني أنا المثير للسخرية. وفضلا عن ذلك، ما الذي تفعله هنا أنت وخروفك؟

- هو ليس لك، أجاب با - وامندي. أنا ذاهب به إلى شخص يوجد هنا بهذه المدينة، لكنني لا أعرف مكانه على وجه التحديد. إن استطعت أن تقدم لي معلومات في هذا الشأن، ستكون أرواح أجدادي وأجدادك راضية عنك، لأن فعلك ذاك سيكون ربما ذا جدوى بالنسبة إليك وبالنسبة لكل هذه الكائنات التي أراها هنا متحولة بشكل غريب.

- إذن، أمسك نفسك جيدا؛ فأنا سأصدر ريحا ستحملك أنت وخروفك إلى مكان سترى فيه ما ستري.

أمسك با - وامندي بقوة بحبل خروفه. أصدر الحمار صوتا عظيما مُرْعِدا. كانت النفخة من القوة بحيث ارتفع رفيقانا وقُذف بهما بعيدا. سقطا على كومة فلفل انسحقت حباته من وقع الارتطام، فارتفع غبار دقيق واجتاح با - وامندي فوخز عينيه وأنفه بشكل مؤلم. سالت دموعه بغزارة. أراد، مُعَمّى، أن يمسح عينيه بظهر كفه فأفلت منه حبل كوبو، وفر الخروف على

الفور مسارعا إلى طريق وهو يطلق غثاء عاليا.

عندما وصل با - وامندي إلى الطريق، لاحظ أن الخروف قد اختفى. وعندما سمع، بعيدا، غثاء الحيوان، انطلق يعدو في الطريق مرهفا السمع وهو ينظر يمينا وشمالا، متوقفا بين الفينة والأخرى كي يحدد وجهته بدقة. عندما أدرك تشعبا من طريقين، لم يعرف أيهما يسلك، لأنه ما عاد يسمع صوت الخروف. حينئذ ردد عبارة الفولانيين: «ديالينغا - ديالينغا» (*). دلته آخر كلمة على طريق اليمين، فانطلق فيها من دون تردد. بعد مسافة، عثر على الحيوان مشغولا تماما بحك جزته.

بالموازاة مع حك الحيوان لجزته الصوفية، كانت تنبعث شرارات وتحط على نوع من بهو معدني هو مدخل لبناية لا علم لأحد بوجودها. اقترب با - وامندي من الخروف. في تلك اللحظة مرق كائن غريب يعتمر رأسا آدميا على جذع شجرة كايلسدرا. وكانت تحمله قائمتان عظيمتان لنعامة. خاطب هذا الكائن الإنساني النباتي الحيواني٤٦ با - وامندي:

أنت أيها الرجل، يا سيىء الحظ! ما الذي قادك إلى هذا المكان المحظور على كل كائن حي، تحت طائلة موت عنيف؟ لو علمت نجدو ديوال بوجودك هنا لبعثت لك بجلادها كي يخصيك ويعلقك من ساقيك ويمزق لحمك إربا إربا، قبل أن يقطع رأسك! إن أردت أن تتجنب هذا المصير المشؤوم، سلمني خروفك.

(*) كانت في الأصل صيغة سحرية يتم ترديدها للعثور على الطريق. فبمجرد نطق اللفظة الأخيرة نعرف أي طريق نسلك. أما اليوم فتستعمل الصيغة، بالخصوص، في لعب الأطفال.

وبدلا من أن ينفذ با - وامندي ما أُمر به، سأل هذا الكائن الغريب عن اسم هذا المكان الذي يوجدان فيه وعن أية غرفة يقود إليها هذا البهو المعدني.

البهو، أجاب الكائن الهجين، يفضي إلى غرفة تحبس فيها نجدو ديوال أعداءها ومن يرفض أن يكون في خدمتها.

- أنا أشكرك على معلومتك، أجاب با - وامندي. أما بالنسبة إلى الخروف الذي طلبته مني، فإنه لا يمكنني أن أسلمه لك لأنه ليس في ملكيتي. لقد كُلفت بأخذه إلى ويلي - ويلي كي أسلمه إلى سيري الأصم، الأعور، الأخرس، الذي يوجد محبوسا بها. والحال، أنك، على ما يبدو، بعيد كل البعد عن أن تكون هذا الرجل.

- بالفعل، أجاب الرجل - النباتي - الحيواني. فأنا لست لا سيري ولا عبدو الذي يصغره سنا، الرجل الأحدب، الأعور، الأعرج، الأصدف. وفجأة، ومن دون أن يضيف كلمة واحدة، اختفى.

أثناء ذلك، واصل الخروف حك جزته. وكانت الشرارات التي تنبعث منه تحط مجتمعة على باب البهو. انتهت بأن أذابت القفل، لكن المصراع ظل مغلقا. كان المصراع من الثقل بحيث لا تفلح ثلاثة فيلة في فتحه. ولكن، وعلى شاكلة كبش يستعد للنطح، تقهقر كوبو - نولو، ثم انقذف على المصراع الذي انفتح بشكل مُعْجز، فولج الخروف البهو متبوعا ببا - وامندي.

كان البهو يفضي إلى ساحة مزروعة بمسامير مسنّنة تغطي الأرض بكثافة مثل شوك على ظهر قنفذ. صدر صوت:

يا ويل من فتح لتوه باب البهو لولوج الساحة المحظورة!

في اللحظة نفسها دوّى صوت شبيه في قوته بهزيم رعد، فأصمّ با - وامندي. ثم اختفى خروفه وكأنه بفعل السحر. شعر من جديد بالضيق. ما العمل؟ ماذا يقول؟ إلى أين يتوجه؟ بمجرد وضعه للسؤال، أظلمت السماء فوقه. بزغ فيها وميض، متبوعا بهزيم رعد كان من القوة بحيث جعل الأرض تميد، فاغشي على با - وامندي.

أحس، وهو نصف فاقد لوعيه، أنهم يحملونه ويضعونه على الأرض. شيء ما لعق ذراعه. فتح عينه قليلا. كان كوبو - نولو، وقد بدا من جديد، بشكل معجز، وهو يوقظه بتلك الطريقة اللطيفة (*).

رأى أنه قد وُضع على مدخل عش حشرةِ أرضةِ ضخم، مصنوع من طين أصفر فاقع، نحتت عليه تضاريس عملاقة تنتهي بنوع من القباب الشبيهة بتلك التي نراها على قمم منازل أو فوق بعض التلال. أدارت الملكة ظهرها لبا - وامندي، مبرزة له بطنها الضخم الشبيه بسلحفاة عملاقة من الوادي المالح. أما الملك، الذي كان رأسه أضخم من رأس فيل صغير، فقد وقف في وجه با - وامندي. وفي رمشة عين، ومن دون أن يعرف أحد كيف حصل ذلك، ازدردت الأرضتان العملاقتان الخروف كوبو - نولو، دون أن تتركا له أثرا. بعد ذلك تجشأتا، كما يفعل البعض بعد وجبة طيبة.

(*) أغشي على با - وامندي قبل أن يصل أمام عش الأرضة حيث سيعثر على سيري، وهو ما يمثل أول وأكبر مرحلة من بحثه. بمعنى آخر، فإنه يفقد الوعي الخاص بعالمه الاعتيادي. إنه عبور إلى مستوى آخر من الوعي؛ تغيير في المسار، أو هو موت صغير. أما الوعي، من جهته، فقد استُعيد بحركة من الخروف المُعجز، أي بواسطة عونٍ من القوى العلوية المجسدة في هذا الحيوان المبارك.

خرجت الأرضات - العاملات، اللاتي يوازي حجم كل واحدة منها جسم تمساح ضخم، من مسكنها مهتاجة، باحثة عن مكان تختبئ فيه. شرعت كل واحدة منها تحفر ثقبا في الأرض، على الرغم من صياح الملك والملكة، وهما يأمرانها بالبقاء حيث هي. انتهت كل الأرضات بأن اختفت تحت الأرض.

انقذفت الملكة، فجأة، على ذكرها والتهمته ثم عدت في اتجاه عش الأرضات للاحتماء به. لكن العش انهدم على نفسه كما لو كان بفعل سقوط مطر متواصل، فانكشف سيري؛ الرجل الأصم، الأخرس، الأعور للعيان، واقفا وسط العش. لاحظ با - وامندي أن سيري لم يكن أعور، أصم، أخرس فقط، بل كان أيضا أحدب من خلف ومن أمام. كان عنقه مغلولا وأطرافه مثقلة بسلاسل مربوطة إلى جذع شجرة كايلسدرا. وجسده مكسوا بحروق وجروح يقتات منها دود.

اقتربت ملكة الأرضات من سيري. وقالت : سلامتي رهينة بك أنت؛ أنت وحدك. إن سيدتنا نجدو ديوال؛ الساحرة العظمى، ذات العينين الحمراوين الشبيهتين بشمس المغيب، هي التي أمرتنا، زوجي ورفقائي وأنا، أن نثقلك بالحديد، وأن نبني مسكننا حول جسدك حتى لا يستطيع أحد تخليصك. بعد ذلك، عمدت إلى إحاطة عشنا بسور عالٍ وأملس، لا تستطيع حتى عظاية أن تتسلقه دون أن تنزلق وتسقط على الأرض. لم نجعل لهذا السور سوى مدخل واحد: بهو معدني مغلق بشكل سحري، بواسطة باب مصراعه من السمك والثقل بحيث لا تستطيع حتى صاعقة أن تخترقه.

سألها سيري - الذي تخلص من صممه وخرسه، وكأنه بفعل السحر، منذ أن ولج الخروف كوبو - نولو داخل السور:

- لماذا تحبسني نجدو ديوال وتعاملني بكل هذا السوء ليلا ونهارا بضربي بالسوط وبالحديد الأحمر؟

- أنت تملك سرا قاتلا بالنسبة إليها، أجابت الملكة. والحال أنها لم تستطع لا أن تجرّدك منه ولا أن تجعلك تقبل أن تصبح حليفها كي تساعدها على تجويد عملها المتمثل في تخريب بلد هيلي ويويو وإبادة سكانه عن طريق النار والماء والهواء والجفاف. كل ما كانت تقدر عليه هو أن تحبسك كما فعلت.

إن حريتك تعني نهايتها. لقد فُتح البهو بأعجوبة، ولا أدري من فتحه. لقد أزفت ساعة سراحك؛ فمن المأثور أن سراحك سيحصل عندما يختفي خدمي في الأرض وعندما ألتهم زوجي، بعد أن نكون معا، هو وأنا، قد ازدردنا كوبو - نولو. أنا لا أعرف من أدخل كوبو - نولو إلى مسكننا، ولا كيف تم ذلك. ومهما يكن الأمر، فنحن نوجد الآن أمام واقع قائم. والآن، عليّ، كي أحافظ على سلامتي، أن أعثر على مخبأ آمن.

أشفق سيري على ملكة الأرضات. لم يكتف بأن سامحها، بل نسي أيضا، في اللحظة نفسها، كل الآلام التي قاساها بسببها(*).

(*) لأبطال الحكاية؛ با - وامندي وسيري وباغوماويل، دائما، مواقفُ نبل وكرم وتسامح وشفقة تجاه كل المخلوقات الحية، حتى الشريرة منها؛ مما يكون مقابله، كأن الأمر يتعلق بجزاء، أن يحظوا دائما بعون غير منتظر في اللحظات الأكثر حرجا. ففي الموروث الفولاني، يحظى التسامح بتقدير كبير؛ إذ تتم مسامحة حتى من يقترف أكبر أذية. أما الانتقام فيعتبر رد فعل مؤسفا. ويقال بأن الرجل الذي يستطيع التحكم في نفسه لا ينتقم. لا يعتبر الانتقام في التعاليم الأفريقية أمرا مرغوبا فيه ولا ذا قيمة. يترك للإنسان حق الانتقام إن تعرض لأذى، لكنه يكون مستحسنا أن يصفح، وإن لم يسامح، فإنه، أيضا، لا يؤاخَذُ بشيء.

ما الذي عليّ أن أفعله كي أجنبك انتقام نجدو ديوال؟ سألها.

- اضغط سبع مرات على بطني بالأصابع الثلاث الأولى ليدك اليسرى، محتفظا بالأصبعين الآخرين مثنيتين. أجابت.

نفذ سيري من دون تردّد. انفجر بطن الملكة على الفور، بفعل ضغط أصابعه، مثل دمّل. خرجت منه سحابتان عظيمتان، إحداهما داكنة وكثيفة مثل الليل، والأخرى منيرة وخفيفة مثل النور. ارتفعتا معا في الفضاء. التحقت الأولى بالليل فضاعفت عتمته والتحقت الثانية بالنهار فضاعفت وضوحه.

ذابت السلاسل والأغلال التي كانت تقيد سيري كما تذوب الزبدة بفعل حرارة الشمس. في لمح البصر، تخلص ليس فقط من قيوده، بل شفي أيضا بأعجوبة من جروحه وعاهاته. فهذه الأخيرة لم تكن ناتجة، بالفعل، كما هو الشأن أيضا بالنسبة إلى أخيه عبدو، إلا عن سحر نجدو ديوال، وقد بطل هذا السحر الآن.

بمجرد أن استعاد سيري عافيته وشكله العادي، بدا رجلا حسن الهيئة قويا مثل ثور.

عندما رأى با - وامندي أمامه، خاطبه قائلا:

- هيه يا با - وامندي! لقد انتظرتك سبع سنوات. عند كل مشرق شمس، كنت آمل أن أراك قادما رفقة الخروف كوبو. وعند نهاية كل يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، كنت أزداد فقدا للأمل. لكن، أن يحصل الأمر متأخرا خير من ألا يحصل أبدا (*). أنت الآن هنا، وهأنذا متحرر، ليس فقط من سجني، بل أيضا من عاهاتي.

(*) مما يعني حرفيا: «أن يدوم ذلك زمنا طويلا أحسنُ من أن لا يحدث أبدا».

عندما تلفظ بتلك الكلمات انتفض بقوة وتمطى مثل رجل أفاق لتوه من نوم طويل وثقيل، ثم واصل قائلا:

لنغادر هذا المكان فورا، فنجدو ديوال لن تتأخر في معرفة ما حصل. والحال أن ما حصل يعتبر علامة شؤم بالنسبة إلى سلطتها.

مرحلة جديدة نحو المجهول.

غادر سيري وبا - وامندي المكان عدوا. وبمجرد خروجهما إلى الطريق، اقتلع سيري زغبتين من إبطيه الأيسر والأيمن، فعقد إحداهما إلى الأخرى ونفخ فيهما، فتحولتا إلى أفعى يبلغ طولها أربع عشرة ذراعا؛ ضخمة مثل جذع شجرة باوباب.

امتط يا با - وامندي هذه الأفعى، واضرب جانبيها بعقبيك. سينبت لها جناحان وستحلق في الهواء٤٧ وستكون أسرع من البرق. لا يرهبَنَّك الضجيج الذي ستسمعه خلفك ولا تلتفت، بأي حال من الأحوال، لترى ما يحدث من ورائك. وإن حصل أن لمسك شيء وبدا لك أنه على وشك الإمساك بك، لا تخف، وبالخصوص، أكرر لك، لا تلتفت بأي حال من الأحوال! فللأمر علاقة بسلامتك!

امتطى با - وامندي الأفعى العظيمة ووخزها بعقبيه كما يخز الفارس مطيته بالمهماز. وعلى الفور، حلقت الزاحفة الضخمة في الأجواء مثل طير، فابتعدت في السماء براكبها (*).

(*) أن يأخذ با - وامندي الأجواء، لأول مرة، وفوق ذلك، ممتطيا حيوانا ذا درجة تلقينية عالية وذا قوى خفية كبرى، معناه أنه، هنا أيضا، يكون قد غير مساره؛ بمعنى آخر، قد غيَّر من مستوى وعيه؛ ومن ثمة أهمية النصيحة التي وجهت إليه بأن لا يستسلم أبدا للخوف وألا ينظر البتة «إلى الخلف»، وألا يعود إلى السقوط في ردود الأفعال التي تنتمي إلى مستواه الاعتيادي. فهذه مرحلة مهمة من بحثه، ويعتبر ذا دلالة أن تعرب نجدو ديوال عن ضيق، بالتحديد في هذه اللحظة وليس عندما أطلق سراح سيري.

في الآن نفسه، استولى ضيق رهيب على نجدو ديوال في مسكنها. بدا لها الجو ثقيلا بشكل غير عادٍ، وصارت تتنفس بصعوبة وضاق صدرها. شرعت تتقلب في فراشها وهي تشعر بأن أمرا ما يحدث بالبهو المعدني. وكي تتأكد من إحساسها أرسلت جنّيا من خدمها كي يتأكد إن كان كل شيء على ما يرام في عين المكان.

عندما وصل الجني الخادم إلى المكان، وجد باب البهو مواربا. دخل فلاحظ اختفاء عش الأرضة الأصفر الفاقع. وعندما رأى ما رأى، امتلأ بطنه بالرغبة في الإخبار(*). أخذ طريق العودة مسرعا وهو يخاف أن يتمزق بطنه المترع(**) وأن تفر المعلومات الموجودة به. لكن، وللأسف، على الرغم من الاحتياطات التي اتخذها، تمزق بطنه فانتثرت الأخبار على الأرض. جمعها بسرعة وأعادها إلى بطنه، ثم خاط التمزق. تمزق بطنه سبع مرات على الطريق التي تصل البهو المعدني بمسكن نجدو ديوال، وسبع مرات خاطها. عندما وصل أخيرا، ووقف أمام نجدو ديوال، شرع يتلعثم من الخوف: نج...نج... نجدو ديوال! لقد وجدت البهو مفتوحا. عش الأرضة اختفى وغاصت المسامير في الأرض مثل مخالب سنوري في حالة هدوء.

(*) يُستعمل، باستمرار، في الكلام الأفريقي، اسم «بطن» في مكان «رأس». لا يقال: «له هذا الأمر في رأسه» وإنما «له هذا الأمر في بطنه». يعتبر البطن نوعا من الذهن أو نوعا من مكان للقوى الأساسية. تعتبر تلك المغارة الأساسية الكبرى ملغزة إلى درجة أنها تحوي الأحشاء السبعة: البنكرياس والكبد والقلب والأمعاء والمعدة والكليتين والطحال.

(**) عبارة استعارية تشير إلى الخوف الذي يساور حامل الخبر من أن يسبقه آخر ويكشف السر.

عندما سـمعت نجدو ديوال هذا الخبر، أطلقت سبع صرخات مدويـة. اجتاحـت حرارة مفاجئة كل جسـدها. بلل عرق سـاخن وجههـا. لم تسـتطع البقاء حيث هي، فاعتملـت وتململت، وبلغ بها الأمر أن لطخت ثيابها. وعندما عاودها بعض هدوئها، نادت سبعة عفاريت من خدمها الخدومين، وقالت لهم:

اذهبـوا علـى الفـور لتـروا ما الـذي يحـدث بالبهـو المعدني. إن عثـرتم بالمكان على سـيري الأصم الأبكم الأعور، أمسـكوا به واقطعوا رأسـه بهذا السيف. ثم سـلمت رئيس العفاريت السبعة حساما صُنعت شفرتُه من المزج بين سبعة معادن.

وقبل تصفية سيري، أضافت، اذهبوا وافتحوا الفوهات السبع للجبـال السـبعة التي تحيـط بويلي - ويلـي. مُـرُوا الجبال بأن تتقيأ النّار من أحشـائها، ولْيلتَهِم اللّهب سحب السماء ولتحرق كل شـيء علـى الأرض، بما في ذلـك ذرات الرمل، وليسـتحل كل شـيء رمـادا! لتقـض النـار علـى كل مظهـر من مظاهـر الحياة وليُحبـس كل تنفس، حتى لا يبقى شـيءٌ ثابتـا على قاعدته ولا في حالته الطبيعية. هيا!

انطلـق العفاريت مثل سـهام، مسـتعدين لتنفيذ أوامر نجدو ديـوال. وعندمـا أدركوا البهو المعدني، شـرعوا يبحثـون بعيونهم عـن سـيري، لكنهم لم يعثـروا عليه. (ربما يكون سـيري، خاطب العفاريـت بعضهـم بعضا، مختفيا فـي زاوية ما مـن البهو. هيا لنتأكد من الأمر).

سـار العفاريـت مصطفـين واقتربـوا، محاذريـن، مـن البهـو، متردديـن فـي ولوجـه علـى الرغـم مـن أن المصـراع كان مواريا.

كان العفاريت يتشاورون فيما بينهم عندما مرق سيري، فجأة، خلفهم. أمرهم سيري، في شكل تعزيم: ادخلوا البهو رغم أنفكم! تلك هي إرادة جينو (*).

شعر العفاريت السبعة بذواتهم تُجْلَب كما لو كان بفعل مغناطيس. وعلى الرغم من مقاومتهم، وجدوا أنفسهم يسارعون إلى داخل البهو. التهبت القاعة على الفور فقضت العفاريت السبعة في النار. انغلق الباب الثقيل بأعجوبة واختفى البهو مع الأسوار تحت الأرض.

آنذاك، لم يكن با - وامندي ومطيته الطائرة، قد أصبحا سوى نقطة سوداء صغيرة على الأفق.

استشعرت نجدو ديوال ما حصل لتوه. انتفضت واقفة معتملة مثل نار أدغال عظيمة وتلفظت بسبع كلمات سحرية. احمرت السماء، على الفور، كأنها قد طليت بالدم، وتعتمت الشمس وتخلت عن موقعها مقتربة من الأرض، صابّة عليها حرارة جحيمية.

استقدمت طيرا ضخما؛ قال البعض إنّه طائر صائد طيور، يمتاز بقوة عظيمة أو عقاب صائد سمك. وقال آخرون إن الأمر يتعلق بعقاب أعالي الجبال الذي لا ينزل إلى السهل إلا في النادر. عملت نجدو ديوال على تثبيت كرسي على ظهر الطير العملاق، واقتعدته بشكل مريح.

أمرت حارسها ضارب الطبل بأن يقرع طبله المغشى بجلد آدمي. وبالموازاة مع انتشار صوت الطبل في الفضاء، كانت

(*) تدل هذه الكلمات على أن سيري، بدوره، ساحر كبير، لكنه، عكس نجدو ديوال، يتصرف باسم جينو، وفقط في الخير. وهذا يجعلنا نفهم أكثر لماذا أخذته نجدو ديوال أسيرا.

الحيوانـات الأكثـر افتراسـا علـى الأرض تغـادر أعشاشـها أو جحورها كي تنطلق في تنفيذ مهمتها المتعلقة بملاحقة سـيري ويـا - وامندي. كانت نجدو ديوال قد علمت، بالفعل، أن الخروف كوبـو - نولـو قد اسـتقدم من طرف بـا - وامندي.قالـت: عليكم أن تمسـكوا بهذين الرجلين، مهما يكن الثمن، صرخت. وإلا فإن هذه نهاية حكمي!

وقبـل أن تنطلـق نجدو ديوال، حرصت على أن تسـتقر بناتُها على أغصان كثيفة لشجرة كايسيدرا عملاقة، محاطة بأجمة من شجر السنط (*). بعد ذلك، أمرت طيرها أن ينطلق في الأجواء.

كان سـيري - بعـد أن حضـر وفاة العفاريت السـبعة وشـاهد اختفـاء الجدار والبهو تحت الأرض - قد تلفظ ببعض الكلمات السـحرية. ومباشـرة بعـد ذلك، عاد كوبـو - نولو، الـذي كان قد التهم، كما نتذكر، في رمشة عين، من طرف ملكة وملك حشرات الأرضة، للوجود، باديا أمام سـيري، لكن في شـكل أكبر من قبل. كان فـي حجـم فـرس أصيلـة (**). امتطاها سـيري وانطلقا في الاتجـاه الذي أخذه بـا - وامنـدي، ممتطيا الأفعى المجنّحة، وهو يقطع الأجواء.

انطلقـت نجـدو ديـوال فـي ملاحقـة بـا - وامنـدي. وبما أن مَرْكوبَهـا كان ذا سـرعة خارقـة، فإنه سـرعان ما لحق به. سـعلت نجـدو ديـوال مـرات متعددة، فخرج من خياشـيمها علـى الفور،

(*) رمز للحماية الكاملة. فالكايلسـيدرا هي بالفعل أشـجار عملاقة وشجر السنط له أشواك تصبح موانع يستحيل تجاوزها.

(**) بعد موت كوبو المؤقت، يعود إلى الانبعاث أكبر حجما. فباقتحام حالة المطية (وهي مرحلة جديدة)، يصبح الخروف المبارك مساعدا ثمينا لصديقه.

سرب دبابير ونحل. أمرتها أن تذهب وتخز الأفعى الطائرة إلى أن تؤدي التواءاتها إلى سقوط راكبها، ثم أن تنزل لتخز سيري الذي سيكون في مكان غير بعيد عن المكان الذي سيسقط فيه با - وامندي.

حلقت الحشرات في السماء مسلحة بشوكاتها. كانت من الكثرة بحيث حجبت الشمس وعتمت السماء. طاردت با - وامندي، لكنه كان يختفي باستمرار خلف سحب شبيهة بجبال، بعضها أسود مثل الحديد وبعضها الآخر أبيض مثل حُزَم القطن.

كان طير نجدو ديوال يطفو على الأجواء مثلما يطفو مركب على الماء. وكان أحيانا يعلو إلى أن يبدو كأنه يلامس السحب، وأحايين أخرى ينزل أسفل فيبدو كأنه يريد أن يكنس الأرض.

أما سيدته ذات العينين الحمراوين، فكان شعرها أشعث مثل نبات متوحش، وأظافرها مسننة مثل رماح، وعقباها سميكين مثل مطرقتي حداد، وذراعاها قاطعين مثل سيفين، وفمها ضخما مثل مغارة، وأسنانها كبيرة مثل أسنان فرس نهر. أما ملابسها فكانت معدنية.

كانت الدبابير والنحل قد لحقت ببا - وامندي. أحاطت به متحفزة لوخزه هو ومطيته. تلا سيري، الذي كان يراقب المشهد عن بعد، بعض الكلمات السحرية. نتج عن كلماته دخان في شكل زوبعة سرعان ما ارتفع في السماء. غشى الدخان الحشرات الطائرة، ثم تحول إلى نار ملتهبة أحرقت أجنحتها. عندما فقدت حاملات الشوكات هذه أجنحتَها، أصبحت مثل

دودات ضخمة عديمة المهارة، فشرعت تسقط على الأرض مثل حبات برد مبتذلة.

عندما حصل اليقين لدى نجدو ديوال بأن جيش حشراتها قد نجح في التنكيل ببا - وامندي، همزت طيرها منطلقة نحو الأرض لمهاجمة سيري. لمحته ممتطيا كوبو. فهمت على الفور، بغريزتها، أن سيري قد أنقذ لتوه با - وامندي. انطلقت نحوه، لكن سيري هرع نحو جبل في الأفق. عندما وصل إليه عزم عليه فانفتح والتجأ إليه مع مطيته. ظلت الفتحة موارية، فدلفت منها نجدو وطيرها. انغلقت ضفتا الفتحة على الفور فضغطتا على الطير. عَصَرَتَاهُ بقوة إلى أن باض بيضة. تكسرت البيضة فخرج منها جمعُ نملٍ، كل نملة منه مسلحة بأسنان حديدية قوية ماضية مثل مقص حدَّاد (*). انطلق النمل نحو الجبل. في رمشة عين قرضه عن آخره. استحالت كومة الصخور الضخمة مجرد مسحوق حجر، فاندك إلى أن أصبح مثل سهل رملي.

كانت نجدو ديوال قد مكّنت النّمل، بطريقة سحرية، من تحطيم الجبل الذي فتحه سيري، هو الآخر، بطريقة لا تقل سحرية عن طريقة نجدو ديوال. وعندما لم تسمع نجدو أو ترَ شيئا يشير إلى وجود سيري، اعتقدت أنه قد دفن تحت الرمال. امتطت طيرها الذي تخلص من ضغط الضفتين، فانطلقت لمطاردة با - وامندي، باحثة عن أثره بين السماء والأرض.

مسحت بعينيها كل الجهات، لكنها لم تر شيئا؛ لم تلمح ولو نقطة صغيرة في السماء؛ لم يبد لها أي أثر! صرخت بعنف،

(*) مقص حداد بسمك حديدي ينتهي بشفرة قاطعة قادرة على قطع المعدن.

غاضبــة، معرية عن ألمها، زاعقة بخيبة أملها. والحال، أن صرخة نجـدو ديوال كانت بقـوة هزيم الرعد؛ كل الكائنات التي سـمعت صرختهـا ظنت أن السـمـاء تُـدوّي بقوةٍ زلزلـت الصخور وأمادت الأرض. وبالفعـل، شـرعت الأرض تهتـز إلـى أن اقتلعـت جـذور الأشـجار. لا شـيء ظـل هادئـا. شـرعت صحارى، ظلـت إلى تلك اللحظـة هادئـة وصامتة مثل ليل بهيم، تغلـي مثل ماء في آنية علـى نار. بدأت تفـور مياه الوديان والبحيـرات والأنهار، بل حتى مياه الآبار.

جف العشـب والنبات الأخضر الواقع فـي المناطق الخصيبة. نفقـت الحيوانـات الموجودة بتلك المنطقة. لم يسـلم من الكارثة حتـى الحيوانات الصغيرة. كل الكائنات الحية أصبحت تحيا في رعب. شـرعت تتصادم وتتداخل وتفقد مـاء الحياة إلى أن تموت ببطء. كان القلق والعذاب من الشدة بحيث أصبح الكل يرى في الموت خلاصا.

خلال ذلك، استمر با - وامندي يذرع الفضاء على صهوة أفعاه التي تخترق السحب مثل سهم مقذوف في الفضاء. وبالموازاة مع التواءات الأفعى واسـتقامتها، كانت المسافات تنتفي كما لو كانت تُبْلع تباعا. فجأة، شـعرت الأفعى بأنها مطارَدة. ضرطت فتحول ضراطها إلى زوبعة قادرة على اجتياح كل ما يوجد خلفها.

رأت نجـدو ديـوال الإعصار المتأجج قادمـا نحوها ففهمت من ذلـك بأن با - وامندي يوجد مـن الجهة الأخرى. وجهت، نتيجة ذلك، طيرها، آمرة إياه أن يستعد، عندما تقترب الريح، للتحليق أعلـى مـن الأفعى ومن با - وامندي. لكنهـا لم تكد تنهي كلامها

حتى تكاثف الإعصار بشكل كبير مشكلا ما يشبه جدارا يجمع بين السماء والأرض.

دخلت الأفعى مع المركوب المجنح لنجدو، في الفضاء، في صراع ثنائي عجيب؛ كانا يرتفعان عاليا إلى درجة أنهما كانا يلامسان عنان السماء حيث كانت تبدو النجوم كأنها ترعى مثل قطيع مطمئن، أو ينزلان إلى أدنى مستوى، بحيث يلامسان قمم التلال. كانا يبدوان كأنهما يلعبان لعبة الاختفاء عبر الفضاء، مقتربين من النجوم قصد الاختباء خلفها، ملامسين الصغيرة منها بأرجلهما، دافعيْن المتوسطة، من دون أن يجدا نفسيهما في لحظة وجها لوجه، في أي مكان!

أخرجت نجدو ديوال ديكا من صدرها. سفد الديكُ الطيرَ فباض بيضة جديدة بين الأرض والسماء. أمسكت نجدو ديوال بالبيضة في الهواء ووضعتها في فمها كي تدفئها. عندما أصبحت البيضة حارقة قذفت بها في الإعصار. انكسرت البيضة على الإعصار فلطخته بسائلها اللزج. هدأت العاصفة على الفور كما لو بفعل السحر.

سعدت نجدو ديوال بذلك، فأمرت طيرها بالنزول. هوت من السماء نحو الأرض. انقذفت في نزولها المدوِّخ بنجوم تصادم بعضها مع بعض مثل سمك جِرِّي مضطرب في ماء نهر. رسمت أذنابُ نجوم هارية ممراتٍ ضوئية كبيرة. نكست كل كائنات الأرض رؤوسها مخافة أن تصاب بالقذائف التي بدا أن السماء تمطرها بها.

كلما كانت نجدو ديوال تقترب من الأرض، كانت ترفع عينيها لتمسح امتداد السماء ببصرها، آملة أن تلمح با - وامندي

ولـو فـي البعيد، أو أن تشـعر بوجوده قريبا منهـا. عندما قطعت المـرأة الشـريرة هذا المضمـار مرات متعـددة من دون أن تكتشـف شـيئا، نزلـت، غاضبة، مـن على طيرها. ضربـت الأرض بعقبيها وهـي تعض سـبابتها بعنف. وكل مرة كانت تعـض فيها أصبعها، كان بصاق كثيف مثل فضلة دجاجة، ينتشر في الهواء.

أتـى عقاب هرم مـن أعالي الجبال، مسـرعا، مَقُودا بالرائحة، قاصدا الاستمتاع، فقالت له نجدو:

لن تستطيع تناول ما شممت رائحته إلا إن قبلت أن تكون في خدمتي وأن تنفذ أوامري حرفيا!

قبل العقاب.

إذن، فحلـق. حلق عاليا، قالت، وابحث في الأفق كي تكتشـف فيـه آثـار ابن آدم يمتطي أفعى طائـرة. وبمجرد أن تلمحه اقذفه بالحبـل ذي العقـد الـذي أسـلمك إيـاه. إن ألصقته به، اسـحب الحبل بقوة ثم ضع طرفه في نار متأججة.

- لكـن، كيـف سـأصنع لأحصـل علـى نـار، بينما سـأكون في الأجواء؟ سأل العقاب.

سـلمته نجدو ديـوال حجرين: أمسـكهما بمخالبك. وعندما تكـون فـي حاجـة إلـى نـار، اقدحهما. سـتنبعث شـرارات وتلهب الحبل.

انطلـق العقـاب. ارتفـع عاليـا وولـج السـحاب ثم أسـرع في الاتجـاه الذي اعتقد أنه سـيعثر فيه علـى با - وامندي. وبما أنه أسـرعُ مـن الأفعى، فإنـه لم يتأخر فـي رؤيتها. ضاعف سـرعته. وعندمـا أصبح على بعد بضـع أذرع، قذف في اتجاه با - وامندي

بالحبل الذي سلمته إياه نجدو ديوال. قطع الحبل، الذي كان أصلب من معدن، الفضاء محدثا صفيرا حادا. ونتيجة صوته الضَّاج، علمت الأفعى أن قذيفة ما أُطلقت في اتجاهها فهوت نحو الأسفل بسرعة فاجأت العقاب. ارتطمت في طريقها بسحابة عظيمة ذهبت بدورها لترتطم بسحابة أخرى. نتج عن ذلك صوت مدوّ مصمّ. أصبح الجو ملتهبا كأن النار قد أُضرمت فيه. انبعث من السحب المرتطمة لسان لهب عظيم امتد إلى أن أصاب الأفعى. لم تستطع أن تتجنب اللسان الناري في الوقت المناسب فاحترق جناحاها وأصيب جسدها.

تراجعت ثم شرعت تسقط متدحرجة مثل صخر، منكفئة على نفسها، بينما ظل با - وامندي متشبثا بقوة بظهرها. بعد بضعة انقلابات هويا بطريقة مدوخة نحو الأرض، حيث لا شيء يمكن أن يحول دون انسحاقهما.

شاهد سيري، في آخر لحظة، سقوطها. نزل بسرعة خاطفة من على كوبو - نولو وأمره أن يطير كي يمسك ببا - وامندي ومطيته في سقوطهما المميت. نفذ كوبو على الفور. شرع يخترق مثل نسرٍ صيادٍ ذكَرٍ الأجواء بسرعة نيزك، فأمسك ببا - وامندي الجالس، بأعجوبة، على ظهر الأفعى، مفرجا ساقيه.

لكن ألسنة اللهب، للأسف، لم تكتف بحرق جناحي الأفعى بل أحرقت أيضا جسدها. انتهت، وقد تفحمت، بأن انتثرت في الفضاء.

نزل كوبو، راكبه متشبث بقوة بظهره، إلى الأرض وحط بروية أمام سيري وقال: لقد استطعت إنقاذ با - وامندي، لكنني لم

أفلح في إنقاذ الأفعى. لقد نفقت وتلاشى جسدها في الفضاء.

امتطى سيري كوبو وأردف با - وامندي خلفه (*) وبعد مدة من المشي، لمحا في البعد جبلا شديد الضخامة، يقطع عليهما الطريق. كان الجبل من العلو بحيث يستحيل على أي كان تسلقه، ومن الشساعة بحيث لا يستطيع أحد الالتفاف حوله، حتى لو خلال أشهر متعددة من السفر. لكن الهاربين لم يترددا، مع ذلك، في التقدم نحوه.

كانت نجدو ديوال قد شاهدت، عن بعد، السقوط المريع للأفعى وفارسها. وعندما أصبحت متأكدة من أنها قد انتهت من قضية با - وامندي، ظنّت أنه لم يبق أمامها سوى البحث عن سيري وكوبو، وقتلهما كما قتلت الأفعى. شعرت بسعادة كبيرة فانفجرت ضاحكة. كانت سعيدة مثل حمارة عطشى عثرت، بطريقة غير منتظرة، على بركة ماء، فشرعت تنهق إلى أن بح حلقها. آه! قالت في سرها، في قمة السعادة، لقد أُحرق جناحا الأفعى ورفضت الأرض حتى أن تستقبل رمادها. لا شك في أن با - وامندي قد قضى. والآن يا سيري، لتكن المعركة بيننا نحن الاثنين!، ثم امتطت من جديد صهوة مطيتها الطائرة.

ارتفع الطائر عاليا حتى بدا كأنه يريد ملامسة عنان السماء. لمحت نجدو ديوال، بعيدا، الجبل الذي تعرف في الحقيقة كل أسراره. كانت تعرف أن الخروف المعجز، إن استطاع بلوغه، سينكشف النفق السري الذي يسمح بعبوره، بمجرد أن

(*) مرحلة جديدة رمزية على طريق أصدقائنا نحو الوحدة.

يقـع نظره متعـددُ الألوان على جـداره؛ ذلك أن نظـرة كوبو هي الوحيدة القادرة على إنجاز تلك المعجزة.

ما حقيقة هذا الجبل الملغز، إذن، والذي يتوجّه سـيري نحوه وتريد السـاحرة الكبرى أن تمنعه بأي ثمن من بلوغه؟ إنه الحد الفاصل بين عالم الناس الظاهر والملموس والعالم الخفي الذي لا يسـكنه إلا العفاريـت٤٨. كان هذا الجبل ذو الشـكل المسـتدير يحيط ببحيرة ماء مالح يسـتحيل قياس شسـاعتها (*). وسـط البحيـرة كانت تنتصب جزيرة، ووسـط هذه الجزيرة كانت نجدو ديـوال، كمـا نتذكـر، قد أخفت تحـت الأرض اليقطينـة المعدنية التي تحوي تميمتها الكبرى التي تهبها قدرة الإتيان بمعجزاتها والتحكـم فـي كائنات المملكات الثـلاث لأرضنا: المملكـة المعدنية والمملكة النباتية والمملكة الحيوانية.

تقدمـت نجـدو ديـوال نحـو الجبل، سـابرة أفـق كل الجهات؛ لكنهـا لـم تلمح أثـرا لا لسـيري ولا لمطيته. آنـذاك زفرت بعمق فصـدر عن رئتيها شـعاع ضوء قوي أنارت بـه الجدار الضخم كي تسـتطيع أن ترصـد عليه أدنى حركة، من السـفح وحتى القمة. بعـد ذلـك كلّفت أحد عفاريتهـا، وهو جلاد أعدائهـا ومصفّيهم، بـأن يذهب ويسـتطلع بدقـة كل جزء من أنحاء الجبل. سـلحته بـ: «باليل» وهي عبارة عن جرّة مستديرة من يقطين، وقالت له:

تحتـوي هذه الجـرة «تايري – كامو»، أي الصاعقة (**). اذهب إلى سـفح الجبل وابحث عن سيري وهو يمتطي كوبو. بمجرد أن

(*) حول بركة الماء المالحة، انظر هامشا ذكر من قبل.

(**) حرفيا: «نار السماء».

تلمحـه، اقترب منه حتى تصبح على بعد أربع وأربعين ذراعا، ثم اقذفـه بالباليل. لكن خذ حذرك، فبمســتطاع ســيري أن يتحول إلــى أشــكال متعددة. ثـم، اســتهدف كل ما يتحــرك أو يبدو لك مريبا!

ســيحطم هـذا الباليــل، بحذق، جمجمة ســيري. وستشــوي الصاعقة التي يحتويها دماغَه وتجمد الدماء في عروقه. سيذبل جســده فيصبح مثل نبات جاف. ســتَقتَلع أعصابه وتسحبها (*). ســتنفصل بســهولة عن لحمــه، لأنها صلبة مثل حبــال معدنية. وســيخرج نخاعه مــن أنابيب عظامه؛ من أصابعــه وبنان قدميه وراحتيه وعقبيه.

ســأصاب بشر عظيم إن استطاع ســيري وخروفه الهروب منا. ونتيجة لذلك، ســتصاب أنت وكل خدامي بالشــر نفسه. استنفر إذن كل قواك حتى تفلح في مهمتك! هيا!

توجه الجني، مُنارا بالشعاع الذي صدر عن نجدو ديوال، نحو الجبل. وعندما اقترب منه لم يلمح على جداره ظلّ فارس واحد، بــل ظل فارســين يتقدمــان على المطية نفســها: كان الأمر يتعلق بخيالي سيري وبا - وامندي وهما يمتطيان كوبو.

الويــل! الويــل! صاحــت. خســارتنا باديــة، لأن بــا - وامنــدي وسيري قد أدركا، لا شك، سفح الجبل. والحال، أن المعروف هو أنّ يــوم يقع نظر الخــروف ذي العينين متعددتي الألوان، على جدار الجبل، سيبدو المدخل الخفي للنفق واضحا للعيان.

همزت نجدو ديوال مطيتها فضاعفت سرعتها. عندما اقتربت

(*) الاسم «عصَب» يعني أيضا العرق.

من الجبل، أمرت الطائر أن يحلق على أدنى مستوى ممكن حتى تستطيع استطلاع المكان بدقة.

فجأة، لمحت ذكر نعام يغازل أنثاه. كان ذكر النعام يطلق صرخات مشابهة لزئير الأسد، لكنه لم يكن يطلقها للإعراب عن الغضب، بل هي صرخات حنان ومداعبة؛ فتلك طريقة الطائر العملاق في تدليل رفيقته.

في تلك اللحظة صاحت نجدو ديوال: أنت يا ذكر النعام! تقدم نحوي وأنت تعدو بكل سرعة قائمتيك الطويلتين!

تظاهر الطّائر الضّخم بعدم السّماع. واصل مداعبة عرف معشوقته بحنان، وهو يحرك جناحيه كأنه يريد أن يوفر لها هواء، ويوقف ريشات ذنبه مثل مروحة كي يفتنها.

أمام عناده، ترجلت نجدو ديوال من على طائرها وأمرته من جديد أن يأتي كي يكون في خدمتها. ومن جديد رفض العاشق ذو العنق الطويل. حينئذ تلفظت نجدو ديوال في حقه وحق سلالته بدعاءٍ لعنةٍ ما نزال حتى اليوم نرى آثاره: ليخسأ جناحاك، يا نعامةَ السوء! ولا حلّقْتِ، بعد اليوم، كما كنت تفعلين حتى هذه اللحظة!

وشوشت أنثى النعامة – معاندة مثل ذكرها – في أذن عشيقها: ما دمنا لن نستطيع التحليق بعد اليوم، فلنحاول أن نعدو قبل أن تلعن نجدو ديوال قوائمنا أيضا.

استرعى من جديد انتباهَ الساحرة العظمى الظلُّ الذي بدا ثانية على جدران الجبل. استغل الطَّيْران انشغالها فسارعا إلى سفح الجبل. وعندما انتبهت نجدو ديوال وجدتهما قد اختفيا.

كان الهاربان قد نجحا في الالتحاق بسيري ويا - وامندي، فأخطراهما بوجود نجدو ديوال في المكان، ثم واصلا عدوهما.

أما الخادم الجني الذي كان عليه أن يقضي على سيري، فلم يكن، من جهته، قد استطاع تحقيق هدفه. كان يتابع - الباليل في يده - الخيال المتحرك على الجبل، ساعيا إلى كشف أصله.

لم تكن النعامتان، في عدوهما المجنون، تشكان في أنهما تتجهان نحوه. لمح خطوهما فظن أن الأمر يتعلق بسيري ويا - وامندي، فرفع ذراعه مستعدا لقذف الباليل. وعندما أصبح الطيْرَان العدَّاءان على بعد بضع أذرع منه، صاح:

الويل لك يا سيري! الويل لك يا با - وامندي! إن أمكما لم تلد سوى جثتين (*)!

- أنت أيها الجني! عقب ذكر النعام. إنك مخطئ، فنحن لسنا لا سيري ولا با - وامندي. بل، بالعكس، نحن طيران في خدمة نجدو ديوال. لقد أرسلتنا إليك كي نقودك إلى مدخل النفق الذي يبحث عنه سيري. فهو لن يتأخر في اكتشافه، وعليك أن تكون ثمة في انتظاره.

سقط الجني، بسذاجة، في الفخ. وعندما رآه ذكر النعام صدق، أضاف: إنّ عنقي الطويل ورأسي المسطح لقادران على قذف الباليل أحسن مما تستطيعه يدك، كما أن قامتي العالية تمكنني من رصد سيري ويا - وامندي أسرع مما تستطيعه أنت!

أحس الجني، كأنه مسحور، بأن الاقتراح مناسب. وضع الباليل على رأس الطير الماكر، وانطلق في الاتجاه الذي دله عليه طائر

(*) عبارة تعني: يمكنكما اعتبار نفسيكما ميتين.

النعام، في حين أخذ الطائران ذوا القوائم الطويلة الطريق نحو سيري ويا - وامندي.

وبمجرد أن التحقا بهما، قال ذكر النعام لسيري:

لقد استطعت تضليل الخادم الجني لنجدو ديوال. كان مكلفا بقذفكما بهذه الأداة، ويمكنك الآن أن تفعل بها، يا سيري، ما تشاء، لكن أسرع، فنجدو ديوال لن تتأخر في أن تعرف بتضليلنا لخادمها، وستكتشفنا جميعا. وأقل ما يمكن أن يحصل لنا، حينئذ، هو أن نؤسر، وسيكون مصيرنا حتما هو الموت.

قبل حتى أن ينهي ذكر النعام كلامه، سمع با - وامندي صراخا مخيفا أرعبه. كان رعبه من القوة بحيث اضطرب سيري حتى فقد، للحظة، قدراته وما عاد يعرف ما يفعله. عندما رآه ذكر النعام على تلك الحال، قال: لا تتحركا، حافظا على هدوئكما. سأقوم برقصتي السحرية وسأرسم حولكما جدولا، إن بقيتما وسطه ستحظيان بحماية خفية (*).

قام الساحر المجنّح برقصته السّحريّة، فرسم، وهو ينتقل من اليسار إلى اليمين، جدولا، فقفز، وقائمتاه مجتمعتان، إلى الخانة المركزية حيث كان يوجد سلفا رفيقتُه وصديقاه الجديدان.

الصرخات التي سمعها با - وامندي، كان قد أطلقها الطير العملاق لنجدو ديوال. كانت هذه الأخيرة تقترب بسرعة فائقة. وسرعان ما حلقت فوق سيري ورفقائه من دون أن تكتشفهم، لكونهم مقتنعين بفضائل الجدول الخفية. وبينما هي مشغولة

(*) حول الجدول، انظر الهامش ٣ من الملحق.

بالبحث عن سيري وبمحاولة العثور على جنّيها المدمر، رفع الخروف كوبو رأسه وتملّى الجبل بعينيه ذي اللونين المختلفين، فانهار شق من جداره مبديا مدخل ممر (*).

بسرعة! بسرعة! صاح ذكر النعام وأنثاه لسيري وبا - وامندي. ادخلا النفق قبل أن يغلق الباب!

امتطى سيري وبا - وامندي على الفور كوبو الذي انطلق نحو المدخل. لكن، وللأسف، أفلت الباليل الذي كان موجها لنجدو ديوال، من يد سيري فتدحرج إلى أن أدرك عتبة الممر المفتوح ودلف فيه. بعد ذلك اصطدم بالجدار الداخلي وانفجر. انبعثت ألسنة لهب انتشرت في الممر الذي أصبح بئرا نارية حقيقية، تُصدر دخانا كثيفا خانقا.

خرجت ألسنة اللهب من النفق وارتفعت مُحرِقَة الجبل كأنه مجرد سقف من قش جافّ. في رمشة عين أصبح جمرة ملتهبة. كل الحيوانات الصغيرة مثل الضفادع والجرذان والفئران والعظايات والثعالب، حتى لا نذكر إلا هذه، شوتها النيران.

تملت نجدو ديوال، من بعيد، وبلذة، تلك المِشواة العظيمة وغير المنتظرة. وكي تتمتع بالمشهد أكثر، أمرت طيرها بأن يزداد قربا. كانا يشكلان في السماء ما يشبه سحابة كبيرة سوداء تزداد ضخامة بسرعة فائقة. كان با - وامندي هو أول من

(*) وحدها نظرةُ الخروف المبارك يمكنها أن تُظهر الفتحة الخفية للجبل. فإحدى عينيه بيضاء، بلون الحليب، رمز الطهر الكامل: يمكنه إذن أن يرى القطب الروحي أو الخفي للأشياء. والأخرى داكنة أو حمراء، لون الأرض: يمكنه إذن أن يرى القطب المادي. بمعنى آخر: تغطي نظرته كل الألون؛ والحال أن الألوان ترمز إلى مختلف تمظهرات الحقيقة الفريدة؛ تلك التي لا لون لها. إن نظرة كوبو، مثل نظرة الملقن، تجعل الوهم ينقشع والحقيقة السرية المختفية خلف المظاهر تظهر (وهي هنا الفتحة السرية للجبل).

رآهـا. آه يا سيري! صاح. إننا على حافة الهلاك؛ فتلك السحابة الضخمـة التي تتقدم نحونا لا يمكنهـا أن تكون إلا نجدو ديوال وطائرها المشؤوم. والحال، أن من المستحيل أن نلتجئ إلى النفق المحترق. ماذا سنفعل؟

لـم يكـد ينهي كلامـه حتى كانت المشـؤومة فوقهمـا. أطلقت ضحكـة عدوانيـة عالية، ثم تلفظت بكلمات سـحرية تسـتهدف إبطال السحر الذي كان ما يزال يحميهما.

الويـل لكمـا، صاحـت، لأنني سـأقذفكما بباليل آخـر، ما دام الأول إنمـا أحـرق الجبـل. حينئـذ أخرجـت وزغـةٌ عظيمة مثل تمسـاح، وحمـراء مثل جمرة، رأسـها من اللهـب٤٩. فتحت فمها الشاسع وقالت:

أنتمـا، يـا مـن تطاردهما نجدو ديـوال! ادخلا فمي، سـأقطع بكما النفق دون أن تتعرضا لسوء، ولن تستطيع كبيرة الساحرات أن تفعل شيئا حيالكما.

- مـا تكون، أنت أيها الحيوان الذي أرسـلته العناية الربانية؟ سأل سيري.

- لـي أسـماء متعددة، أجـاب الحيوان، لكن الأكثـر تداولا هو الوزغـة. إن جنـس العظايات الذي أنتمي إليـه يحيا في المناطق الحـارة. لقـد جعل لنا جينو رأسـا مسـطوحا وعريضـا، وأصابع لاصقـة تمكّننـا مـن أن نعـدو علـى طول الجـدران وحتـى على السـقوف. ورغـم ذكائنـا، فإن النـاس لا يحبوننا. هـم يعتبروننا كائنات ليلية مذمومة.

إن رفيقك يا سيري، أضافت، لهو صديق الحيوانات. واعترافا

مني بجميله، سأجعلكما تصلان إلى الجهة الأخرى من الجبل.

ومن دون إضاعة للوقت، انقذف سيري ويا - وامندي وكوبو في الفم الشاسع الملتهب للوزغة.

بمجرد أن انغلق فكّا الوزغة على الرفقاء الثلاثة، حط طير نجدو ديوال أمام مدخل النفق. ترجلت نجدو حاملة الباليل في يدها. قذفته على الجبل. انبثقت منه ألسنة لهب عالية زادت الجبل احتراقا. عندما أصبحت متأكدة من أن الهاربين يوجدان بالداخل، عملت على أن تُحيل الجبل ومن بداخله مجرد رماد. لكن هيهات! فللجبل قدرة عالية على المقاومة.

عندما اقتربت نجدو ديوال من مدخل الممر، لمحت الوزغة، لكنها لم تستطع تمييزها بسبب شساعتها، وبالخصوص بسبب ضخامة بطنها.

ما تكون، أنت أيها الحيوان السابح في اللهب كما تسبح سمكة في الماء؟ إلى أي نوع تنتمي؟ أنا لا أتعرفك. لم يسبق لي أبدا أن رأيت زاحفة تشبهك. رأسك وأرجلك وذنبك تشبه رأس وأرجل وذنب وزغة المغارات، لكن اتّساعك وحجمك وبطنك؛ كل ذلك يجعلك تختلف عن الوزغات العادية. كيف ولماذا أنت هنا بمدخل النفق؟ ماذا تفعل هنا؟ وعن أي شيء تبحث؟

- أنت التي يجب أن تخبريني لماذا أنت هنا وعمَّ تبحثين.

- أنا أبحث عن ثلاثة أشرار، أجابت نجدو: رجلان وخروف سحري يمكنه أن يمشي على الأرض كما يمكنه أن يحلق في السماء بسرعة البرق. يسمى الرجلان سيري ويا - وامندي، واسم مطيتهما كوبو. أنا نجدو ديوال، مالكة الجزيرة السحرية التي

تقع وسط البحيرة العظمى المالحة التي يحيط بها هذا الجبل. لقد دفنت في هذه الجزيرة يقطينة معدنية تحوي سرا قاتلا. وسيري يطمح لأن يحصل على هذه اليقطينة. يوم يستطيع العثور عليها وفتحها، ستندثر الجزيرة والبحيرة والجبل. أنا أطلب منك أيتها الوزغة أن تتعاوني معي للحيلولة دون عبور أعدائي الثلاثة للجبل وولوجهم الجزيرة! وكمقابل لتعاونك، سأسلمك عمامة المُلْك وسيمكنك أن تحكمي كل كائنات الجبل.

- هيه يا نجدو ديوال، قالت الوزغة، أنا أعترف بقوتك! وإن كنت ترين بطني منتفخا إلى هذه الدرجة، فلأنه مترع بالبيض الذي أنا شارعة في وضعه. ابتعدي قليلا عن المدخل. اجلسي وانتظري أن أنهي وضع البيض الذي يحوي نسلي. بعد ذلك سأصبح خادمتك المطيعة، ولن أترك أي كائن حي يمر.

وربطا للقول بالعمل، رفعت الوزغة ذيلها وشرعت تئن كأنها تعاني، بالفعل، من آلام الولادة.

ابتعدت نجدو ديوال مطمئنة.

باضت الوزغة، بالفعل، أمرا ما؛ كان هذا الأمر هو أصدقاءَنا الثلاثة الذين غادروا بطنها. عندما حطوا بالخارج، أنعشهم الهواء البحري المنبعث عليلا من الجهة الأخرى للنفق. في تلك اللحظة نفسها انطفأت نيران الجبل. وأمام الدهشة العظيمة لنجدو ديوال، اختفت الوزغة كما انسد مدخل النفق بإحكام كأنه لم يسبق له أبدا أن وجد.

عندما رأت نجدو ديوال ألسنة اللهب تنطفئ، علمت أنها قد خسرت الجولة. لكن كل ذلك لم يكن كافيا ليُفتر همة الساحرة

العظمى. تقهقرت بضع أذرع عن المكان الذي كانت واقفة فيه، وأطلقت صرخة شبيهة بصوت بومة. دوت صرختها، وقد ضاعفها رجع الصدى، مثل هزيم رعد قادم من بعيد. حينئذ نادت المشؤومة على طيرها فامتطته وأمرته أن يخترق جدار الحجارة. انطلق الطير في رمشة عين وارتفع عاليا فأدرك قمة الجبل. مرّ من الجهة المقابلة فنزل ووضع سيدته على مدخل السهل الممتد إلى غاية شاطئ البحيرة العظمى.

كان سيري ويا - وامندي وكوبو قد سبقوا نجدو ديوال، فأدركوا الشاطئ. شاهدوا سلحفاة بحر عظيمة تسبح على سطح الماء. كانت منهكة وهي تمشي وتجيء بين ضفتي البحيرة وشاطئ الجزيرة، باحثة على ما يبدو عما تقتات به. أخرج با - وامندي من جرابه فاكهة الفوجي التي سلمه إياها الشيهم فقذف بها إلى السلحفاة. سارعت هذه إلى الفاكهة والتهمت منها إلى أن شبعت. بعد ذلك سبحت، فرحانة مثل عروس، في اتجاه با - وامندي، ضاربة الماء بأرجلها، مبتهجة، قائلة: هيه يا با - وامندي! ، علّ جينو يجازيك خير الجزاء! لقد وجدتني في جوع شديد، أنابيب بطني وأمعائي متشابكة مثل روحي. لقد بقي بطني ملتصقا طيلة ثمانية أيام، لم يدخله شيء ولم يخرج منه شيء. وقد أتيتني بهذه الفاكهة فأكلت منها حتى شبعت. والآن، وقد استعدت قوتي ونشاطي، أخبرني إن كنت أنت ورفيقك تحتاجان لشيء. سأحاول أن أكون ذا جدوى بالنسبة إليكما، مقابل صنيعكما.

- أنت يا سلحفاة الخير! أجاب با - وامندي، أطال جينو

أيامك وجعلها بكثرة تلك الرمال التي ألمحها هناك وسط البحيرة! بإمكانك فعلا أن تساعدينا. نريد، رفيقي وأنا، أن نصل إلى تلك الجزيرة والنزول بها. عليّ أن أقود إليها الخروف كوبو هذا كي يرعى ثمة ويشبع من عشبها الغزير. إنني أحب كثيرا خروفي هذا وأنا مستعد أن أذهب إلى أي مكان يوجد به عشب طبيعي للرعي.

صديقي هذا اسمه سيري، أضاف. تجمع بيننا رابطة أشد قدسية من رابطة القرابة أو حليب الأمومة ٥٠. نحن متضامنان في السراء وفي الضراء. نذهب إلى أي مكان معا ولا نريد أن نفترق (*).

- هيه يا با - وامندي، صاحت السلحفاة، خذ حذرك! احذر الذهاب إلى تلك الجزيرة حيث تسقط أظافر وأسنان الزوار مثل فاكهة ناضجة. أجل أيها الرجل الخيّر، إن الجزيرة مسكونة بديدان عظيمة زغبها غليظ مثل زغب الخنزير البري المنتصب كالشوك، هذه الديدان تقرض وتفتك بكل ما يوجد قريبا من فمها.

لقد أخبرتكما بما يكفي عما ينتظركما على تلك الجزيرة. لم أُخف عنكما شيئا، أي شيء. لكن، إن كنتما تصران على الذهاب إليها، برغم هذا التحذير، فإن بإمكاني أن أقودكما وأن أكون لكما مركبا.

وبعد أن وافق با - وامندي، واصلت:

أنصحكما، مع ذلك، بأن تتركاني أنزلكما في مكان أختاره أنا.

(*) يعتبر الرباط المعرفي والروحي أقوى من الروابط الطبيعية المتمثلة في الدم وفي الحليب.

فأنا على علم، بالفعل، بمكان من الجزيرة لا يقع تحت سيطرة نجدو ديوال (*). إن من لا يتوجه إلى مكان الرّسو هذا، يذهب رأسا إلى الموت المحقّق. اتركاني إذن أقودكما إليه. وأنا أحذّركما من أنّ المكان موبوء بالذباب وبالجراد، كما أن به أيضا عُشّ نحلٍ وعقربا أنثى هي ملكة المكان. بمجرد أن تصلا هناك، اذهبا واطلبا منها أن تكونا ضيْفيها.

امتطى سيري وبا - وامندي وكوبو ظهر السلحفاة. جلس الرجلان مربعين، وبا - وامندي يمسك بقوة بحبل خروفه. أصدرت السلحفاة توجيهاتها:

ستثور أمواج عاتية، قالت، ستمتد طويلا وستعلو ألسنتها مثل جبال. ومهما يكن ظَلاً قاعدين كما أنتما الآن ولا تخشيا شيئا (**)، وليُكَمِّم سيري فم كوبو ليمنعه من الثغاء طيلة مدة العبور.

لم تكن السلحفاة قد أنهت كلامها بعد عندما رأى المسافران أمواجا عاتية ترتفع كما لو بفعل عاصفة، وتتجه نحوهم، متدحرجة جارية بعنف. كانت كل موجة منها تشبه

(*) ذلك، كي يتم التنصيص على أن القدرة المطلقة مستحيلة، وليست في ملك أحد غير جينو. القدرة على فعل الخير، مثل القدرة على فعل الشر، ليست مطلقة. فثمة دائما بذرة خير في الشر، وبذرة شر في الخير، ثمة دائما جزءٌ من الليل في النهار وجزءٌ من النهار في الليل.

(**) نعثر هنا من جديد على النصيحة التي سبق أن قدمت لبا - وامندي عندما امتطى الأفعى: ألا يشعر بالخوف وأن يبقى ثابتا؛ خصوصا ألا يلتفت. ثمة دائما في التلقين الأفريقي، امتحان للشجاعة. هو بمنزلة تمرين للإرادة وإعداد ومقاومة للذات. التلقين بحاجة إلى شجاعة، لأن اليأس أو الخوف يحدان من فعالية أفعال الإنسان ويزعجانه.

الإيمان والثقة أساسيان: إن كان ثمة شعور بالخوف فإنهما لا يثبتان. وفضلا عن ذلك، فإن الخوف يؤدي إلى الوهم، يخلق صورا للأشياء غير موجودة. الخوف هو أحد أسباب الإقصاء في التلقين الأفريقي. على الإنسان أن يمتلك شجاعةً وإرادةَ مواجهةِ كل شيء، حتى ما يكون شديد الغرابة أو غير منتظر.

جبلا متحركا من المفروض أن ينكسر فوقهم ويحطّمهم. لكن السلحفاة كانت تتسلق جنبات الأمواج، الواحدة تلو الأخرى، بمهارة قرْد متسلّق. كان عبورا مضطربا مشكلا من عمليات صعود كأداء ونزول مدوخ (*).

بعد نصف يوم مُضن من السفر، أدركت السلحفاة مكان الرّسو الذي أشارت إليه. أنزلت به المسافرين الثلاثة. وقبل أن تودّعهم قدمت لهم نصائحها الأخيرة قائلة: كي تلجوا الجزيرة، توجهوا قدما أمامكم من دون أن تحيدوا عن الطريق الأولى التي ستعثرون عليها. إنّها طريق مستقيمة ستقودكم رأسا إلى الجحر الذي تثوي به العقرب الملكة. بمجرد أن تصلوا أمام باب مسكنها، قولوا لها إنكم غرباء أتيتم تطلبون ضيافتها. في البداية، ستطلب منكم بعدوانية أن تنصرفوا وأن تذهبوا لتقطنوا مكانا آخر. وليكن جوابكم أن تجلسوا على الأرض وتقولوا لها: «نحن هنا بموجب التقاليد ومزاجك العكر لن يصرفنا البتة».

(*) بعد أن عبر أصدقاؤنا، بمساعدة الوزغة، محنة النار، أصبح عليهم الآن مواجهة بحر متلاطم الأمواج. والبحر، عندما يكون عاتيا، يكون صورة للشغف وللانفعالات التي ترج عالمنا الداخلي، الذي يجب أن نتعلم كيف نعرفه أولا، ثم كيف نتحكم فيه بعد ذلك. وترمز أمواجه أيضا إلى الأوهام وحالات السراب التي تتخذ، في العالم الوسيطي، أشكالا جذابة، لكنها مؤقتة. إنه عالم الصعود الصعب المتبوع بالهبوط المدوخ. فعندما نفتقر إلى دليل أو وسيلة مضمونة للعبور، نعرض أنفسنا لمخاطر محدقة. حالات الصعود والهبوط هي أيضا رمز للتعاقب الدوري لأزمنة الإجهاد وأزمنة السهولة.

يُناط، هنا دور الدليل بالسلحفاة، الحيوان الذي تُضَاعَفُ خاصية التلقين عنده، هنا، بأن أصبح سابحا، مما يعني أنه يتحكم، في الآن نفسه، في عنصر الأرض وعنصر الماء. السلحفاة ترمز إلى القدم وإلى الحماية كما ترمز إلى الحذر. هي لا تسرع أبدا، وهو ما يعد ذا أهمية بالغة في التلقين (انظر الهامش ١٨ من الملحق).

الواقع أن كل هذه العوائق التي يجب تجاوزها هي مراحل داخلية، وانتصاراتٌ يجب تحقيقها على الذات.

آنــذاك ســينتابــها غضـــب شــديد؛ لكــن لا تخشــوا شيئا؛ لــن يكـون ذلك منهــا إلا ادّعــاء. ســتهددكم بأنها ســتجعل دودة أرضيــة تبتلعكـم. أجيبوهــا بــأن لديكـم بالفعـل رغبة فــي زيارة الأنبـوب الهضمــي لــدودة، لأنكـم تريــدون أن تعرفــوا طبيعتــه. حينئــذ ستســارع نحوكـم دودة أرضية وســتفتح فمها وســتبتدئ بابتــلاع كوبــو. بعد ذلك ســتقول لكم: «عودا من حيــث أتيتما أو ســتلقيان مصير خروفكما نفســه!» أجيباها بأنكما تســتعجلان بالأحــرى الالتحــاق بمطيتكمــا البيضــاء فــي أحشــاء الــدودة. لحظتئذ ستبتلعكما الدودة العظيمة معا وستريان ما ستريانه.

عندما تلفظت السلحفاة بذلك، غادرت رفقاءنا وأخذت اتجاه الشاطئ، ثم غطست مختفية في أعماق المياه.

أخــذ بــا - وامنــدي وســيري - تنفيــذا حرفيــا لتعليماتها - الطريق متوجهين قدما أمامهما. ســلكا أول طريق بدا أمامهما؛ وهو الطريق الذي ســيقودهما، كما ســبق، رأسا إلى عش العقرب الملكــة. وجداها قاعدة على مدخل بــاب جحرها؛ كأنها تريد، في الآن نفسه، أن تستدفئ بالشمس وأن تستمتع بالهواء. وبمجرد أن لمحت ســيري ورفيقيه حتى لوت ذنبها مخرجة ما بين ملقَطَيها، آخذة وضعية المواجهة.

مــن أين أتيتما؟ صاحت فيهما. ومــن تكونان؟ وعمّ تبحثان؟ يجــب أن تكونــا أكبــر الجهــال وأكبــر ســيئي الحظ، مــن بين كل الكائنــات، حتى تغامــرا بالمجيء إلــى هذا المــكان كأنكما قادمان إلى مكان احتفال. سيُلقِي عليكم موت محقق حجَرَه وستموتون كما يموت كل من يجرؤ على ولوج جزيرة نجدو ديوال، الســاحرة

العظمى. هيا؛ اذهبا وضيعا في أعماق مياه البحيرة وموتا هناك، فذلك أجدى لكما من أن تظلا هنا!

- لا، لن نذهب لأي مكان! أجاب با - وامندي، وزايد سيري: نحن ضيوفك وسنظل كذلك. لتحل الكارثة التي تهددينا بها، ولْتحرق لحمنا وتكسر عظامنا وتحيلها مجرد غبار أدق من الطحين، ولتنثري بعد ذلك غبارنا في الهواء. نحن هنا، وسنظل هنا!

صاح با - وامندي: ها أنت ترين أيتها الملكة العظيمة؛ فلا نية لنا البتة في التراجع. نحن في بيتك ولن نغادره. خزِينَا بشوكتك لتسممينا أو انهالي علينا بضربات من قضيب حديدي إن طاوعك قلبك. ونحن، بدلا من أن نغادر هذا المكان، سنتحمل بقلب مطمئن أي عقاب تنزلينه بنا. لا تضيعي وقتك إذن، أيتها الملكة ذات السهم القوي، لأنه لا شيء سيجعلنا نغير رأينا.

أصبحت الملكة العقرب، أمام إصرارهما (*)، أكثر لطفا: يقرفني، قالت، أن أستضيف في بيتي كوبو وسيري، لأن نجدو ستخوض حربا شعواء ضد من يجرؤ على إيواء سجينها القديم. والحال أن لا رغبة لديّ في مواجهة الساحرة العظمى ذات العينين الحمراوين أحيانا وشديديْ السواد أحايين أخرى.

(*) قِيل كل شيء من أجل تثبيط عزيمة المسافرين حتى لا يواصلا رحلتهما. ويتم، في التلقين، القيام بالشيء نفسه؛ إذ تَحين لحظات يحدث خلالها أن يعمل المعلم على تخويف المريد حتى يتأكد مما إذا كان قد استطاع أن «يتحكم في قلبه»؛ فالمجاهدة شرط أساس للمرور إلى الموالي. فإذا ما استولى اليأس والخوف، مثلا، على المريد في اللحظة التي يكون على وشك اجتياز مرحلة ما، فإنه يتقهقر. والحال أن كل تقهقر يعد فشلا. وكثير من المريدين لا يستطيعون تجاوز تقهقرهم، فيتوقف تعليمهم في منتصف الطريق. ويصيرونٍ «متعلمين فاشلين» (انظر الحكاية: بودويل الصغير). ويُخشى دائما من أن يصبح متعلمٌ فاشلٌ دجالا، لأن الذين لا يستطيعون قطع إلا نصف الطريق، يكون لديهم نزوع لأن يلعبوا أي دور وبأي ثمن.

- أيتها العقرب الملكة! واصل با - وامندي، أطال جينو أيامك! كل ما تقولينه عن نجدو صحيح، لكننا نعلم، من جهتنا، أَنْ لا سلطان لها عليك وأن مسكنك مُؤَمّنٌ ولن تجرؤ أبدا على مداهمته. هي تخشى، فعلا، أن يخزها سهمك وأن يخترق صدرها من الطرف إلى الطرف. وما أتينا كي نحتمي بحماك إلا لأننا نعرف هذا السر. إن نجدو ديوال لا تستطيع أن تصيب بسوء من تحميه أنت.

أرخت الملكة، على الفور، ذيلها (*) ولمّت ملقطيها ثم سألت الرفيقين:

- ما الذي تبحثان عنه في هذه الجزيرة الملعونة؟

- نحن نبحث، أجاب سيري، عن يقطينة معدنية وضعت فيها نجدو ديوال تميمتها الكبرى، ثم دفنت ذلك كله في مكان سري من الجزيرة. والحال، أنها بفضل القوة السحرية لهذه التميمة، تستطيع أن تُخضع لسلطتها كائنات مملكات الطبيعة الثلاث وتحويلها إلى أي شكل تشاء. وهكذا، فإن الساحرة العظمى تستطيع أن تزرع الموت والحزن في كل مكان، لأن جينو سمح لها بذلك.

- اذهبا وفيئا إلى ظل النخلة التي تريانها هناك، قالت الملكة. استريحا هناك واصبرا، وبالخصوص، لا تخافا مما ستريانه ولا مما سيحصل لكما.

توجه الصديقان، رفقة الخروف، نحو النخلة التي أشارت الملكة عليهما بها. وبمجرد أن فاءا إلى ظل النخلة، تحولت

(*) ثمة دائما كلمات تستطيع أن تجرد شخصا، على الفور، من سلاحه؛ إذ يمكن لشخص في ثمة ثورَةِ غضبٍ أن يُهَدَّأ بكلمة واحدة. لكننا، وللأسف، لا نعرف هذه الكلمة أو لا نعثر عليها في الوقتَ المناسِب.

إلى دودة أرضية عظيمة شبيهة بالتي وصفتها لهما السلحفاة. فتحت الدودة فمها الضخم وابتلعت كوبو، دفعة واحدة. بعد ذلك خاطبت الرجلين: لقد حذرتكما ملكة المكان من الأخطار المحدقة بكما على هذه الجزيرة. لقد ابتلعت الخروف كإشارة تحذير، لأعطيكما صورة عن المصير الذي ينتظركما إن عاندتما في البقاء ها هنا.

وعلى الرغم من أن خوفا مبرّرا استولى على با - وامندي وسيري، فإنّهما قالا بصوت واحد: نحن نستعجل، أيها الدودة، أن تبتلعينا كي نلتحق بخروفنا.

شعر با - وامندي على الفور بأنه مُمسَك من قدميه. سيري، يا سيري!، صاح، أمسك بذراعي واسحبني، فالدودة شارعة في التهامي (*) ! أمسك سيري بيديْ با - وامندي وسحب بكل قواه، لكن، وفي رمشة عين، ابتلعت الدودة با - وامندي، واختفا ذراعا سيري في فمها. وسرعان ما ابتُلعت بقية جسده أيضا.

لم تكد الدودة العظيمة تنتهي من ابتلاع الخروف وفارسيْه، حتى وصلت نجدو ديوال إلى شاطئ الجهة الأخرى من البحيرة، حيث كان با - وامندي وسيري، مع خروفهما، من قبل، قد استقلا ظهر السلحفاة. شرعت تبحث في كل مكان عن أثر للهاربين، لكن سدى. شرعت تبحث عن الوزغة، في قمة غضبها، لكن سدى أيضا. بحثت لمدة طويلة حتى تعبت فاستولى عليها القلق من هذا البحث المضني وغير المجدي. كانت قد أصبحت من التعب

(*) يقال إن الخوف، مهما تكن درجته، لا يمكن أن ينمحي بشكل كامل من قلب الإنسان؛ إن صبر الإنسان هو الذي ينتصر على خوفه. يقول المثل: «لو أن الجبان عرف كيف يصبر، لرأى الشجاع يعدو أمامه».

بحيث لم تعد تستطيع أن تمشي إلا ترنّحا. بدأت تتمايل على ساقيها وقلبُهَا مترع همّا وهي تتوجه نحو مكان الرسو. شرعت أمعاؤها تتلوى وتقرقر في بطنها. سال سائل كثيف من أنفها (*) وتدحرجت دموع حرى مُرّة من عينيها.

عبرت البحيرة، اعتمادا على وسائلها الخاصة، ونزلت على الجزيرة. عدت، فورا، نحو المكان الخفي الذي دفنت فيه اليقطينة المعدنية. لاحظت، بارتياح كامل، أن المكان لا يعكس آثار أية زيارة غير مرغوب فيها. غير أنها، مع ذلك، وكي تتأكد من أن أعداءها لم ينزلوا على الجزيرة، شرعت تبحث في كل مكان مستطلعة أدنى أثر، بل أدنى رائحة غنمية أو آدمية. لكنها لم تلمح، مع ذلك، أي شيء.

وبالفعل، فإن الدودة، بعد أن ابتلعت سيري ويا- ومندي وكوبو، كانت قد وضعتهم في أحضان الأرض قبل أن تأخذ شكلها الأصلي بوصفها نخلة.

بعد أن شعرت نجدو ديوال ببعض الاطمئنان، أعربت عن رغبة في استرجاع قواها. وعندما لمحت النخلة ذهبت لتستريح تحت ظلها. شعرت، وهي تحتها، برغبة في النوم لا تقاوم. أرادت أن تقاوم نومها مخافة أن يفاجئها أعداؤها، لكنها فشلت. انسدت عيونها ونامت.

رأت في نومها شيئا، لم تميز طبيعته، يحفر الأرض في اتجاه المكان الذي دفنت فيه اليقطينة المعدنية.

(*) ينضح دائما من المشعوذين، في الحكايات، أمر ما منتن؛ إذ لهم علاقة بكل ما هو منفر ومنتن ومشوه ومحزن وما له علاقة باستحضار الأشباح. ذلك أن للشعوذة علاقة بأجواء استحضار الأشباح.

أفاقت منتفضة. وعندما لاحظت أن ريقا كثيفا قد اندلق من فمها ولطخ جيدها وصدرها، جرت في اتجاه الشاطئ كي تنظف نفسها.

الرؤية التي رأتها نجدو ديوال في منامها لم تكن حلما عاديا. كانت تجلّيا؛ رؤية حقيقية لما كان شارعا يحدث تحت الأرض. وبالفعل، فبا - وامندي وسيري كانا قد عثرا، في الثقب تحت الأرضي الذي وضعتهما فيه الدودة العجيبة، على آكل نمل ذكر، هو حفار أرض دؤوب. كان آكل النمل هذا قد قال لهما: لقد تلقيت الأمر بأن أخدمكما (*) عن طريق حفر ممر سيقودكما إلى غاية يقطينة نجدو ديوال. لكن الساحرة العظمى أحالت عينَيَّ، بسحرها، حسيرتَيْ البصر إلى درجة أنني، كي أميز شيئا ما، يكون عليّ أن ألمسه بأنفي. وكي أبطل السحر الذي يعتم علي حياتي، من اللازم عليّ أن أحصل على سائل جاف من عين كلب هرِمٍ مخلوط ببعض الكحل محلولٍ في الماء. آنذاك، وبمجرد أن أغسلَ وجهي، سأستعيد نظري العادي.

ونحن نتذكر، من دون شك، أن با - وامندي يملك في جرابه كل ما يلزم لعلاج انحسار بصر آكل النمل. أعدّ الحل المشار إليه وقدمه إليه. بمجرد أن مرره آكل النمل على عينيه استعاد رؤيته كاملة. وعلى الفور شرع يشتغل.

كانت نجدو ديوال، خلال ذلك، وقد أضحت على يقين من أن الهاربين لا يوجدان على الجزيرة، قد عبرت البحيرة وشرعت تبحث في كل تجاويف الجبل حيث كانت تظن أنهما يختبئان.

(*) مما يعني ضمنا: لقد تلقيت هذا الأمر من الملكة العقرب؛ سيدةِ هذا الجزء من الجزيرة.

اشــتغل آكل النمل بهمــة وبفعالية. كان الممر يتقدم باســتمرار، لكنه توقف، للأسف، فجأة، بسبب جدار صخري قوي البنيان، يبدو أنه لا سبيل لاختراقه. التفت نحو با - وامندي وسيري وقال لهما: لا شك أن اليقطينة المعدنية لنجدو ديوال توجد خلف هذا الجدار، لكن مخالبي لا تستطيع اختراق بناء مثل هذا. فما العمل؟

تذكر با - وامندي الجمجمة التي كان قد عثر عليها في فاكهة الباوياب، والتي كان جده الأول يستشــيرها كلما وجد نفسه أمام عائق شديد الصعوبة. سطر جدولا على الأرض ووضع الجمجمة فــي مركــزه وعزم: يا جمجمة عجيبة لرجــل لا أعرفه، لكنه، بكل تأكيد، شخصية فريدة غنية ومتفوقة في كل شيء. أستحلفك أن تقولــي لنا ما الذي علينا أن نفعلــه! فتكلمت الجمجمة؛ انبعث منهــا صــوت بهيــم أغن، وهو يتلفــظ بهذه الكلمات: أنــت يا با - وامنــدي! أخــرج من جرابــك الجوهرة التي غثت بهــا الضفدعة وألق بها على الجدار وسترى ما سترى.

بحث با - وامندي في جرابه، فأخرج منه الجوهرة وقذف بها العائق. ســقط شــق كبير من الجــدار، فبدت اليقطينــة المعدنية المستديرة. لكن بقي أمامهما فتحها.

فجأة ظهر جيش من حشرة الجَلاَّلة الضِّخام، نافذا من ممر؛ فقال زعيمها:

تنحيا جانبا، يا با - وامندي ويا سيري! لقد تلقينا الأمر بدحرجة اليقطينــة المعدنيــة لنجــدو ديوال إلى غاية مســكن العقــرب الملكة. وقــد يســر لنا آكل النمل المهمة بحفره لهــذا الممر. أما أنتما، ففتّحا عيونكمــا؛ فتحاهــا جيدا كي ترياننا نشــتغل! ثم شــرعت الحشــرات

تدفـع اليقطينـة وتدحرجها كما علّمتها الطبيعـة أن تفعل. اكتفى با - وامندي وسـيري بالسـير في أثرها. وعندما وصلوا إلى مسـكن العقـرب (*)، سـلمتهم اليقطينة قائلة: عليكمـا أنتما الآن أن تعثرا على وسيلة لفتحها قصد استخراج التميمة التي توجد بداخلها.

سـطر بـا - وامندي من جديد جدولا علـى الأرض ووضع في مركزه الجمجمة المتكلمة: أيتها الجمجمة العجيبة، كيف العمل لفتح يقطينة نجدو ديوال هذه؟ كوني طيبة وقدمي لنا نصيحة!

تكلمت الجمجمة من جديد: ليقف كوبو - نولو على بعد سبع أذرع من اليقطينة، وليركز عينيه على الزر الذي يوجد وسطها.

جعـل بـا - وامنـدي كوبو يتقهقر سـبع أذرع، فوجـه الخروف بصـره نحـو الجهة المقصودة مـن اليقطينة. خرجـت من عينيه سبعة أشعة من ضوء بألوان مختلفة (**)، فحطت مجتمعة على

(*) بعد أن اجتاز صديقانا امتحان النار في الجبل، ثم امتحان الماء والهواء (المحيط والعاصفة) يُتِمّـان رحلتهما تحت الأرض، أولا للوصول إلى اليقطينة العجيبة، ثم لأخذها إلى مكان آمن في مسكن الملكة العقرب. وبذلك تتم دائرة العناصر الأربعة.

في منطق الحكاية: مادامت الجزيرة تقع تحت مراقبة نجدو ديوال، باستثناء جزء الملكة العقرب، فـإن علـى أصدقائنا أن يرحلا تحت الأرض حتى لا يتم الالتفات إليهما. وبالفعل، فإنه كلما كان ثمة سـفر تحت الأرض، تكون هناك مرحلة خفية يجب اجتيازها. يرمز العالم التحت - أرضي، دائمـا، إلى العالـم الخفي، عالم العجائب والدلالات الباطنية. السـفر تحت الأرض، في حكاية كايدارا، سـفر باطني، والسـفر على سطح الأرض سفر ظاهر. ترمز الأرض أيضا إلى الحماية. يوجد با - وامندي وسيري في مأمن تام وهما في أحشائها.

ويمثل هـذا الذهاب والإياب تحت الأرض، أيضا، ضرورة التحلي بالكتمان. فعندما اسـتولـى با - وامندي وسيري على اليقطينة المعدنية، يكونان قد حققا انتصارا كبيرا على المستوى الخفي. ومـن الضروري عدم جهرهما بهذا الانتصار؛ لأنهما كلما لـم يظهر لهما أثر ولم يعرفهما أحد، يكون ذلك أكثر فائدة لهما.

(**) تظهر هنا بوضوح كامل الأشعةُ السبعة ذات الألوان المختلفة الكامنة في النظر ذي اللونين لكوبو - نولو. فتحت هذه النظرة، التي تعد رمزا للوحدة وللمعرفة الكاملة، لا يمكن للفوضى إلا أن تصبح نظاما: يختفي الوهم وتذوب التمائم كما تذوب الزبدة المعرضة للشـمس. وفضلا عن ذلك، فإن نجدو ديوال، مادامت قد اسـتعملت قواتها الشريرة السبع لإشباع نهم الإله كومباسارا الأسير في اليقطينة، فإن من الضروري وجود سبعة أشعة مضادة كي يتم إبطال المفعول.

الزر، فانفتحت اليقطينة كما تتفتح الوردة بفعل الشمس. خرج منها جراب من جلد قطٍّ أسود يحتوي على جِنّيٍ متكلم، وسقط على الأرض.

بمجرد اتصال الجراب بالهواء، صاح الجني الذي يوجد بداخله، وهو يعتقد أنه في حضرة نجدو ديوال:

أحييك أيتها السيدة! سأنفذ طوعا كل أوامرك، لكن اسمحي لي، قبل ذلك، أن أطلب منك ما عليك أن تقدميه لي من شراب(*)، فأنا عطشان، ويمنعني عطشي من أن أكشف لك أسرار الكون ٥١؛ أسرار السماء وأسرار الأرض المتأملة في النجوم؛ أسرار الأرض أُمّ الملكات الطبيعية التي تهيئ النباتات وتضمن عيش الحيوانات، سواء أكانت تتغذى على العشب أم على الفاكهة أو اللّحم؛ وأخيرا أسرار القمر حليفِها، مالكِ أسرار الماء والنار والهواء٥٢.

كي أتكلم، أيتها السيدة، عليّ أن أشرب حتى أرتوي؛ فأنا عندما أروي عطشي، تصبح عيناي قادرتين على إدراك ما حدث بالأمس وأتنبأ بما سيحدث غدا. أنا عندما أرتوي، أستطيع كشف سر الجنين، والحَبّ النابت في أحشاء الأرض والمعادن النفيسة النائمة في أحضان الصخر. أجل، فأنا عندما أشبع أشاهد الجواهر الثمينة في أحضان المحار الساكن في أحشاء البحر؛ لا يبقى أي سرّ مجهولا عندي، وإن كان مدفونا في أعماق الأرض!

سحب با - وامندي، بلطف، سيري من جبته وقال له بصوت خفيض:

(*) ما ستقدمينه لي «من شراب»، يعني ما ستضحين به من أجلي، ما ستقدمينه لي قربانا.

أجبه واسأله ما الذي يريد أن يشربه؛ فالبطن المملوء يتحدث أحسن من البطن الفارغ؛ ونحن في حاجة إلى هذه التميمة مادامت تخلط بيننا وبين سيدتها نجدو ديوال.

نفذ سيري نصيحته مخاطبا الجني: أنت ، يا خادما مطيعا! ، قل لي ما الذي تريد أن تشربه آتيك به في اللحظة والحين. سترتوي وستجدد بين يدي أداء قسم الطاعة.

أجاب الجني المتكلم: أشتهي كبد سمكة مهروسا مع الصمغ، ومخ ضفدعة ومَعيًّ عظاية. يُجَفَّف كل ذلك ويُدَقّ بعناية بعد أن يُفَلفَل، فيُفرَغ في قصعة مملوءة بماء غسيل الذرة. بعد ذلك أُبلَّل في هذا الماء طيلة ليلة بأكملها. آنذاك، ومع أول صرخة ديك، سأتلفظ تنبئي بعد أن أجدد قسم الطاعة بين يديك.

الحكاية لا تتحدث عن كيفية حصول با - وامندي وسيري على المكونات التي طلبها الجني المتكلم، لكن كل شيء يوحي بأن للعقرب الملكة دخلا في ذلك. عندما أقبل الليل، كان ماء غسل الذرة قد أُعد. ملأ سيري جفنة منه، وأغطس فيه الجراب الأسود الذي يحتوي الجني، ثم ذهب ليأخذ قسطا من الراحة هو ومرافقاه.

وصباح اليوم التالي، مع أول صرخة ديك، عدا في اتجاه الجفنة. لاحظ أن الجني المتكلم الكامن في الجراب، لم يكتف بشرب كل ماء الجفنة، بل شرع أيضا يقضمها. كان قد تحول إلى أفعى ضخمة وطويلة منكفئة على نفسها مثل كومة حبل. عندما اقترب سيري متبوعا ببا - وامندي، رفعت الأفعى رأسها وقالت:

أنـت يا سـيري، كنت أعتبـرك نجدو ديـوال، سـيدتي الأولى! التـي شـغّلتني ولم تسـتعملني إلا في أفعال الشـر. أنا أحييكما أنتمـا وقد خلصتمانـي. أنا (كومباسـارا)، أحد الآلهـة الثمانية والعشرين للفولانيين الرعويين٥٣. لقد حبست من قِبَل الشريـرة العظمـى داخل هذه اليقطينة المشـكلة من خليط سـبعة معادن مختلفة.

وقد حظرَت عليّ بشـدة أن ألتقي بخروف كوبو - نولو؛ لكنني أعـرف أنّكما، أنـت وبا - وامندي اسـتطعتما، برغـم الصعوبات، ولوج الجزيرة السحرية واستقدام الخروف كوبو. أنا أطلب منكما أن تسـمحا لـي بتملي هذا الخـروف المبـارك، لأن نظرته وحدها تسـتطيع تخليصي بشـكل نهائي من السلطة الشـريرة لنجدو. وعندما سـأتخلص منها سـأكون لكما كلّية وسأصبح خديمكما، آملا في أن أنجز معكما من أفعال الخير بقدر ما فعلته مع نجدو من شرور.

طلـب با - وامندي من سـيري أن يسـتقدم كوبو حتى يتمكن الجنـي - الأفعى من رؤيته. عندما أصبـح الخروف أمام الأفعى، رفعت عينيها ونظرت بنهم في كل أجزاء جسد الحيوان. وعندما أصبح عدد عيونهما أربعا (*)، تحولت الأفعى الضخمة إلى نسـرِ جبالٍ ضخم الجثة، فخاطب الرّجلين قائلا:

كنتمـا محظوظَـيْن أن آوَتْكُمـا وحمتكما العقـربُ الملكة. لولا ذلـك لكنـت، وإن بالرغـم منـي، مزقتكما إربـا إربـا. والآن اذهبا

(*) تعني العبارة «أصبح عدد عيونهما أربعا» أن نظرتيهما التقتا. هنا أيضا يبرز الدور المركزي لنظرة كوبو بوصفها قوة مُخَلِّصة.

بسرعة كي تشكرا الملكة، ثم عودا خفافا كي تمتطيا ظهري حتى نحلق بعيدا عن هذا المكان، فنجدو ديوال لن تتأخر في أن تعلم أنني قد تحررت. وبمجرد أن ينتهي إليها الخبر ستغرق الجزيرة في البحيرة، باستثناء مسكن العقرب الملكة.

شكر با - وامندي وسيري، بحرارة، العقرب الملكة التي يدينان لها بالكثير، ثم عادا بسرعة إلى النسر. قفزا إلى ظهره، معهما كوبو.

حلق الطير الضخم على الفور عاليا حتى تاه في السحاب. حلق فوق البحيرة العظمى وقطعها إلى أن أدرك السهل حيث كانت نجدو ديوال ما تزال تضيع وقتها سدى في البحث عن با - وامندي وسيري. كانت قد تعبت فجلست. فجأة شرعت آذانها تطن كما لو كانت قد سمعت هزيم رعد بعيد، لكنه قوي. إنّه الضجيج الذي يحدثه النسر. أرادت أن تنتصب واقفة غير أنها لم تستطع. فهمت على الفور أن أمرا ما سيئا بالنسبة إليها قد حدث في الجزيرة. استنفرت كل قواها كي تقف، لكنها عجزت. كان وركاها ملتصقين بالأرض.

وعندما فهمت أن الجني الذي استعبَدَتْه قد تحرر، استنفرت كل إمكانياتها الشخصية. نفخت تسع مرات في كل سُلاَمى من اصابعها. أصبحت أظافرها مثل جرّافات فشرعت تحفر الأرض حولها. لاحظت أن أعصاب جسدها قد استطالت مثل جذور، وأنها أخذت تتعمق في الأرض حيث شرعت تتقاطع مع صخورٍ وجذورٍ، فنسجت ما يشبه حصيرا. علِمت نجدو أنها قد رُبطت إلى الأرض بفعل سحر أقوى من السحر الذي اعتادت أن تصيب به ضحاياها.

تلفظت الساحرة الكبرى بتعزيم. نفخت على يمينها ثم نفخت على شمالها. تحولت أظافرها التي على شاكلة جرافات إلى إبر. استعملتها في خياطة أعصابها عصبا عصبا. استطاعت أخيرا أن تتخلص وأن تنهض. عدَت نحو الشاطئ فقطعت البحيرة. عندما أدركت الجزيرة، سارعت إلى المكان الذي دفنت فيه يقطينتها الثمينة. لكنها لم تعثر إلا على حفرة مملوءة بجمر متقد. فهمت أن كنزها قد اكتشف وأنها فقدت كل سلطان على من كان، إلى حدود تلك اللحظة، مساعدها الأعظم وخادمها المطيع: الإله كومباسارا.

عندما رفعت رأسها لمَحت في الأفق نسرا عظيم الهيئة، اختفى في تلك اللحظة نفسها خلف الجبل العظيم الذي يحيط بالبحيرة ويحول دون ولوج الجزيرة. عندما وعت مقدار خسارتها، أطلقت صيحة خيبة وأبدت غضبا كان من القوة بحيث غشت بمرِّتها كلها. عندئذ تلفظت بدعاءِ لعنةٍ رهيب، فغاصت الجزيرة برمتها، باستثناء مسكن العقرب الملكة، في البحيرة وذابت كما تذوب قطعة الملح المغطوسة في الماء.

حولت نجدو أطرافها الأربعة إلى أجنحة فردتها حولها وحلقت، حانقة، فتقدمت مجدفة في الهواء بطريقة لم يسبق لطير أن جدف بمثلها. انطلقت في ملاحقة النسر، خديمها القديم؛ لكن دهشتها كانت عظيمة بأن لاحظت أنها غير قادرة على اللحاق به برغم السرعة المدوخة التي تطير بها. دامت الملاحقة المضنية عدة أيام. ذهب النسر مع راكبيه، أخيرا، كي يحط في قرية با - وامندي، مختفين عن بصر نجدو ديوال.

عندما أضحت عاجزة عن تحديد مكان وجود النسر، بسبب انتفاء أي أثر، اضطرت، محطّمة، إلى أن تعود إلى إقامتها بويلي ويلي.

شكر با - وامندي وسيري الطير الإله بحرارة؛ فخاطبهما قائلا: إن شئتما أن أستجيب من الآن فصاعدا، لندائكما، سلماني مؤونة من بيض العناكب.

آنذاك فهم با - وامندي أن كل هِبَة قُدمت له من قبل مختلف الحيوانات في طريقه، كان لها هدف محدد. بحث في جرابه وأخرج منه العلبة التي تحوي البيض الذي سلمته إياه الأم العنكبوت فسلمها إلى منقذه. أخذها الطير بسعادة، ثم حلق واختفى في الفضاء.

ودع سيري با - وامندي والتحق بأخيه الذي وجده قد تعافى بأعجوبة، هو أيضا، من كل تشوهاته.

باغوماويل

الطفل المُبَشَّر به.

التضحية بكوبو.

هل كان الهدوء الظاهري الناتج عن انسحاب نجدو هدوءا نهائيا؟ البتة. لم يكن يعني أبدا نهاية العداء بين المشؤومة العظمى والشعب الفولاني.

قدّر با - وامندي أن من المناسب الاستشارة من جديد مع الجمجمة المتكلمة، مانعا نفسه من أن تنخدع بالسلم الظّاهري الذي يسود البلد. وضعها كالعادة في مركز الجدول الذي خطه على الأرض، ثم استحلفها بأن تدله على الوسيلة

الفعالـة للاحتمـاء من الشـرور التـي لن تتخلـف نجدو عن رميهـم بهـا ثانية. سـمع، من جديـد، الصوت الغريـب: اذبح كوبـو، قـال الصـوت. خذ منـه قلبـه ومخـه٥٤ واطبخهما ثم أطعمهمـا زوجتك. ويجب أن تقترن ليلةُ تناولِها لهما بنهاية عادتهـا الشـهرية. اعمـل أنـت من جهتـك على حلق رأسـك. وعندما تتناول هي طعامها، اقذف بشـعرك في مجمر مملوء بجمـرات متقدة. بعد ذلـك اطلب من زوجتك أن تبخر: تقف مُفرجـة سـاقيها فوق المجمر حتى يرتفـع الدخان الناتج عن شـعرك المحترق٥٥ ويلجها. في تلك الليلة نفسها افعل معها مـا يفعلـه الزّوج مـع زوجته ثلاث مـرات متواليـات. وبعد كل مرّة تعمل زوجتك على أن تلعق سبع مرات الأطراف الخمسة لجسـدك التي لا ينبت فيها شـعر أبدا: راحتـا ديك وأخمصا قدميك ولسانك.

ذهـب بـا - وامندي، محزونا من فكرة ذبـح خروفه، كي يبحث عن كوبو ويشرح له المصير الذي ينتظره. بدأ كلامه، لكن الخروف قاطعه: با - وامندي، قم بسرعة بما طالبتك به الجمجمة. هذا مصيـري، وهـذا يوم طالمـا انتظرته بفارغ الصبر. لا تشـفق على حالي، لأن في وفاتي إنقاذا لحياة عدد كبير من الناس. أسرع إذن بتنفيذ مطالب الجمجمة.

أؤكـد لك، أضاف، أن زوجتك، بعد أن تلد سـبعة أطفال ذكور، سـتضع فتـاة. لا أحد من أطفالك سـيكون له خلـف، أما ابنتك فسـتلد طفـلا معجِـزا، طفلا سـيصبح غصة حقيقيـة في حلق نجدو ديوال المشؤومة.

ستسمي حفيدك باغوماويل وستلقبه جاييل - فالو، جَذَع المنطقة الخصيبة٥٦. والآن، قم بواجبك (*).

شدّت هذه الكلمات من أزر با - وامندي، فذبح كوبو، ثم طبخ قلبه ومخه وجعل زوجته تأكلهما في اللحظة المناسبة.

عندما تمت العودة إلى ويلي - ويلي.

ما الذي حل بنجدو ديوال أثناء ذلك؟ كانت قد فقدت كل سلطان، باستثناء قدرة فك السحر عن ويلي - ويلي (**)، وهو ما شرعت فيه بمجرد عودتها إلى الجزيرة حيث خسرت لتوها معركتها ضد سيري وبا - وامندي.

أضحت ويلي - ويلي من جديد البلدة العجيبة كما كانت من قبل. كان كل شيء فيها وافرا كما كان الأمر من قبل. وكانت، بفضل موقعها في ملتقى سبعة وديان، مملوءة بالسمك ذي اللحم اللذيذ وبمختلف المنتجات البحرية الأخرى. وحدهن النساء كن نادرات مثل ندرة المياه في الصحراء. النساء القليلات اللائي يقطنها كن رائعات الجمال، لا يستطيع أي رجل يشاهدهن أن لا يندهش من حسنهن، لكن بنات نجدو ديوال السبع كن، بلا جدال، الأجمل من بين كل هؤلاء النسوة. كن بارعات الجمال، بحيث لا تستطيع حتى العيون الأكثر دربة

(*) قبل كوبو موته: تلك هي ذروة سبيل التلقين. المتعلّم يقبل أن يموت من أجل الآخرين. وهو ربما أبرز وجه من أوجه البرّ؛ وفي جميع الأحوال فهو مثال نموذجي.
على الإنسان، أحيانا، أن يعرف كيف يقلد البذرة التي تقبل أن تموت من أجل أن تنبت النبتة. يقدم كوبو هنا مثال المتعلم الممتاز. إن وفاته ستساعد على الميلاد المقبل لباغوماويل. وسيبقى حاضرا لغزُ طبيعة هذا الخروف المعجز وعلاقته بباغوماويل.

(**) كانت نجدو ديوال قد غيرت مظهر قريتها عندما دخلها با - وامندي، حتى لا يعثر فيها إلا على طرق خالية وحيوانات غريبة. وهي تعيد إليها الآن مظهرها الخلاب، لكن علينا ألا ننسى أن كل مخلوقات نجدو ديوال تقوم، بالضرورة، على الوهم.

أن تكتشـف فيهـن أدنى عيـب. كان أي رجل، بمجـرد أن يكون في حضرة إحداهن، تسـتولي عليه الرغبة في امتلاكها وتُثمله حتى لَيَأخذ في الهذيان ويصبح أشـبه بشـيطان (*). كان العطر الذي ينبعـث من أجسـاد بنات نجدو ديوال يلهب الرجـل الأكثر رزانة. وكانـت كلماتهـن أكثر إسـكارا من نبيذ العسـل، وكـن، كما نعلم، عذارى على الدوام، يسترجعن عذريتهن بعد كلّ زواج.

كـن رشـيقات كلهـن، وذوات عيون لوزيـة كبيرة، وشـعر أملس مثـل الحرير، غزير مثل عشـب نَضِـر. وكانت قدودهـن الرقيقة، مثل عمل هندسـي بديع. أما مفاصلهن، فكانت دقيقة، وأذرعهن وسـيقانهن فـي منتهى الرشـاقة. وأخيرا، كان فيهـن ثلاثة أمور شديدة البياض: الأسنان والبشرة (**) وبياض العينين.

أسـكنت نجدو ديوال بناتها مسـاكنَ هي جنـات حقيقية على الأرض. عادت إلى عادتها القديمة، فأرسلت في ربوع البلد عملاءَ مكلفين بحث الشباب على الالتحاق بويلي - ويلي، حيث تعيش سبع فتيات بالغات سن الزواج، هن جميعا رائعات الجمال.

انتشرت دعاية نجدو ديوال إلى درجة أن ويلي - ويلي لم تخل يوما من سـبعة غرباء يأتون طالبين يد الشـابات السبع. طفقوا يلقون المصير نفسـه الذي لقيه من سـبقهم، من دون أن يخامر أحـدا شـكٌ: كان يقـال للقادمـين الجـدد بـأن القدامـى رُفضوا فغادروا المدينة من مدخل آخر.

(*) يقارَن الرجل، عند الفولانيين، بالشيطان، عندما لا يستطيع السيطرة على غرائزه، ويسقط في المجون؛ ذلك أن الشيطان، كما يقال، لا يخجل من شيء، إذ هو أصلا متفسخ الأخلاق. ويعد ذلك نقيضا كليا للتحكم في النفس الذي يعطى له شأن عظيم في التقاليد والتعاليم الأفريقية.

(**) «بياض» البشرة هو إحدى مميزات الجمال الفولاني. ويتعلق الأمر بلون فاتح جدا.

كانت نجدو ديوال، أكثر من أي وقت مضى، في حاجة إلى الدم الذكوري الشاب كي تسترجع قوتها السحرية التي فقدتها في الآن نفسه الذي فقدت فيه يقطينتها المعدنية.

وضعت ويلوري، كما تنبأ بذلك كوبو، سبعة أطفال ذكور سماهم أبوهم حمادي وسامبا وديمبا ويرو وياطي ونجوبو وديلو57، ثم وضعت فتاة سميت وامندي (المحظوظة).

عندما ترعرع هؤلاء الأبناء السبعة وأصبحوا شبابا وسيمين، سمعوا ما يقال عن فتيات سبع يردن الزواج؛ وأنهن في غاية الجمال وأميرات، من بلد رائع تحكمه ملكة عظيمة؛ فطلبوا من أبيهم الإذن بالتوجه إلى البلدة البعيدة ليجربوا حظهم.

وافق با - وامندي وسمح لأبنائه بالسفر وباركهم، وهو لا يشك للحظة في أن الملكة المعنية هي نجدو ديوال، وأن البلدة الرائعة ليست إلا ويلي - ويلي الغريبة والمنفرة كما عرفها.

زار الإخوة السبعة، وهم في غاية الفرح، أختهم الشابة وامندي، كي يعلموها بما هم مقبلون عليه ويودعوها. في تلك الأثناء، كانت حاملا بالطفل المبَشَّر به، الذي كان با - وامندي، أبوها، ينتظره. أعريت المرأة الشابة، جراء إحساس راودها، عن تخوف من فكرة هذا السفر، فأخطرت إخوتها بقلقها قائلة:

أنا أصغركم سنا، لكن صُغْرَى إخوتها، إن لم يكن لها الحق في تقديم نصيحة، فإن لها الحق، على الأقل، في التعبير عن رأيها. أنتم، بالتأكيد، حصلتم على إذن من أبينا، ولكنني، مع ذلك، يراودني خوف، ربما لا سند له، من أن أراكم هكذا تقتحمون

المغامـرة فـي بلـد لا تعرفونـه، وبالخصـوص مـن أنكـم ذاهبون لتطلبوا يد أميرات! ألم يحذر جدنا الأول، بويتورينغ، بقوة، من ثلاثـة أمور: أولا، من أميرة تُزوج غريبا عاديا، ثم من تقديم هبة لغريـب هي عبارة عن حقل يقـع، تحديدا، خلف القرية، وأخيرا، مـن عجلةٍ قد يكـون فولانيون أهملوها في مضـرب من مضارب خيامهم؟

هذه الأمور الثلاثة الثمينة جدا، إن تم تسليمها بهذه الطريقة، فإنها لن تكون سـوى نذير شـؤم. والحال أنكم، بالنسـبة إلى هذه المملكة البعيدة، لستم سـوى أغـراب مبتـذلين. إن صدقتـموني، يـا إخوانـي، الغوا هـذه الرحلة وابحثـوا لكم عـن مرافقات على القدر نفسه من مستوانا. ستعثرون عليهن بالتأكيد في بلدنا.

ضحك الشـباب فـي وجهها، معقبين أن المرء، كي ينال شـهرة كبيـرة، عليه أن يجـرؤ على اقتحام أخطار عظمى. أجل، صحيح أننا لسـنا سوى أغراب عاديين، لكننا سـنجرب، مع ذلك، حظنا. وصدقينـا، أنـك بعـد بضعـة أشـهر، سـتكونين أخت أزواج سـبع أميـرات فاتنـات. كل مـا نطلبه منك هو أن تصلـي من أجلنا وأن تفكري فينا دائما.

- بمـا أنكـم ترفضون الأخـذ بنصائحي، أجابـت الأخت، فإنه ليـس لـي، بالفعـل، أية حيلـة أخرى غيـر أن أصلي مـن أجلكم. لكنني كنت سأقوم بذلك حتى لو كنتم لم تطلبوه مني.

حينئـذ، غادرها الشـباب السـبعة. وصباح اليـوم التالي، عند انبـلاج يـوم جديـد، أخـذوا، فـي منتهـى الابتهـاج، طريـق بلـدة العذارى السبع.

قضت وامندي ليلها وصباحها تصلي وتدعو. ذرفت دموعا غزيرة، وخلال اليوم الثاني استيقظت فجرا وطفقت تبكي من جديد. عندما أدركت الشمس في السماء علوًّ ما يعادل أطوالَ سبعة جوال؛ الرمح الفولاني العظيم، سمعت صوتا يخاطبها:

جففي دمعك يا وامندي، سأحرص على ألا يصيب إخوتَك أي مكروه.

صاحت وامندي مدهوشة وخائفة بعض الشيء: ما مصدرك، أنت يا صوت الخير؟ أين يوجد صاحبك؟

اجاب الصوت: يوجد صاحبي في بطنك. أنا صوت الطفل الذي يوجد في أحشائك. ثم أضاف الصوت: لِدِيِني فورا حتى أستطيع التحليق ونجدة أخوالي. لِدِيِني بأسرع وقت، لأن أي تأخر سيفسد كل شيء!

– أنت يا صبيا معجزا! صاحت وامندي. إن طفلا في بطن أمه ويعرف أن يقول: «أمي لِدِيِني»، لهو قادر بالتأكيد على أن يولد من تلقاء نفسه!

– ليكن، عقب الطفل العجيب. تماسكي، سأخرج!

– أخذت وامندي وضعية المرأة الواضعة، منقادة مثل تلميذ مطيع. انبجس الطفل من جسدها، كأنه مقذوف بنابض، وسقط في جفنة كبيرة مملوءة ماء، كانت موضوعة بالقرب منها، فاغتسل منتفضا ثم قال، وهو يخرج من الماء:

– أماه! عليّ أن أنصرف. تمنيْ لي سفرا سعيدا، لكن قبل ذلك أطلقي عليّ اسما.

- اسمك هو باغوماويل، قالت وامندي، ولقبك هو جاييل - فالو، جَذَع المناطق الخصيبة. ثم تمنت له سفرا سعيدا وباركته.

انصرف باغوماويل. وقبل أن يلحق بأخواله، كان قد امتلك قامة طفل ذي سبعة أعوام. وعندما لمح المسافرين السبعة، صاح:

أنتم يا أخوالي! أنتم! انتظروني. أنا باغوماويل ابن أختكم وامندي.

التفت الشباب مشدوهين كي يروا جيدا هذا الطفل الذي يدعي أنه ابن أختهم، وخاطبوه قائلين: نحن لا نعرفك. فنحن لا نستطيع، إذن، أن نكون أخوالك.

- لا ضير أن لا تعرفوني، قال الطفل. اسمي باغوماويل، جاييل - فالو، وأنا الطفل الذي ولدته أختكم وامندي هذا الصباح. وقد أتيت كي أرافقكم وكي أجنبكم الموت الذي تتجهون نحوه مبتهجين، لا يخامركم شك!

- ابتعد عنا! قال الإخوة السبعة. انصرف! لا يمكنك أن تكون إلا تجسيدا لابن عفريت، لا ابن أختنا وامندي! وحتى لو كانت أختنا قد ولدت طفلا هذا الصباح، فإنه ليس بإمكانه أن يصبح بهذه القامة. اغرب إذن عن أبصارنا وإلا انهلنا عليك ضربا، كلٌ من جانبه، حتى تلقى حتفك!

رفض باغوماويل أن يعود على أعقابه. أمسك به حمادي، أسنّ الإخوة، وصفعه صفعة قوية. عندما هم بصفعه ثانية، انفلت منه باغوماويل واختفى كما لو بفعل السحر. عندما اعتقد المسافرون السبعة أنهم قد تخلصوا منه، واصلوا طريقهم.

بعد أن قطعوا مسافة، لمح حمادي، فجأة، على قارعة الطريق «تينغـاد»: طاقية الفولانيـين المصنوعة من القش والمطرزة بجلد متعـدد الألـوان، فصـاح: يـا لَحظي! لقـد وجدت مـا أضعه على رأسـي كي أتزين وأمشـي باعتزاز بالنفس؛ مما سيبهر، بالتأكيد، أسنّ الأميرات السبع!، قال ذلك وأمسك بالطاقية ووضعها على رأسه، ثم واصل الطريق رفقة إخوته.

فجأة سـمع صوتا كأنه صادر عن الطاقية: أنت يا خالي! قال الصـوت. إن لـم تكن أنت قد تعبت من حمـل طاقية بهذا الثقل، فإننـي أنا قـد تعبت من أن أُحمـل كأنني طاقية! نـزع حمادي - الذي تعرف صوت الطفل، والمتأكد من أنه أمام جنٍّي خبيث - ما يضعه على رأسه وقذف به بعيدا خارج الطريق.

شـعر الإخوة السـبعة بالخوف، فشـرعوا يعـدون للابتعاد في أسرع وقت ممكن عن الطاقية المسحورة. لم يعوا، في اضطرابهم، أنهـم قـد غـادروا الطريق ودلفوا فـي دغل كثيف. فجأة، شـرعت أغصان الشـجر التي تحيط بهم تتصادم بعنف. سـمعوا أصواتا تشـبه الصّرير الناتج عن ضغط الحيوانات المفترسـة لأسـنانها. كانت هذه الأصـوات الغريبة، الممزوجة بزقزقة العصافير، ناتجة عن ريح تهب بقوة، طاوية باسطة كل ما تصادفه في طريقها، من أقل قذاة عشب إلى أقوى الأغصان.

لمح حمادي وإخوته شجرة باوباب ضخمة، فعدوا في اتجاهها للالتجاء إليها. وكـي يقاوموا العاصفة، التصقوا بظهورهم إلى جذعها ملتحمين بعضهم ببعض.

لا تبـدو لـي هـذه الريـح عادية، قـال حمادي. لا شـك في أن

الجني المتحول إلى طاقية هو الذي أرسلها علينا. ما كان عليّ أن أقذف به، قال، بل كان عليّ أن أحرقه!

آه يا أخي حمادي! قال سامبا، الابن الثاني، متباكيا؛ كيف سنفعل الآن للعثور من جديد على طريق بلدة العذارى السبع؟

لم يكد سامبا ينهي كلامه حتى رأى الإخوةُ السبعة سرب نحل يقترب منهم محلقا طانّا. كان هذا النحل، الذي عاد بعد أن تزود من رحيق الورد، يقيم مسكنه في تجويف بين أغصان شجرة الباوباب، عملاقة الدغل. بمجرد اقترابها لاحظت الوجود غير المرغوب فيه لأبناء آدم. هم بالتأكيد سارقو عسل؛ فشرعت تستعد لمهاجمة الإخوة السبعة لحماية المادة النفيسة التي قضت في إعدادها أشهرا عدة.

كان سرب النحل من الكثافة، فوق رؤوس الشباب، بحيث لم يعودوا يستطيعون تمييز أوراق الشجرة فوقهم.

في اللحظة التي كان النحل يستعد لمهاجمتهم، ظهر فجأة، بين الأرض والسماء، ومن حيث لا يدري أحد، مجموعةٌ طائرة من العظايات المجنحة، فهوت على النحل وازدردته في رمشة عين، عن آخره (*).

تحير الإخوة السبعة، لأن المعروف أن ما حصل يناقض كل ما نعرفه عن العظايات. لنهرب بأسرع ما يمكن، يا حمادي، قال سامبا، وإلا فإن العظايات التي ابتلعت النحل ستنتهي بأن تبتلعنا نحن أيضا!

(*) عند هذا الحد من الحكاية، سيكون من البديهي أن تُعتبر أي ظاهرة تأتي لمساعدة الإخوة السبعة، تمظهرا لباغوماويل.

عـدا الشـبـان بين الأشـجار إلـى أن عثـروا، في النهايـة، على الطريـق. هل تلك هي الطريق التي تـؤدي إلى البلدة العجيبة؟ الواقـع أنهـم، الآن، لا يهتمـون بشـيء: منتهـى رغبتهـم هـو أن يبتعـدوا عـن الباويـاب ومغادرة الدغـل. بما أننا قـد عثرنا على الطريق، لنسترجع أنفاسنا. قال حمادي.

استراحوا، إذن، لبعض الوقت، ثم أخذوا الطريق قُدما.

بعد ذلك بقليل، رأى سـامبا عمامة لامعة مرمية على قارعة الطريـق. يا لحظي، حظـي العظيم! صاح. أنـا أول من رأى هذه العمامة؛ ويمكنني أن أمتلكها، لأن أول من رأى شيئا يصبح ملكه تمامـا كما يصبـح أول من يحتل مكانا صاحبه. سـتمكنني هذه العمامة من اسـتكمال زيي، ولا شـك في أن الأميرة الثانية، التي ستكون بالتأكيد زوجتي لأنني الابن الثاني، عندما ستراني أتزيا بها، ستجدني جميلا.

قال ذلك وعدا لأخذ العمامة وأدارها باعتزاز حول رأسـه، ثم شـجع إخوته، نشـيطا: هيا، لنتقـدم! فالطريق تـؤدي دائما إلى وجهة ما.

واصـل الإخوة السـبعة طريقهـم. وبعد بضع لحظات، سـمع سـامبا صوتـا يوشـوش في أذنـه: أنت يـا خالي! إن كنـت أنت لم تتعـب من حمـل عمامة لامعة، فأنا قد تعبت من أن أكون عمامة لامعة يُتَزيا بها! نزع سامبا، معتملا، بسرعة عمامته وقذف بها، كمـا فعـل أخوه حمادي، بعيدا في الدغل. عد إلى أمك، محمولا على ظهر الريح، أيها الجني الإبليسي! صاح بغضب.

واصل المسافرون تقدمهم. رأوا، فجأة، على يمينهم، مجموعة

من القرود معلقة إلى شجرة. قردات تحمل صغارها معلقة مثل قريات تحت بطونها وهي تقفز من غصن إلى غصن. وعلى الرغم من سرعة وطول قفزاتها، فإن الصغار المتشبثين بها لم يسقطوا. وكانت قردة أخرى معلقة إلى غصن بيد، وهي تتأرجح بلا مبالاة وتطلق صيحات صغيرة، وملوحة باليد الأخرى للمسافرين، كأنها تحييهم وتدعوهم للالتحاق بها. وبعضها الآخر، كان يكتفي بالجلوس على الأغصان، الأرجل ممدودة وهي تحك خفية خصرها، كأنها تريد أن تظهر احتقارها للشباب السبعة الذين تقودهم غريزة الحب نحو موت محقق.

لم يترك رفقاؤنا السبعة فرجة القرود هذه تستأثر بهم (*)، فواصلوا طريقهم. لكن ها ديمبا، الابن الثالث، يصيح بدوره: يا لحظي، حظي العظيم! يا حمادي! ويا سيمبا، أنا أكثر حظا منكما، لأن ثمة جبّة هناك تنتظرني! وبالفعل، فقد كان لمح لتوه، على الأرض، جبة رائعة مطرزة لا يراها إخوته. عدا وتناولها فشرع يمشي، بعد أن ارتداها، بخيلاء. لا شك البتة، قال، في أن الأميرة الثالثة التي ستكون ملكي وفق ترتيب الأعمار، ستجدني رائعا بهذا اللباس. ستصنفني مع الأغنياء وستسلمني نفسها دون صعوبة.

واصلوا تقدمهم. ولم يكد ديمبا ينتهي من الحديث عن جبته، وإخوتُه من الإطراء عليه، حتى سُمع صوتٌ من جديد: أنت يا خالي! إن كنت لم تتعب من ارتداء جبة مطرزة، فأنا قد تعبت من

(*) تتجند كل الأشياء، في أثناء مرحلة التعلّم، كي تحول اهتمام المتعلم وتشغله عن هدفه. تمثل القرود هنا الانغماس في أطايب الحياة، بل تمثل البهيمية. من المهم أن يظل الانتباه مركزا على الهدف وألا يتزحزح التصميم.

أن أكون جبة تُلبس! نزع ديمبا، مثل أخويه، جبته بسرعة خاطفة وقذف بها بعيدا، وهو يكيل السباب للجني.

واصل المسافرون السبعة، متفكرين، التقدم. فجأة تكوّن إعصار قُدّامهم، وشرع يتقدم بسرعة شديدة. كان ما يدور أمامهم خارقا للعادة، خصوصا أن الفصل لم يكن مناسبا لظاهرة مثل هذه. وفجأة، اجتاحهم الإعصار وحملهم مثل أوراق ذابلة فأنزلهم، بشكل معجز، ومن دون عناء، على الطريق المؤدية إلى ويلي - ويلي. أما الطريق التي كانوا يقطعونها من قبل، فكانت تؤدي، من دون شك، إلى غابة مأهولة بالضواري الكاسرة.

ظلوا للحظة صامتين مدهوشين محيرين من كل هذه الظواهر الخارجة عن المعقول. قال ييرو، الابن الرابع، وسط صمت الاخوة: أتعتقدون، يا إخوتي، أن القرود التي عرَّضت بنا، والإعصار الذي حملنا لتوه أمور عادية؟ أنا، من جهتي، لا أصدق ذلك أبدا. ألا ترون أن علينا أن نعيد النظر في موقفنا من الطفل الذي اعتبرناه جنيا وهو يدعي أنه ابن أختنا وامندي الوحيد؟

عقب ديمبا، الابن الثالث: أغلق، يا ييرو، فمك الشبيه بفك بغل؛ فالفم البشري الذي لا ينطق إلا بترهات، ليس البتة سوى فك بغل(*). صمت ييرو، لأن التقاليد لا تسمح له بالتعقيب على من هو أسن منه. أطرق رأسه متفكرا، لكنه عندما عاد، بعد لحظات، إلى رفع بصره، لمح بعيدا سروالا منتفخا مطرزا بحرير متعدد الألوان. إن جزاء أخ صغير يحترم أخاه الأكبر، لا يتأخر أبدا! صاح. هأنذا ألمح هناك، على طريقنا، سروالا رائعا. إنه حظي، حظي

(*) Ganache: كلمة تعني، في الآن نفسه، فكّ البغل وشخصا لا حظ له من الذكاء.

العظيم يهبني إياه لأنني أول من رآه. ثم سارع إلى أخذ السروال فلبسه. آه! قال، ستجدني الأميرة الرابعة، التي ستكون دون شك من حظي، الرجل الأكثر حشمة في الدنيا كلها لأنني أصبحتُ أملك لباسا غاليا كي أستر عورتي عن عيون البشر الفانين.

ثم واصل بيرو وإخوته طريقهم، وهم يتحدثون فيما بينهم عن كل الظواهر المذهلة التي طرأت لهم، إلى أن تم العثور على السروال. فجأة، قطع صوت مناقشتهم: أنت يا خالي بيرو، قال الصوت، إن كنت أنت لم تتعب من ارتداء سروال منتفخ مطرز، فإنني من جهتي، قد تعبت من أن أكون سروالا منتفخا! في رمشة عين، نزع بيرو السروال وقذف به بدوره في الدغل وهو يصيح: أن تذهب أيها الجني وتلتحق بأمك وتعمل على أن ترضع منها، خير لك من كل ما فعلته حتى الآن (*)! ثم ابتعد الشباب وعدوا مهموزين بالخوف من الجني الذي لم يكف عن تحديهم بمكر.

كان باطي، الابن الخامس، أسرعهم في العدو. وعندما وصل إلى انعراجة على الطريق، رأى على القارعة زوج نعل ظاهر الجودة فصاح: إخوتي! إنني ألمح أمامي زوج نعل رائع. إنه حظي! حظي العظيم، لأنه سيمكنني من أن أبدو ذا قيمة في عين الأميرة التي ستكون، بالتأكيد، زوجتي. وفي انتظار ذلك، سيساعدني على أن أمشي براحة! ثم ارتدى النعل مزهوا.

(*) الموقف غير المنطقي لـ بيرو هو نموذج للاتجانس وللامنطق الطبيعة البشرية نفسها. يتصرف الإخوة السبعة (مثلنا تماما) ناسين، في الحين، ما قالوه من قبل، متجاهلين، بالتوازي مع تقدمهم، ثمرة التجربة الماضية، مرتكبين، باستمرار، الأخطاء نفسها. يعتقد كل واحد منهم أن المحنة محنةُ الأخين وليست محنتَه... وهكذا، يكون من الصعب، في الحياة، الاستفادة من تجارب الآخرين. على كل واحد أن يكتسب تجربته الخاصة، بل غالبا ما يكون عليه أن يكرر التجربة نفسها مرارا قبل أن يفهم دلالتها.

واصل المسافرون، من جديد، طريقهم. ومن جديد ارتفع صوت فتي: أنت يا خالي باطي، يا خامس ابن لجدي با - وامندي! إن كنت أنت لم تتعب من ارتداء حذاء، فإنني من جهتي، قد تعبت من أن أكون حذاء. سارع باطي، الذي فوجئ، كما فوجئ إخوته الأربعة الأسن، بنزع الحذاء وبالقذف به بعيدا. أيها الجني الصغير! صاح، اذهب إلى أمك واطلب منها أن تهدهدك وأن تغني لك حتى تنام، وكف عن العودة للوسوسة لأبناء آدم!

تعب الإخوة السبعة من المشي والعدو. شعروا بالجوع والصهد والعطش. لمحوا، أخيرا، في البعيد، نابتة في شكل مثلث مضغوط، أشجار الدغل الثلاث: شجرة باوياب وشجرة كايلسيدرا وشجرة جبن ٥٨. كانت أوراق الشجرات الثلاث كثيفة وأغصانها متداخلة، مما شكل قبة مخضرة يمتد تحتها ظل رائق. سارعوا نحو هذا الملجأ الرياني وتهالكوا على الأرض، آملين استعادة قواهم. والحال، أن عند قدم الباوياب، كانت توجد آنية مملوءة بالماء العذب؛ وعلى ثلاثة أثافٍ، عند جذور شجرة الجبن، كانت توجد طنجرة، وتحت الكايلسيدرا، كانت توجد عدة سلال تحوي لحما طريا وزروعا وبهارات.

كان نجوبو، الابن السادس، هو من انتبه إلى وجود الجرة والطنجرة والسلال. وشوش لأخيه باطي: هل ترى ما أراه أنا في هذه اللحظة عند أسفل الشجرات الثلاث؟

- لا، أجاب باطي.

- إذن، فأنا أسحب كلامي. لم أقل شيئا.

تمدّد الشباب السبعة بفعل التعب، وسرعان ما ناموا مثل

أطفـال صغـار. لكن، هل يمكن لبطـن فارغ أن ينام لمـدة طويلة؟ بالتأكيد لا. لم يظلوا نائمين إلا لمدة اسـترجاع قواهم. فر النوم مـن أعينهـم فاسـتيقظوا، كل واحد منهم يضغط حبل سـرواله أكثـر علـى بطنـه كـي يخاتل جوعـه ويُخرج لسـانه تحـت تأثير عطش شـديد. كان نظرهم من الاضطراب بحيث لم يسـتطيعوا أن يـروا، علـى مقربـة منهم، قصعـة كبيرة مترعـة طعاما لذيذا أُعد بطريقة معجزة، وقرعة تحتوي ما يكفي من ماء بارد لإرواء عطشـهم. غير أن بخار الطعام داعب خياشيمهم وفتح عيونهم. بمجرد أن اكتشفوا القصعة الكبيرة اللذيذة، لم يكلف أحد منهم نفسـه دعـوة الآخرين للاقتراب مـن الأكل، كما تقتضـي العادة. أغطسـوا أيديهـم كلهم، دفعة واحدة، وشـرعوا يأكلـون، ثم أنهوا بأن شربوا من الماء.

عندمـا شـبعوا، وقف نجوبو كـي يذهب ويضـع القصعة أبعد قليـلا (*). آنـذاك رأى خاتمـا رائعا يلمـع، مطعّمـا بحجر كريم ثمين أصبـح مـن إشـعاعه شـبيها بمصباح. صـاح: يا لحـظي، يـا لحظي العظيم! آه يـا إخوتي الكبار، لقد عثـرت على جوهرة ثمينـة سـأحظى بفضلهـا، بالتأكيـد، بتقديـر كبير مـن زوجتي وسـتعتبرها دليلا على ثروتي؛ فالخاتم الذي سـأقدمه لها ليس جديرا إلا بملك. ثم وضع نجوبو، مبتهجا، الخاتم في أصبعه.

بعـد أن تنـاول الإخـوة الطعام واسـتراحوا، واصلـوا رحلتهم بمزيد من الشجاعة والتحمل. مشوا خلال جزء مهم من المساء. وفي لحظة، سـمعوا مـن جديد الصوت الذي أصبحـوا يعرفونه

(*) الأصغر، حسب ما تقتضيه التقاليد، هو الذي يقوم بالمهام الصغيرة لمصلحة من هم أسن منه.

جيـدا: أنت، يا خالي نجوبو، يا سـادس أبناء جدي با - وامندي!
إن كنـت أنـت لـم تتعـب من حمـل خاتم فـي أصبعـك، فأنا، من
جهتي، تعبت من أن أُحمل بوصفي خاتما! نزع نجوبو - كما فعل
بقية إخوته - الخاتم من أصبعه وقذف به بعيدا في الدغل وهو
يصيح:

أيهـا العفريت اللعين! اذهب إلى أمك الجنية واطلب منها أن
تحملك على ظهرها حتى تكبر، وكفً عن خداع الناس الطيبين!

واصلـوا المسـير. اختفـت الشـمس علـى الأفق الغربـي. لفّت
ظلمـة كثيفـة الطبيعة بمعطفها الكبير الداكـن. عندما لم يعد
المسـافرون يرون شيئا أمامهم، قرّروا التوقف. لكن ها ديلو، سابع
وآخـر أبناء با - وامندي، يلمح علـى بعد خطوات حزاما معجزا
يشـتعل وينطفـئ مثل دودة منيـرة. صاح: يا لحظـي! يا لحظي
العظيـم! ابتهجوا يا إخوتـي، فها جينو قد وضع ملك يميننا ما
ننير به طريقنا، فأنا أرى، بالفعل، حزاما منيرا هو ملك لي. وهذا
الحـزام لن ينير لنا الطريق ويمكننا من مواصلة مشـينا، فقط،
بل سـيقنع أيضـا الأميرة السـابعة بالاقتران بي، إذ سـيقدم لها
فكـرة عن حجم ونوعية ثروتـي. عندئذ ذهب ديلو ليأخذ الحزام
الجلدي المعجز وشدّه على وسطه. أصبحت الأشعّة المضيئة التي
تنبعث منه تنير الطريق مثل مشعل.

استغل الإخوة السـبعة رطوبة الليل كي يقلصوا المسافة التي
مازالت تفصلهم عن بلدة العذارى السـبع. كانوا يمشون من دون
تعب ومن دون أن يقلقهم شيء إلى أن سمعوا أول صياح للدّيك.
آنذاك فقط قرّروا أن يسـتريحوا. حـادوا عن الطريق وذهبوا كي

يستريحوا تحت شجرة باوباب قريبة. وبمجرد أن جلسوا ارتفع من جديد الصوت الصغير: أنت يا خالي ديلو، يا سابع إخوة أمي وامندي! إن كنت أنت لم تتعب من حمل حزام، فأنا، من جهتي، قد تعبت من أن أُحمل بوصفي حزاما! تناظر الإخوة السبعة. قال حمادي، الأخُ البكر لديلو الأخ الأصغر: هات ذاك الحزام، يجب أن نضع حدا لهذا العفريت الذي لا يكف عن خداعنا. نزع ديلو حزامه وسلمه لحمادي. وضعه هذا الأخير أمامه وقال له: أيها الحزام! أخبرنا بحقيقتك ولماذا تتعقبنا.

تحول الحزام، على الفور، إلى طفل ذي عِشر أو اثنتي عشرة سنة، فقال:

أنتم يا أخوالي! صدقوا أو لا تصدقوا، فأنا ابن أختكم الصغرى وامندي. لكنني لست طفلا عاديا: أنا طفل مُرْسَل؛ ومهمتي هي أن أقاوم شرور نجدو ديوال، الساحرة العظمى، وأن أجردها من قدراتها العدوانية حتى يستعيد بلد هيلي ويويو ازدهاره القديم ويعيش من جديد في سلم وسعادة. الحقيقة هي أن البلدة الأعجوبة التي أنتم متوجهون إليها، ليست أي بلدة أخرى غير بلدة ويلي - ويلي، البلدة السحرية التي تعتبر نجدو ديوال سيدتها، أما الأميرات السبع، طالبات الزواج، فلسن إلا بناتها.

اقبلوا أن أرافقكم إلى ويلي - ويلي، لأنكم إن ذهبتم من دوني لن تعودوا منها أحياء. ستمتص نجدو ديوال دمكم وسترمي بلحمكم للعقبان التي تعشش على قمم الجبال السبعة التي تحيط بالبلدة.

التفت سامبا وديمبا نحو أخيهما الأكبر وقالا: لنقبل يا حمادي بابن اختنا، لنجعل منه رفيقا لنا؛ فعلى الرغم من خداعه لنا، لم ينلنا من فعله أي سوء، بل بالعكس، فقد أنقذنا كل مرة وُجِدنا فيها في مأزق. وكي نبلور اتفاقنا، يقطع كل منا قطعة من ثيابه ثم نستجمع القطع السبع لنصنع منها جبة نخلعها على ابن أختنا.

اتفق الإخوة السبعة، فقبلوا ابن اختهم وصنعوا له جبة مأخوذة من ملابسهم الشخصية ثم استعدوا لمواصلة الطريق بعد أن خاطبوه قائلين: يا جاييل - فالو، أيها الجَذَع، أنت لن تكون حامينا فقط، بل ستكون دليلنا أيضا. صحيح أننا أخوالك وأنك ابن أختنا، لكننا نضع فيك ثقتنا. فنحن معك مستعدون للذهاب لمواجهة نجدو ديوال نفسها.

- يا أخوالي، عقّب باغوماويل، سأتحول الآن إلى سحابة عظيمة. سأحلق فوق رؤوسكم كي أسبر الأفق وأرى كيف هي الأحوال، لأن لدي انطباعا بأننا قد ولجنا سلفا دغل ويلي - ويلي (*).

تحول باغوماويل، بالفعل، إلى سحابة عظيمة ارتفعت عاليا في السماء. صاح، من علوه، تجاه أخواله. أرى في البعد بحيرة عظيمة سيكون علينا أن نقطعها قبل أن نصل إلى ويلي - ويلي. سأسبقكم وستجدونني على الشاطئ.

قال ذلك وتوجه رأسا إلى البحيرة فأدركها فيما لا يُذْكَر من الزمن. عندما نزل على الأرض واستعاد شكله العادي؛ طفلا

(*) يقصد منطقة أو ضواحي ويلي - ويلي. فلكل قرية أو بلدة «دغلها»؛ يعني ضواحيها؛ ريف ضاحيتها. بعده تأتي «أعالي الدغل» التي تكون نهايتها بداية أعالي دغل قرية أخرى.

ذا اثنتي عشرة سنة، فحص بدقة كل أجزاء البحيرة وضواحيها، ثم جلس منتظرا وصول أخواله.

وصل هؤلاء بعد مسيرة طويلة. وبما أنهم وصلوا عطاشا منهكين من الحر، كان أول ما قاموا به هو أن نزعوا ملابسهم كي يغطسوا في البحيرة ويشربوا من مائها، لكن باغوماويل منعهم قائلا:

- احذروا يا أخوالي أن تغتسلوا من هذه البحيرة وأن تشربوا من مائها. فهي ملوثة جراء إهراق بول نجدو ديوال فيها. كل إنسان يغتسل منها أو يشرب من مائها، ولو جرعة واحدة، يثمل ويصبح مخبولا قليل العقل، ويصير غبيا وأبلد البلداء، وسينفّذ، من دون تردد، كل ما تطلبه منه بنات نجدو ديوال.

ارتعب أخوال باغوماويل ونفذوا نصيحته. احتفظوا بملابسهم وقطعوا البحيرة محاذرين. وصلوا قرب ويلي - ويلي، لحظات قبل مغيب الشمس. كانت الأبقار، لحظتئذ، عائدة من المراعي وهي تخور كأنها تنادي على صغارها؛ وكانت الطيور، من مختلف الأحجام، متعبة من تحليق يوم كامل، تتجمع على أغصان الأشجار مزقزقة بهمّة كأنها تحكي ما عاشته من أحداث طيلة يومها. وكانت العجول تخور بكل قوتها كأنها تجيب نداءات أمهاتها. أما الحمير فكانت تطلق نهيقا حنينيا كأنها تبكي اختفاء الشمس وسط عتمة الليل. ديكة - مزينة رؤوسها بتيجان مزخرفة مثل واجهات قصر ملكي، أو كثيفة ومضفورة مثل شعر ملكة - تطلق صيحات نصر تجيب عنها صيحات أطفال يحتجون على حمّام مسائي أو يطالبون بالرضاع.

وجد الإخوة السبعة، على مدخل المدينة، حارسا، هو بواب البلدة. كانت تنحصر مهمته في استقبال وإيواء الشبان الذين يأتون طالبين يد بنات نجدو. لا أحد غيره كان يملك لا الحق ولا الجرأة للتوجه بالحديث للغرباء الذين يأتون لويلي - ويلي. استقبل بودٍ باغوماويل وأخواله وقادهم إلى المكان الذي شيدت به إقامات فاخرة. كانت جدران الإقامات عالية مستقيمة، حيطانها ملساء ومتماسكة إلى درجة أنه كان بالإمكان شحذ شفرات مُدى عليها. كانت مكسوة برسومات جميلة تمثل كل كائنات الطبيعة بدقة متناهية، تجعلك تعتقد أنها حيوانات حية قادرة على القفز. كانت هذه الرسومات بكل الألوان، لكن اللون الأخضر، لسبب غير معروف، كان هو اللون المهيمن. أما مصاريع الأبواب فكانت من فضة مخلوطة بالذهب.

أدخل البوابُ المسافرين إلى غرف ذات تهوية جيدة، هواؤها منعش لا يمكن للمرء أن يصاب فيه بمرض. وكانت الأفرشة المرتفعة مغشاة بألحفة مزركشة. لا شيء كان ينقص فيها، لا بالنسبة إلى التغذية ولا بالنسبة إلى الترفيه.

بعد أن استقر الشبان، خاطبهم البواب قائلا:

مرحبا بكم! لقد وصلتم إلى المكان المناسب كي تكونوا على سجيتكم. من الآن فصاعدا، لن تعرفوا همّا أو مرضا، ولن تكونوا بحاجة إلى أحد. لكن العادة جرت - فتلك هي رغبة سيدتي - أن أسأل الغرباء الذين يلجون المدينة عن سبب رحلتهم وعن نيتهم الخفية. حرِّروا إذن ألسنتكم ودعوها تعبّر مباشرة عن رغباتكم. تخلصوا من الشعور بالخوف وبالخجل، وتجنبوا بالخصوص

المواربــة. فثمــة، بالفعل، ظروف يجعل الخجـلُ (*)، خلالها، المرءَ يُضيع ما أتى للبحث عنه وما يعتقد أنّ تحقيقه بعيد المنال.

شكر حمادي الحارس بحرارة، ثم قال:

إن ما قادنا إلى هنا، يستحق بالفعل أن نقوم من أجله برحلة طويلة. فعلى كل رجل، عندما يبلغ ســن الرشد، أن يبني أسرة إن أراد أن يعتبــره النــاس إنســانا جديا (**). نحن ســبعة إخوة، من الأم نفســها ومن الأب نفســه (***)، أتينا نطلب بنات ملكة البلاد للزواج. قال حمادي ذلك وصمت.

تفحص الحارس كل شــاب من قدميه إلى أعلى رأسه. جعلهم يــدورون ويســتديرون، وجــس كل جســدهم تقريبــا مثلما يجس جــزارٌ خروفا أو ثورا، ثم ســأل: والطفل الذي يرافقكم، لماذا أتى؟ وعمَّ يبحث؟

أجاب حمادي بوصفه البكر:

إنــه ابــن أختنا الوحيــد. والحال أنه لا يقبل أحــدا غيرنا، ولا حتى أمه. لا يمكنه أن يبقى بدوننا، كما لا نســتطيع نحن أيضا فراقــه. فهو لا يأكل ولا يشــرب ولا ينــام إلا بعد أن يرانا ويحظى منا بلمسة حنان أو ببضع كلمات طيبات.

- لقد أوضحتم المسألة! قال الحارس. استريحوا إذن. سأذهب

(*) في أفريقيا، لا تنسحب هذه الكلمة، فقط، على ما نفهمه من الكلمة الفرنسية «Honte - خجل»، ولكنها تعني أيضا الحشــمة والتحفظ والحياء؛ وهي صفات تعتبر تجليا لنبل الخصال، خصوصا لدى الفولانيين.

(**) كان الأعزب يعتبر، في المجتمعات التقليدية، بمنزلة قاصر.

(***) مــن الأم نفســها ومن الأب نفســه (ترجمة حرفية): هذه العبارة التــي غالبا ما تدهش الأوربيين، ليســت عبارة زائــدة بأفريقيا، لأن اللفظة «أخ» لا تشــمل كل الإخوة من الأم أو الأب فقــط، وهم كثيرون في الأســر متعددة الزوجات، وإنما تشــمل أيضا أبنــاء العم من جهة الأب، خصوصا لدى الفولانيين.

الآن كي أخبر سيدتي بوصولكم وبالغرض الذي قدمتم من أجله، ثم ذهب على الفور عند نجدو ديوال وقدم لها تقريرا مفصلا ونزيها عن كل ما جرى لتوه. ابتهجت الشريرة! فقد حصلت أخيرا على بغيتها: استدراج أبناء با - وامندي لبلدتها حتى تشبع غريزة انتقامها!

قالت للحارس:

عد إليهم. أخبرهم أنهم مُرحَّب بهم هنا على الرحب والسعة، وأننا نخصهم باستقبال حار. ثم أضِف أنني غدا بعد تناول وجبة الفطور، سأستقبل ضيوفي السبعة، وربما أصهاري في المستقبل. انقل إليهم هذا عني وخذ كل الاحتياطات الضرورية حتى يمر كل شيء وفق ما أشتهي.

قُدِّم الإخوان السبعة، صباح اليوم التالي، مرفوقين بابن أختهم، لنجدو ديوال التي بدت، للمناسبة، بمظهر رائق ومطَمئن. تملتهم للحظة ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: استريحوا حتى أعود. غابت للحظات ثم عادت مصحوبة ببناتها السبع وقد ازيَّن كأنهن قادمات إلى بيت الزوجية، فقدمتهم للإخوة السبعة.

هؤلاء هن بناتي، قالت. إن اخترنكم من تلقاء أنفسهن كرفقاء، سيصبحن ملكا لكم وسترون آنذاك يدي البيضاء. أنا آذن لكم، منذ الآن، أن تذهبوا للتسلي معهن، فكما أن كل فارس يجب أن يتعرف على مطيته، فإن كل زوج يرنو أيضا إلى تعرف زوجته المستقبلية. لي تحذير واحد فقط: بناتي صعبات المراس! عليكم أن تكونوا صبورين وذوي مهارة معهن. عليكم أن

تعرفوا كيف تجعلونهن يحببنكم. وعندما سيأتين ويخبرنني بأنهن يقبلنكم أزواجا لهن، سأمنح موافقتي وستقيمون أعراسكم. سيعتزل كل واحد منكم في غرفة مع إحداهن. أما بالنسبة إلى مصاريف الخطوبة والزواج، فأنا أعفيكم منها منذ الآن.

شعر الشباب باغتباط شديد جراء هذا الاستقبال، فتخلوا عن حذرهم (*)، خصوصا وقد تلفظت أمامهم بكل تلك الكلمات الرقيقة.

مر يوم شهي، في تقابل ثنائي حنون، بين الإخوة السبعة والبنات السبع.

عند المغيب، ومن باب اللياقة (**)، وربما أيضا دلالا، كي تترجاهم الأميرات، طلب الخطّابُ من عشيقاتهم أن يتركنهم ينصرفون إلى صباح اليوم التالي. أجابت الفتيات السبع: ليست هذه عادتَنا. على الخطاب أن يبقوا معنا سبعة أيام كاملة، حتى يتعرف بعضنا على بعض بعمق. ومن لا يقبل هذه الشروط يُرفض على الفور.

(*) يضيف الإخوةُ إلى اللامنطق والعناد، السذاجةَ، التي لها علاقة بنسيانهم لتحذيرات باغوماويل. فهم أشبه ما يكونون بالمنَومين؛ يفتقرون إلى أي خط موجِّه داخلي. خطهم الموجه خارجي دائما: إما مصادفة الأحداث أو إرادة وعمل باغوماويل. والواقع أن باستثناء باغوماويل، المبَشَّر به والمُلقَّن، لا أحدَ يستطيع أن يحتفظ بتيقظه وبعقله نابها أمام نجدو ديوال، بسبب سلطتها على كل البلد.

علينا، هنا أيضا، أن نلمح خاصية من خصائص الإنسان الفولاني: يمكن لحذره، حتى بعد كثير من خيبات الأمل، أن يمحي على الفور، بسبب بعض الكلمات الطيبة، تماما كما يمكنه، في لحظة واحدة، أن يفقد ثقته. إن حب الإنسان الفولاني يكون من القوة بحيث تجرحه كلمة واحدة، كما يمكن لكلمة واحدة أن تهدئ من روعه.

(**) اللياقة، مثل الحشمة، تشكل جزءا من معادلة الفولانيين المرتبطة بمعرفة العيش ضمن نسق العلاقات الاجتماعية.

من السهل تخمين بأية سرعة قبل الإخوة السبعة هذا التقابل الثنائي الليلي، الذي كانوا يتمنونه سرّا من دون أن يجرؤوا على تصديقه.

نـادت الفتيـات السـبع الحـارس. أمرنـه أن يذهب إلـى أمهن ليخبرها بأنهن قد قررن أن يحتفظن بخطابهن طيلة الأسـبوع حتـى يكُنَّ معهم ليلا ونهارا، متجانسـين، مثل فطيرٍ من طحينِ الذرة مدهون بعسل.

وقبل أن يلتحق الحارس بنجدو ديوال، أخذ معه باغوماويل: نظرا لحداثة سنّك، قال، فإن جدتك الملكة هي التي ستتكفل بك في بيتها. فالتقاليد تجعل من «الحفيد» (العريسَ الصغير) المثالي لجدته. فبينما سيتسـلى أخوالك مع من سيكُنَّ زوجاتهم في المستقبل، ستتسلى، أنت أيضا، مع «زوجتك»٥٩. بهذه الشاكلة، سـيكون الكل مبتهجا مثل ابتهاج العصافير نفسـها وهي تزقزق سعيدة في أعشاشها!

آنذاك أمسك بكفه اليمنى كفَّ باغوماويل اليسرى وقاده إلى غرفـة نجدو ديـوال. وبمجرد أن التقـت نظرتها بنظـرة الطفل، وأصبحـت العيـون أربعا، شـعرت بصدمة غير مفسـرة. هل تكون شـعرت في أعماقها بكل الأخطار التي سـتتعرض لها بسبب هذا الصبي غير العادي؟ ربما. وكيفما كان الحال، فإنها قد تحاشـت أن يظهر أي شـيء من اضطرابهـا واحتفظت بوجه هادئ لامرأة مسنة طيبة مهيبة وخيرة. أمسكت باغوماويل من كفيه وخاطبته قائلة: سـتقضي أيامك ولياليك معي، في حين سـيكون أخوالك ومن سيَكُنَّ زوجات أخوالك يتعودون على بعضهم البعض. فعلى

اتفاقهم يتوقف بناء العلاقات التي ستجمعنا ربما لاحقا، والتي ستجعل مني جدة حقيقية لك.

عمل باغوماويل، خلال تلك المحادثة، وبنظرة خفية سريعة، على سبر مسكن نجدو ديوال، فاكتشف الوسيلة البارعة التي كانت تتزود بفضلها بدم الشباب الذين يقذف بهم حظهم العاثر على فراش بناتها.

ظل إذن مع المرأة العجوز، بينما كان أخواله يتسلّون مع رفيقاتهم. بعد العشاء، وعندما صمتت آخر أصداء الرقصات والأغاني التي تسبق لحظة نوم شعب الفولانيين الصغير، ساد المدينةَ هدوءٌ كامل. دخلت نجدو ديوال فراشها كي تنام ودعت الطفل لأن يحذو حذوها، إذ كان فراشٌ قد أعد من أجله قرب سريرها.

أخوال باغوماويل، من جهتهم، كانوا ينتشون بجمال الأخوات السبع وبعطرهن السائغ المنبعث من أجسادهن وملابسهن ومن كل شخصهن. كانت أصواتهن من الرقة بحيث تخالهن ينشدن أغنية مهدهدة؛ وكانت أيديهن الملساء مثل الحرير، خبيرة بالمداعبات مثل أيادي نساء اعتدن على بيع أجسادهن لمن يدفع أكثر.

عندما سرى الليل أراد الشّبان السّبعة أن يتقرّبوا من خطيباتهم، لكنّ هؤلاء أخبرنهم بالمقابل الذي يطلبنه لتسليم أنفسهن إليهم. فقد شرحن لهم، بكلام معسول مدغدِغ، ومن خلال وعود مسْكرة، بأن عليهم أن يقدموا قليلا من دمهم لأمهن التي لا تستطيع أن تنام إلا إن شربت هذا الدم. قبل أخوال

باغوماويل - وهم من الافتتان بحيث خبا لديهم كل تعقل - عن طيب خاطر أن يقدموا من دمهم قبل أن يصلوا محبوباتهم. حينئذ ألصقت كل فتاة بجسد رفيقها قرن الغزالة القميئة الذي يصلح لتمرير الدم عبر المعي الطويل إلى فم نجدو ديوال. ولم تكن هذه تنتظر سوى إشارة كي تشرع في المص على الطرف الآخر، كما يمص مدخن غليونه المترع.

ظنّت نجدو ديوال أن باغوماويل نائم، فانتصبت واقفة لتقوم بفعلها المقيت. سعلت قليلا كي تتأكد من أنه غارق في نومه. لم يتحرك الطفل، فأمسكت بالأنابيب ووضعتها في فمها. ما أن لامستها بشفتيها حتى صاح باغوماويل:

ما الذي تفعلينه، يا جدتي المحبوبة؟ لماذا تتحركين؟ ولماذا لا تنامين؟ أيكون ذباب قد وخزك، أم لعل براغيث تمص دمك؟

أزاحت نجدو ديوال بسرعة الأنابيب من فمها وصاحت:

ما الذي يمنعك من أن تنام، يا صبيا عيناه قاسيتان مثل الحجر(*)؟

عقب باغوماويل:

ما يمنعني من النوم، يا جدتي المسنة ذات الفم المفتوح مثل جحر، هو أن أمي اعتادت على أن تقدم لي، قبل نومي، طبقا من الذباب المشوي. إن لم أتناول هذا الطبق، خلال اليوم الأول من الأسبوع(**)، لا أستطيع أن أنام، والذي يقاسمني غرفتي

(*) عينان قاسيتان مثل الحجر: من الصعب جعلهما تنامان. يقال: «عيناي اليوم مثل الحجر»، أو «صَلُبَتْ عيناي، هذه الليلة».

(**) لِنُذَكِّر أن الليل، بأفريقيا كما في الشرق، يسبق النهار. اليوم الجديد يبتدئ إذن مساء وليس صباحا كما هو الشأن في أوروبا.

لا يستطيع أن يحقق أي شيء من نواياه، سواء أكانت نوايا طيبة أم سيئة. إذن، فابعدي هذه الأنابيب عن فمك، وحاولي أن تصطادي ما يلزم من ذباب كي تعدي لي هذا الطبق قبل بزوغ النهار. وإلا فإنك لن تستطيعي، لا خلال هذه الليلة ولا خلال يوم غد، أن تقومي بأي شيء، وستشعرين بأنك لست على أحسن حال، لا في بدنك ولا في ذهنك!

نهضت نجدو ديوال، وقضت بقية ليلها في اصطياد الذباب(*)، لكن كل حشرة كانت تصطادها، كانت تنسحق بين أصابعها، إلى درجة أن الشمس أشرقت من دون أن تكون قد جمعت ما يكفي لتهيئ الطبق الذي يطلبه باغوماويل. كانت متعبة، وفي حالة يرثى لها، وعند كل زفرة، كانت تعرب عن صعوبة بالغة في تجديد هواء رئتيها.

تركت الشابات الإخوةَ يصلونهن، عند الفجر، وهن يجهلن أن أمهن لم تستطع شرب دمهم. وكما جرت العادة بذلك، استعدن بعد ذلك عذريتهن وتوجهن إلى أمهن ليحيينها. وجدنها لاهثة ممددة على الأرض غير قادرة على الوقوف. سألن قلقات: ماذا حصل لأمنا حتى تبقى نائمة إلى هذا الوقت؟ ما بك يا أماه؟ لماذا تأخرت هكذا في الاستيقاظ؟ سألت البكر.

- لقد قضينا، باغوماويل وأنا، ليلة بيضاء، نحاول أن نصطاد الذباب.

كانت شفتاها وجفناها متورمة وعيناها تذرفان دموعا ساخنة. سال مخاط من منخاريها. لم تكن لها القوة كي

(*) نجدو ديوال، بدورها، يقهرها باغوماويل لأن قواه السحرية أقوى من قواها هي. وهي تفقد أمامه كل قدرة على التفكير أو الحكم الصائب.

تتمـخـط. عـادت الفتيات إلى بيوتهن محيـرات. مر اليوم رهيبا بالنسبة إلى نجدو ديوال.

أقبلـت الليلـة الثانيـة. وعندما انصـرم من الليـل نصفُه، ظنّت نجـدو ديـوال أن الطفـل ينام بعمـق، فنهضت كي تمتـص أخيرا دم الشـبان الذيـن كانوا لحظتها يقاسـمون، للمـرة الثانيـة، الفتيات فراشهن. عندما وضعت أطراف الأنابيب في فمها، شرع باغوماويل الشقي يسعل كي يخطرها بأنه لايزال مستيقظا، صاحت:

يا طفلا عيناه مثل ذرات الماء، ألا تكفن عن الدوران! لماذا لا تنام؟

- أيتهـا السـاحرة العجـوز، عقب، لا يمكننـي أن أنام لأن أمي كانـت قـد اعتـادت أن تجعلني أشـرب، خـلال الليلـة الثانية من الأسـبوع، جرعة ماء مستقى بواسطة خيط. ومادمت لم تسقني جرعـة الماء هذه، سـأظل مسـتيقظا ولن تسـتطيعي تحقيق أي شـيء من نواياك، لا خلال هـذه الليلة ولا خلال يوم غد. لكنني بمجرد أن أشـرب تلـك الجرعة، يطير عقلي عن جسـدي ويَثْقُل جفناي فأغلقهما بالرغم مني وأنام مثل سـمكة تسـبتُ في إناء ماء.

توجهت نجدو المسـكينة إلى بئرها وقضـت بقية ليلها تحاول تجميـع جرعة ماء بواسـطة خيط. وعندما بـزغ النهار، لم تكن، طبعـا، قـد حصلت على أدنى قطـرة ماء. عادت إلـى غرفتها في غايـة التعب فسـقطت على الأرض وشـرعت تحشـرج مثـل دابة مذبوحة.

خـلال تلـك الليلـة، كانـت الفتيـات قـد سـمحن لعشـاقهن بوصلهـنّ، وهن يشـرحن لهم بأنه لا شـيء يمنعهن من أن يعدن

عذارى كلّ صباح. ذهبن صباحا ليسلمن على أمهن فوجدنها في حالة أدعى للشفقة من حالتها الليلةَ السابقة. سألت صُغراهُن متعجبة:

ماذا دهى أمنا، كي تظل نائمة إلى هذه الساعة بدلا من أن تنهض لأشغالها كالمعتاد؟

- لقد قضيت الليل كله على حافة البئر - شرحت نجدو بصوت متعب - أحاول أن أستقي بواسطة خيط جرعة ماء طلبها مني باغوماويل قبل أن ينام.

عندما سمعت الفتيات كلام أمهن، شرع شك يخامرهن في عقلها، هي المعروفة، مع ذلك، بذكائها وفطنتها، فقلن: استقاء ماء بواسطة خيط؟ لا بد أن تكون أمنا مسحورة كي تقوم بعمل مجنون مثل هذا!

تضاعف تعب نجدو ديوال خلال اليوم التالي.

أخفت الفتيات قلقهن، وبدأن الاستعداد للعودة إلى عشاقهن. كان استعدادهن هذه المرة أحسن، فتدللن وتعطرن بروائح اختارها أكبر الخبراء في المجال. وعندما أصبحن في حضرة الشباب، ضاعفن مقدار الغواية وقلن:

نحن على استعداد للإعراب لكم عن حبنا مثلما فعلنا خلال الليلتين الماضيتين. وكي نقيم لكم الدليل على مقدار رغبتنا فيكم والطاعة التي نبديها لكم، سنقدم أنفسنا لكم عرايا (*).

(*) قد يبدو غريبا أن تكون الفتيات قضين ليلتين حميمتين مع رفقائهن، من دون أن يكن قد أبدين عريهن. غير أن ذلك ليس مثار دهشة عند الفولانيين. ففي تقاليد هذه البلاد، حيث يسود الحياء المطلق، يمكن لامرأة أن تقضي حياتها كاملة إلى جانب زوجها، من دون أن تبدي له جسدها تحت الضوء الكاشف.

أقبلت الليلة الثالثة. تشاورت الفتيات فقررن أن يخاطبن عشاقهن بالخطاب نفسه. وكان الكلام الرقيق ينتهي دائما بهذا الطلب: إن كنت تحبني بالفعل؛ إن لم يكن حبك فقط على لسانك (*)؛ إن كنت مستعدا لأن تسلم نفسك لي كما أسلم نفسي لك، اقبل أن تضحي ببعض دمك من أجل أمي التي شرعت تحتضر منذ يومين.

أجاب كل شاب رفيقته، كأنهم قد تشاوروا فيما بينهم، هم أيضا: ليس قلبي من صخر حتى تنزلق عليه كلماتك الرقيقة دون أن تلجه. خذي مني ما تشائين من دم لتعالجي عذاب أمك. أليست عودتك إليّ للمرة الثالثة دليلا على إخلاصك؟ ألا يستحق إخلاصك هذا القليلَ من الدم الذي تطلبينه مني؟ هيا، أسرعي! ضعي القرن في شرياني وقولي لأمك أن تمتص حتى ترتوي (**).

نهضت نجدو ديوال في منتصف الليل، وقد أخطرتها بناتها. وضعت الأنابيب في فمها، وهي متأكدة من أن الظاهرة الصغيرة قد نام أخيرا، بعد ليلتين بيضاوين. كانت تستعد للمص، عندما شرع باغوماويل، أمام اندهالها، يتثاءب بصوت مرتفع، وشرع يتقلب على سريره، ثم جلس وقال:

أي مشهد ستنخرطين فيه الليلة، يا جدتي التي انشغلت روحها وجحظت عيناها؟

- لماذا لا تنام يا طفلا جنّيا، مقلتاه أصلب من صخر (***)؟

(*) يعني: «إن لم تكن مجرد كلمات».

(**) قبل الإخوة، عن طيب خاطر، إعطاء دمهم، لأنهم لا يشعرون بأي تعب.

(***) حرفيا «حبات العين». تسمى المقلة «حبة» بسبب شكلها الدائري، وأيضا لأنها تأوي إلى تجويف، كما تكون الحبة مختبئة في ثمرة أو في الأرض.

- أنا لا أنام لأن أمي اعتادت عقب عشاء اليوم الثالث من الأسبوع أن تنزع لي من المجرة نجما ألعب به لعبة تيلي (*). لا يغشاني النوم إلا بعد أن أسجل عدة أهداف بواسطة النجم. بعد ذلك أنام! وإن كنت تريدينني أن أنام، فقومي من أجلي بما كانت تقوم به أمي.

خرجت نجدو ديوال، مسحورة دائما من قبل باغوماويل، وصعدت إلى السطح. صنعت لنفسها أداة من خلال ربط عدد كبير من العِصِيّ أطراف بعضها إلى بعض، وقضت بقية ليلها محاولة إسقاط نجم كي تسكت أخيرا من كانت تسميه حفيدها الممسوس!

وكما كان منتظرا، لم يحصل أي تحسن، خلال هذه الليلة الثالثة والنهار بعدها، على الحالة البدنية والذهنية لنجدو ديوال.

لا ينتظر أن تكون الليلة الرابعة أسعد من سابقاتها، على الرغم من كل المجهودات التي بذلتها الفتيات لغواية مرافقيهن وجعلهم يقبلون أن يعطوا من دمهم. انساق الفتيان - الذين لم يكونوا يشكون بعدُ في شيء، ولم يكونوا يشعرون بأي إنهاك - مع لعبة العذرية الدائمة لهؤلاء الفتيات اللائي يرقصنَ في مشيتهنّ كما تَرقُص الأغصانُ المتهادية للشجر بفعل رياح الشمال.

للمرة الرابعة أرخى الليل سدوله.

(*) تيلي: تشبه بعض الشيء لعبة الغولف، التي تلعب بفريقين. يتم قذف كرة بواسطة عصا لجعلها تصل، ليس إلى ثقب، وإنما إلى هدف. وكل فريق يعمل على أن يمنع الفريق الآخر من تسجيل نقط.

تعشـى باغوماويـل حتى شـبع. أما نجدو ديـوال، من جهتها، فكانـت تكاد تموت جوعا. أي ذريعـة عليها أن تخترعها كي تفلت مـن هذا الطفـل العفريت الذي يزداد أرقا كل ليلة؟ كيف العمل، تساءلت، لسد سمع هذا الجني وجعله يغط في نوم من رصاص، فتتمكن، هي نجدو ديوال، من استرجاع قواها بمص دم الشباب؟ لم يسـبق أبدا، أضافت بصوت خافت، أن اسـتطاع كائن بشري أو جنـي الوقوف في وجه رقيتي أو تحاشـي الأخطـار الرهيبة التي أجعل كل من يقف في طريقي يواجهها. هل علي أن أتوجه اليوم عنـد الضبعة ذات الزغب الأسـود، الأميرةِ وارثةِ الذهب الأسـود، دياترو، السـيدةِ العظمى٦٠ لكل الضواري والقرود الصارخة، كي أسـألها عن أي خانات ضرب الرمل الست عشرة عليّ أن أستعمل كي أسحر باغوماويل وأكنسه مثل قذاة قش من طريقي وتحييده أخيرا؟

لم يكن لهذه التأملات أن تفيدها في شيء، لأنها عندما وقفت، مـرة ثانية، فـي قلب الليل، كـي تضع في فمها أطـراف الأنابيب الرقيقة السبعة، انتصب باغوماويل وجلس على سريره، فقال:

أي خيبة أمل هي خيبتك، يا جدتي العجوز، فأنا لم أنم بعد، ومادمت مستيقظا فلن يمكنك أن تُقدمي على شيء!

صاحت نجدو ديوال، هذه المرة، محتدة: إن قضيت الليلة كلها مستيقظا، سأقضيها أنا كلها في ضربك! ثم أمسكت باغوماويل، فأثنتـه إلى الأمام وحبسـته بين فخذيها حتـى يصبح ظهره في متناول ضرباتها. ضربته ضربة أولى على رأسه بكفها مبسوطة، ثـم مـرة ثانية على ظهره، ورفعت كفها لتُكيل له ضربة جديدة،

لكن، بمجرد أن لمست كفها ظهر باغوماويل، أرسل، مثل سمكة كهربائية، شحنة قوية تجمدت منها أطراف الشريرة وشعرت على إثرها بثقل يعادل ثقل حمل حمار يحط على عنقها. صاحت:

ماذا قلت وماذا فعلت، أيها المتشيطن يا ابن الجنّية! لماذا لا تنام كما ينام كل الأطفال الذين هم في سنك، في ساعة متأخرة من الليل مثل هذه؟

- لن أنام، أجاب باغوماويل، وستبقى أطرافك متجمدة إن لم تقدمي لي ما كانت أمي اعتادت أن تقدمه لي خلال اليوم الرابع من كل أسبوع.

- أيها الطفل اللعين! قل لي ما كانت أمك اعتادت أن تقدمه لك، كي تنام، خلال اليوم الرابع من الأسبوع!

- كل يوم رابع، كانت أمي تقدم لي، بعد العشاء، حبة دباء بحليب جاموسة ولدت لأول مرة.

- أَصْرِف التجمدَ عن أطرافي، صاحت المشعوذة العاجزة، وقبل أن يرفع الديك عقيرته بالصياح، سآتيك بحبة دباء مملوءة بحليب الجاموسة!

انطلقت نجدو ديوال، بعد أن حررها باغوماويل، إلى الدغل باحثة عن قطيع جاموس. ليس صعبا، بالتأكيد، العثور على قطيع جاموس، لكن ليس من السهل على أحد العثور على جاموسة ولدت لتوها لأول مرة، قصد حلبها؛ ليس ذلك سهلا حتى بالنسبة إلى نجدو ديوال، سيدة المشعوذات والساحرة المتأصلة. قضت الشقية، من جديد، ليلتها تعدو خلف جاموسات، لكن لا جاموسة كانت ترضع لأول مرة.

عندمـا ظهر قرص الشـمس الأصفر على الأفـق، قفل قطيع الجامـوس عائـدا إلـى أعالـي الدغـل، فعـادت نجدو ديـوال إلى مسكنها خائبة، رأسها منكس أكثر من أي وقت مضى.

وكمـا هي العـادة كل صباح، أقبلـت الفتيات لتسـلمن عليها. كانـت من الإنهاك بحيث لم تسـتطع حتـى أن تجيب كما يجب، على سـلامهن. عادت الفتيات، حائرات، عند عشـاقهن لتواصلن معهـم مداعباتهـن المعتادة، ما دام الهدف الذي رسـمته أمهن لم يتحقق بعد.

بينمـا كانـت الفتيـات السـبع والفتيـان السـبعة يواصلـون مداعباتهم، ظلت نجدو ديوال، مشدوهة مندهشة، جالسة. كانت عيناها مفتوحتين، فاغرة فاها، ولعابها يسيل مثل كلب مريض، تندلق من عينيها دموع مثلما يسيل ماء من عين جارية. أضحى عطشـها غير محتمل، وأصبح جوعها عذابا. قضت يوما شـبيها بيـوم امـرأة هالكة. ويمكـن القول حتى إن امـرأة محكوما عليها بالذهاب إلى الجحيم، لم تكن تعاني مثلما كانت تعاني هي!

أقبل المساء الخامس في موكب من المفاجآت الخاصّة به. أمّلت نجدو ديوال في أن ينتهي باغوماويل، هذه الليلة، بأن ينهار تحت ثقل نوم مازال ممكنا بالنسبة إلى طفل في سنه.

مالت الشـمس إلى المغيـب، ككل يوم، فأهرقـت على الطبيعة ضـوءا أصفـر كالذهب، قبـل أن يأتي الليل كـي يدثرها بمعطفه المـُزرقّ، مرغما الكائنات النهارية على الالتحاق بمسـاكنها كي تتـرك مكانهـا للكائنـات الليلية التـي تغادر جحورهـا بحثا عن طعام.

امتـد الليـل بزرقتـه الداكنـة، فـوق الأرض. لم يبـق أي نجم مختبئـا. كل النجـوم تلمـع مثـل لمعـان حجـر كـريم، ملتزمـة بموعدها كأنها ذاهبة إلى حفل زفاف.

انتظرت نجدو ديوال أن ينصرم من الليل ثلثاه. آنئذ انتصبت واقفة، وهي مقتنعة بأن باغوماويل يغط في نوم عميق، ووضعت أنابيبها، كما هو معتاد، في فمها وهيأت نفسها بشهية كي تمتص بـكل قواهـا. سـدى! ما كان بدا لها مسـتحيلا، بعـد خمس ليال من اليقظة، تكرر مع ذلك. انتصب باغوماويل فجأة على سريره وصاح: عودي إلى النوم يا جدتي! انزعي من فمك تلك الأنابيب التـي تمتـد من هنا لتتوجـه إلى حيـث لا أدري. فأنا لم أنم بعد لأنـك لـم تقدمي لي مـا كانت أمي تقدمه لي عـادة، خلال اليوم الخامس من الأسبوع.

- أنـت أيهـا الجنـي الصغيـر! قالت نجـدو ديـوال، وقد خاب رجاؤهـا. قل لي بسـرعة ما كانت أمك اعتـادت على تقديمه لك خلال اليوم الخامس من الأسـبوع، وسأفعل مثلها كي تنام أخيرا من دون أن تنبس ببنت شفة ومن دون تردد!

- اعتـادت أمـي أن تجعلنـي أشـرب مسـحوق حجـر مُذاب في حليب خفاش، أجاب باغوماويل بهدوء.

أمسكت نجدو ديوال، متنهدة، بالجراب الذي يحوي ترسانتها السـحرية، وتوجهت إلى مغارة الخفافيش الواقعة على قدم أحد جبـال البلدة السـبعة. أفلحـت في حلب إناث خفافيش وسـحق بعـض الحصيـات التـي جمعتهـا، لكـن أن تذيـب هـذا الدقيـق الحجـري فـــي حليـب الخفافيـــش، فتلـــك قضـيـــة أخـــرى!

أشرقت الشمس من دون أن تستطيع القيام بذلك.

عادت إلى مسكنها وهي تشعر بخيبة أمل تفوق خيبة صياد غير محظوظ، وبخجل يفوق خجل ملك لم يخسر معركة فقط، بل ترك حيث دارت الحرب- وهو في قمة الشعور بالإهانة - عمامته ودرعه (*). عندما أدركت غرفتها، ارتمت على الأرض.

ولما أقبلت الفتيات كي يحيينها، وجدنها منهكة مفككة الأوصال كأنها قد قضت ليلتها مربوطة بطريقة قاسية. عندما فهمن أن أمهن قد فشلت للمرة الخامسة، عدن إلى بيوتهن وخاطبن رفقاءهن بهذه الكلمات:

نحن لا نستطيع أن نخفي عليكم الحالة الخطيرة لأمنا. نحن نعود إليكم كي نواصل ما بدأناه، حتى تستطيع أن تشفى. فإذا أقبل اليوم السابع، أي بعد غد، ولم تستطع أن تحصل منكم على ما تشتهيه، فإنها، آنذاك، ستمسككم بعنف وتخنقكم بقسوة وتقتلكم شر قتلة! ولن يستطيع حمايتكم، لا دونفون - بفالي ولا فونفون - بفالي ولا ولوكونو - سيبو (**). سيمسك بكم أقوى ذوي الأربع من الضواري؛ السيد الأسد برأسه الكبير ويعرفه العريض والذي نناديه يين - تين - تين، والذي يُحدث عند دخوله «بادياج» وعند خروجه «سايبانكون» (***). سيلوي عنقكم ويشرب من دمكم ويأكل من لحمكم ويزدرد من نخاع عظامكم. بعد ذلك سيخص كل واحد منكم بقبرٍ، خارج المدينة.

(*) تعتبر العمامة، مثل التاج، شعار الزعامة. يمكننا أن نخسر معركة، لكن فُقْدانَ العمامة والدرع يعتبر قمة العار. في مثل هذه الحالة، وبصفة عامة، ينتحر الملك (أو الزعيم).

(**) دونفون - بفالي وفونفون - بفالي وولوكونو - سيبو، ينتمون إلى الآلهة الثمانية والعشرين التي تشكل المشهد الديني الفولاني.

(***) يين - تين - تين: أحد أسماء الأسد. بادياج وسايبانكون محاكاتان صوتيتان.

هـا أنتم قد أُنـذِرتم، ولكم أن تُحـذِّروا ابن أختكـم الصبي الوقح حتـى يكف عـن النفخ في نايه القبيح الصغيـر الذي يرغم أمنا على العدو كل ليلة خلف ما لا يُدرَك.

فسـواء أكان ابن أختكم على علم بذلك أم لا، فما هو إلا مدَّع صغيـر. هـو يقوم بكل ما يسـتطيع حتى يجعـل امنا في مواقف مثيرة للسـخرية، لكن عندما سيكون الدور عليها، ستتشابك كل عروق وأعصاب ابن أختكم كي تنسـج ما يشـبه كويـرات صلبة. لن يستطيع أي علاج تخليصه من الندوب القاسية التي ستظهر على جسـده. سـتكون هذه النـدوب في البداية غيـر مؤلمة، لكنها ستشـوي في الأخير لحمه، وسـتكون نتنة بحيث لا تستطيع أية حاسـة شم، وإن كانت حاسـةَ آكل جيف، أن تتحمل الرائحة التي سـتنبعث منـه. ها أنتم قد أُنـذِرتم كي تحذروا ابـن اختكم. لكن هذا التحذير، كونوا متيقنين من ذلك، لن يعكر صفو مداعباتنا.

أقبلت الليلة السادسـة كما أقبلت سابقاتها. هل كان جاييل - فالـو، الجذَع الصغير، قد أُخطر مـن قبل أخواله بأن يظل هادئا وأن يترك السـاحرة العجوز تفعل ما تشـاء؟ كانت المظاهر تشـي بذلـك، لأنـه، بدلا من أن يبقى نائما حيـث كان ينام دائما، ذهب وتمـدد على عرض البـاب كي ينام ثمة، أو على الأقل كي يتظاهر بذلك. كان حتى يشخر بين اللحظة والأخرى كي يُطمْئن نجدو ديوال. انقضى الجزء الأول من الليل هكذا هادئا.

كان الطفل يستريح بهدوء، مثل نائم بريء.

عندما حان الوقت، استـنفرت الشـريرة، مُنْهَكَة، كل ما تبقى لها من قوة كي تقف وتضع في فمها، مثل كل ليلة، الأنابيب التي نعرفها.

قفز باغوماويل، على الفور، كأن برغوثا وخزه أو بقّا غمزه، فانتصب على فراشه. طفق يبحث في ملابسه ويحرك غطاءه بقوة وهو يقول بعصبية:

لولا هذا البرغوث والبق لما كنت استيقظت كي أنتبه إلى أنك، أنت يا نجدو ديوال، تعاودين محاولة مص دم أخوالي (*). إذن، فإن الأمر يا جدتي العزيزة، لن يحصل خلال هذه الليلة؛ ذلك أن نومي، لحسن الحظ، قد انقطع بذلك البرغوث والبق. لم تكن الحشرة الواخزة ولا الحشرة الماصة مشؤومتين بالنسبة إليّ. أما الآن فأنا أعلمك بأنني لن أنام خلال ما تبقى من الليل إن لم تقدمي لي ما كانت أمي قد اعتادت أن تقدمه لي خلال اليوم السادس من الأسبوع.

صاحت نجدو ديوال، محموقة غاضبة: هلكت أمك وهلك أبوك! ملعونٌ يوم حملت بك أمك! شائن يوم تسميتك! ولتخنَق أخطر الأوبئة أبويك! قل إذن ما كانت أمك التي ولدت شرا لن يستطيع أحد وضع حد له، تقدمه إليك خلال اليوم السادس من كل أسبوع؟

انفجر باغوماويل ضاحكا: اعتادت أمي، عقّب بمكر، أن تقدم لي وجبة ساخنة مطبوخة في عمق جيب مائي.

أمسكت نجدو ديوال، كما أصبحت الآن معتادة على ذلك، بجراب رقياتها وقذفت به على كتفها ثم توجهت بصعوبة بالغة نحو النهر، إلى مكان حيث كان يوجد جيب مائي تسكنه

(*) بما أن المأساة تقترب من نهايتها، فإن باغوماويل يشعر بأنه قوي بما يكفي كي يظهر لنجدو ديوال أن أخواله إن كانوا أغبياء، فإنه، هو، ليس مثلهم. هو يرهق نجدو ديوال بهذا التصريح قبل أن يوجه لها، خلال الامتحان المقبل، الضربة القاضية.

وحدات من فرس النهر. عندما أدركت الشاطئ، جلست وعزمت على الجيب المائي، آمرة وحدات فرس النهر والتماسيح وخرفان النهر التي كانت تعيش به أن تأتي لنجدتها حتى تساعدها على تحقيق رغبة باغوماويل العفريت.

أن يتم إشعال النار في عمق الماء وطهي وجبة ساخنة فتلك، بكل تأكيد، مهمة لم تستطع بعد أية ساحرة تحقيقها، منذ أن شرعت الشمس تشرق من الشرق وتغرب من الغرب. قضت نجدو ديوال، مرة ثانية، بقية ليلها وهي تحاول سدى أن تحقق المستحيل. أخذت، كما كانت تفعل كل صباح، طريق العودة، مُدنْدنة، لكنها، هذه المرة، كانت تبدو غارقة في خيبة عظيمة. كانت تتكلم بصوت مرتفع لكن من دون أن تُبين، وهي تتحدث للكائنات المتحركة أو الساكنة التي تلاقيها في طريقها.

واصلت دندنتها، وقد وصلت إلى غرفتها، كأنها تهذي في كابوس. عندما عادت إلى رشدها قالت مخاطبة نفسها بصوت خافت دائما: كوني شجاعة يا نجدو، لا تتركي همتك تفتر! سيكون يوم غد، اليوم السابع، هو اليوم الحاسم بالنسبة إلى باغوماويل؛ فأنا قد استطعت أن أنتشل منه الطلسم الصغير المعلق بحبل جلدي والذي كان يلبسه تحت ثيابه. سينام هذه الليلة بالرغم منه، وهذه الليلة لن أقوم فقط بمص كل دم أخواله، بل سأذبحهم أيضا وسأصُفُّ رؤوسهم على العتبة حتى تكون أول ما يراه باغوماويل عندما يستيقظ!

سقطت نجدو ديوال، وقد اطمأنت بعض الشيء لهذه الفكرة، على الأرض ونامت بعمق.

انتصب باغوماويل، الذي ظل نائما لا يتحرك، فوقف من دون ضجيج. تملى الساحرة العجوز وهي ممددة هامدة مثل جثة، ثم ذهب كي يختفي في زاوية من الكوخ لأن بنات نجدو ديوال لن يتأخرن في الوصول كي يقدمن تحية الصباح، ولم يكن يريد أن يرينْه.

دخلت الفتيات السبع، ككل صباح، إلى الغرفة. وجدن أمهن غارقة في نوم عميق، قبضتاها مغلقتان بقوة كأنها تريد بذلك أن تمنع النوم من أن يفر من جسدها. تركنها تنام وعدن إلى جانب عشاقهن كي يواصلن معهم مداعباتهن المعتادة.

عندما كان الشبان والشابات منخرطين في لعبتهم غير عابئين بنجدو، وبالأحرى بباغوماويل، قام هذا الأخير بجعل الساحرة تستنشق، أثناء نومها، منوّما قويا حتى يطمئن إلى أنها لن تستيقظ قبل مدة طويلة. بعد ذلك خطا فوقها وخرج من الغرفة ثم التحق - خارج المدينة - بالغابة المقدسة لويلي - ويلي. جمع منها نباتات ذات فوائد منومة قوية، إضافة إلى كثير من أنواع الصمغ. عندما جمع كل ذلك، عاد حوالى منتصف النهار. كانت نجدو ديوال لاتزال مستغرقة في نومها وقبضتاها مغلقتان بإحكام.

أفلح باغوماويل في الاتصال خفية بخاله حمادي، فحذره:

خلال هذه الليلة السابعة، سيُخْتَم القَدَر. إن الأمر يتعلق بقضية موت أو حياة. فإما أن تموت فتيات نجدو ديوال أو نموت نحن. إنكم، إن ترددتم في تنفيذ الخطة التي سأقدمها إليكم، غدا، قبل أن تعوض الضوءَ الفضيَ الأشعةُ الصفراء للشمس

المشـرقة، فإن رؤوسـكم السبعة سـتكون مصفوفة على باب نجدو ديوال، بينما ستدفن أجسادكم في القرية الصامتة (*).

قـال حمـادي: أخبرنا بخطتك وسـننفذها بحذافيرها، لأننا من دونك كنا سنموت.

- خـذوا، قال باغوماويل. هذه أوراق سـتحرقونها في بيوتكم؛ سـيغرق دخانها مرافقاتكم في نوم عميق شـبيه بالموت. أما أنتم، فهذا مسـحوق سـتتناولونه مذابـا في الماء، قبل إحـراق الأوراق؛ سـيعصمكم من أن تناموا تحت تأثيـر دخان الأوراق. وفضلا عن ذلك، فهذه مدية لا تفل. ستستعملونها في حلق الشعر المضفور لمرافقاتكم السبع أثناء نومهن؛ بعد ذلك، سيعمل كل واحد منكم على وضع هذا الشعر على رأسه مثل شعر مستعار. اعملوا أيضا علـى تجريدهن مـن حليهن وملابسـهن، وارتدوا أنتـم كل ذلك. أما فتيات نجدو ديوال السـبع، فستُلبسوهن ملابسكم الرجولية وتعمـرون رؤوسـهن الحليقة بطاقياتكـم. احلقوا أيضـا ذقونكم وألصقوا الشـعر المحلوق في ذقونهن وأصداغهن بهذه الألصاق. عندمـا تقومـون بذلك تلصقون بأجسـادهن القـرون التي كانت تلصـق بكـم مـن دون نتيجـة، كل ليلة، ثـم تضعـون الفتيات في أسـرتكم الخاصـة. وبعـد أن تجمعـوا أموركـم وتُعـدوا صرركـم، تنامـون فـي أمكنتهن الخاصة. وثمة، تتظاهـرون بأنكم نائمون، وإن سمعتم حشرجة خلال الليل، ظلوا هادئين.

وصباح الغد، سـتنتظر نجدو ديوال، عندما تسـتيقظ، بناتها سـدى، لأنهـن لن يأتين ليحيينها تحية الصبـاح كالعادة. عندما

(*) القرية الصامتة: المقبرة.

سترى ما ستراه، ستعض على أصابعها وستُدخِل، من الغضب، سبابتها، بطريقة آلية، في عينيها كما لو كانت ستستخرج مقلتيها.

ثبّت حمادي في ذهنه كل ما قاله له ابن أخته وطمأنه على أنه سيفعل ما أمره به تماما.

أقبلت الليلة السابعة أخيرا. ارتدت فتيات نجدو ديوال أجمل ثيابهن وهن متأكدات من أن هذه الليلة ستكون حاسمة، وأن أمهن ستنتصر في الأخير على باغوماويل. وضعن أثمن مجوهراتهن وتعطرن بأكثر العطور إثارة للشهوة والقادرة على إثارة حتى الرجال العنينين. تناولن، بزينتهن تلك، رفقة عشاقهن، عشاء شهيا مصحوبا بمشروبات لذيذة تحمس القلب والعقل من دون أن يفقد شاربها توازنه.

بعد العشاء، تقاسم الشباب من جديد مرحا يفوق ما سبق لهم أن تقاسموه من قبل. وعندما حانت لحظة الفراق، نهض حمادي وذهب لإغلاق الباب الرئيسي الذي يفضي من الخارج إلى أبواب الغرف. بعد ذلك قال للفتيات:

كل واحد منا يحمل أوراقا مقطوفة من شجرة عجيبة لا تنبت إلا في بلادنا. عندما تُلقى هذه الأراق على الجمر، ينبعث منها دخان معجز. وكل من سيستنشقه سيرى دعواته التي يتلفظ بها قبل النوم تتحقق. فإذا سمحتن، سنقوم بذلك في غرفنا. سيطهر هذا الدخان الجو وسيُذْهب كل همومنا. وغدا صباحا سنفيق مشمولين بكل الخيرات التي يمكن لأرض أن تسبغها على ساكنيها!

لم ترَ الفتيات في قوله ما يريب، فقبلن من دون تردد. أمسك، إذن، كل واحد بكف مرافقته وانسحب كل زوج إلى غرفته الخاصة.

كان الإخوة السبعة قد وفروا محْرَقاتِ عطرٍ بها جمرات، فقذفوا فيها بالأوراق التي سلمهم إياها باغوماويل، وقد عملوا، قبل ذلك، خفية، على تناول المسحوق المقاوم للنوم. استنشقت الفتيات اللواتي لم يكن يتشككن في شيء، مطولا الدخان الذي بدت لهن رائحته أزكى من كل العطور التي سبق لهن أن استنشقنها حتى تلك اللحظة. وسرعان ما غرقن في نوم ثقيل.

استغل مرافقوهن الفرصة فحلقوا رؤوسهن من دون أن يتلفوا هيأة شعرهن. وبعد أن حلقوا، هم أيضا، ذقونهم، ألصقوا ما حصّلوه من شعر بذقون وأصداغ الفتيات، ثم وضعوا على رؤوسهن طاقياتهم الخاصة وألبسوهن ملابسهم الرجالية. ثم وضعوا، من جهتهم، على رؤوسهم الشعر المضفور وارتدوا ملابس رفيقاتهم، ثم أناموهن على أسرتهم بعد أن ألصقوا بأجسادهن قرون الظبية القميئة التي يعرفونها حق المعرفة. أخيرا، وبعد أن أعدوا صررهم، تمددوا هم أيضا مكان الفتيات وهمدوا صامتين.

نهضت نجدو ديوال في منتصف الليل. وكي تتأكد من أن باغوماويل ينام بالفعل، سعلت مرات وعطست، وقامت حتى بتحريك بعض الأشياء بعنف. لكن باغوماويل لم يتحرك. بل على العكس من ذلك، شرع يتنفس بعمق، دافعا بمكره إلى أقصى درجة، فأصدر بعض الشخير الخفيف.

لنكن حذرين، خاطبت نجدو ديوال، مع ذلك، نفسها. باغوماويل يشبه قمرا متقلب الأطوار، يمكنه أن يبدو في أية

جهة من السماء نستبعد ظهوره فيها.

عادت من باب الاحتياط لتنام لمدة وجيزة. نهضت بعد ذلك مطمئنة فأمسكت بالأنابيب كعادتها. وضعتها في فمها فلم تُقاطع. ياللعجب! ها هي ذي قادرة أخيرا على أن تمتص بكل ما أوتيت رئتاها من قوة! سبعة مجاري دمٍ طويلة، تتدفق في الآن نفسه متسارعة من الأنابيب كي تصبّ في الفم الشاسع للعجوز الدموية. كانت تبتلع جرعات كبيرة من الدم الساخن المذهب مالئة منه بطنها. شبعت أخيرا فتجشأت مرات متعددة كي تعرب عن اكتفائها وعن النصر الذي كانت تعتقد أنها قد حققته أخيرا على باغوماويل وأخواله.

بعد أن شبعت نجدو ديوال، هكذا، من دون أن تعلم، من دم بناتها السبع، نهضت وتسلحت بمدية شفرتُها قاطعة من الجهتين، مشحوذة بعناية إلى درجة أنه كان بإمكانها، كما يقال، أن تقسم الهواء إلى قطعتين. خَطَتْ فوق جسد الطفل الذي يبدو دائما غارقا في نوم عميق يقطع كل اتصال له بما حوله. كانت نشيطة بعد أن تناولت وليمتها، فتوجهت إلى الغرف الخاصة ببناتها ناوية ذبح أخوال باغوماويل. فتحت أبواب الغرف تباعا وولجتها بخطى ذئبية. كانت الظلمة داخلها كالحة فعملت، جسا، على تمييز بناتها من رفقائهن. جست الرؤوس بسرعة، ثم جست الملابس، ما دام العاشقان ينامان جنبا إلى جنب. وكل مرة كانت تمرر كفها على رأس ذقنُه وصدغاه مُشعرة، وفوقه طاقية ذكورية، لم تكن تتردد في قطعه كما يقطع الجزار رأس أي حيوان. قامت بتلك الطريقة، في كل غرفة من الغرف السبع، بعملية ذبح غاية

في القسوة، ملأتْ قلبها بسعادة تفوق الوصف.

عندما أنهت مهمّتَها المشؤومة، أغمدت مديتها وعادت إلى غرفتها. خَطَتْ، من جديد، فوق جسد باغوماويل، الذي لايزال نائما على عرض الباب، قبضتاه مغلقتان. تهالكت أخيرا على سريرها، زافرة بالهواء من رئتيها في تنهيدة رضا كامل. ولم تكد تتمدد على سريرها حتى غطّت في نوم لا يستطيع أقوى هزيم رعد أن يوقظها منه. لم يكن الأمر يتعلق، بالتّأكيد، بنوم عادي. ذلك أن باغوماويل استغل لحظة غياب الساحرة الدموية، فنثر على سريرها مسحوقا منوما قويا وأهرق عليه صلصالا لزجا سحريا، إلى درجة أن نجدو ديوال، وهي نائمة هامدة مثل جثة، كانت ملتصقة إلى سريرها، الملتصق بدوره بالأرض عبر أربع قوائم قوية.

شرعت المرأة العجوز تتنفس بصوت مرتفع، دلالة غطها في نوم عميق. استغل باغوماويل الوضع فسارع إلى غرف أخواله الذين كانوا ينتظرونه مستعدين للفرار رفقته. جمع رؤوس بنات نجدو ديوال السبعة وأتى ليصفها على عتبة غرفة نوم الشريرة، ثم ذهب للبحث عن الرقية المتكلمة المسماة ديمبا - نياسورو (*)، التي تعتبر من بين حراس نجدو ديوال وقال لها:

أنت يا ديمبا - نياسورو! نجدو ديوال لا يمكنها أن تستيقظ إلا بعد أن نكون، أخوالي وأنا، قد غادرنا ويلي - ويلي ومنطقة نفوذها. عندما تستيقظ أبلغيها عني، ما دامت قد قدّرت أن لا فائدة من سؤالي عما أحتاجه كي أنام هذه الليلة، بأن أمي

(*) إله آخر من آلهة الفولانيين، تسخره نجدو ديوال.

كانت اعتادت، خلال اليوم الأخير من كل أسبوع، أن تربط لي قبضتي وعقبيّ بألياف من حجر. والحال أنني لا أعتقد أن نجدو تملك مدية من الحدة بحيث تستطيع تقشير الحجر كما يتم تقشير شجرة الباوباب. نجدو ديوال خرجت لذبح أخوالي، وهي تعتقد أنني نائم. أخبريها بأنها قد قطعت، من دون أن تعلم، رؤوس بناتها؛ فالخشب المنخور لغطاء بئر، ينتهي دائما بأن يسقط في البئر، كما يقول المثل. بمعنى آخر؛ كل من يقصد إصابة قريبه بسوء، ينتهي بأن ينقلب هذا السوء ضده.

عندئذ تحول باغوماويل إلى مركب طائر (*)، فحمل أخواله وطار بهم إلى هيلي ويويو.

نامت نجدو ديوال ثلاث ليال متواليات. وعند نهاية اليوم الثالث وجدت نفسها، عندما أفاقت، مثبتة إلى الأرض مثل قطعة حديد ملتحمة بقطعة حديد أخرى. نادت على ديمبا - نياسورو، رقيتها المتكلمة، فأجابتها هذه قائلة:

هيه يا نجدو ديوال! لقد أغرقك باغوماويل في نوم عميق، ثم ربط جسدك إلى الأرض. لن تستطيعي مفارقة سريرك إلا بعد أن يكون قد غادر البلد الذي تبسطين عليه حكمك. سبعة رؤوس قطعتها بيديك، توجد مصفوفة على بابك. ولك أنت أن تعرفي لمن هي. ثم صمتت فلم تعد بعد ذلك للكلام أبدا، على الرغم من كل المجهودات التي بذلتها نجدو ديوال.

(*) بما أن النهر يعتبر طريقا تقود إلى المعرفة (المحيط المالح)، فإن المركب الطائر يعتبر، عن طريق المماثلة، وسيلة نقل المتعلم في رحلته الروحية. وهنا، يصبح باغوماويل وسيلة نقل لنفسه وللآخرين.

وبمجرد أن قطع باغوماويل حدّ البلد الذي تحكمه الساحرة العظمى، تخلصت هذه من القيود التي كانت تبقيها ملتصقة بالأرض. انتصبت وتوجهت نحو الباب. لا دهشة، سماوية كانت أو أرضية، قادرة على أن تعادل الدهشة التي استولت عليها عندما تعرّفت رؤوس بناتها السبع المحلوقة مثل رؤوس عقبان مسنة، وتعتمر بشكل غريب لحى رجولية. أطلقت صرخة، كانت من القوة بحيث كادت أحشاء الأرض تخرج، ونجوم السماء تسقط على الأرض مثل فواكه ناضجة! شرعت تبكي، واضعة يديها على رأسها، وهي تردد متأرجحة:

أنت يا جينو! (*) أنت يا من يعرف الخير والشر،
أنت يا من خلق الذكر والأنثى،
وابتدع المعادن،
والنباتات والحيوان،
لماذا تركتني
تحت رحمة باغوماويل؟
لماذا جعلتني أذبح بناتي السبع؟
كنَّ ماء عيني،
وكنَّ طمأنينة قلبي!

خرجت من المنزل مترنحة وتوجهت نحو شجرة باوياب العقبان العظيمة ٦١. كانت، لحظتئذ، كل آكلات الجيف تلك، مجتمعة على

(*) تلتفت نجدو ديوال أخيرا، في شقائها، نحو جينو، على غير عادتها. فهي لم تعد تمتلك وسائلها المعتادة كي تستدعي عفاريتها. يقول المثل: «لا تعثر عظاية صغيرة وقحة على طريق جحرها إلا عندما يُقطَع رأس ذيلها».

غصون الشجرة. وكانت ضبعة عجوز (*) تسكن تجويفا من شجرة الباوياب تلك، موجودة هي الأخرى. صاحت نجدو ديوال:

أنت يا ضبعة الباوياب!

أنت يا عقبان الباوياب!

أنت التي تستفيدين من كل جثث ضحاياي،

أناسا وحيوانات!

جعلني باغوماويل أذبح بناتي،

وأصاب بالخرس ديمبا - نياسورو، حارسي اليقظ.

أنا أناديك وأطلب غوثك.

أعينيني في صراعي مع باغوماويل،

مع أخواله ومع كل سكان بلدته!

أخبريني ما أصنع

حتى يستعيد ديمبا نياسورو

قدراته القديمة.

خرجت الضبعة العجوز من تجويف الباوياب. تمطت، في البداية، مثل كلبة استيقظت من نومها، ثم وضعت خطمها على الأرض وأطلقت عواء اهتزت الأرض من قوته. على الفور أحاط بنجدو ديوال (**) ثماني ضباع وتسعة عقبان وخمسة قرود ضخمة ٦٢. خاطبت الضبعة العجوز الحيوانات:

لقد استدعيتكم كي نعقد اجتماعا بهدف مساعدة نجدو ديوال، ذات اليد البيضاء علينا. لقد اندلعت لتوها حربٌ ضروس

(*) الضبعة «مشعوذة كبرى» (انظر الهامش رقم ٦٠ من الملحق).

(**) اثنان وعشرون «٢٢» حيوانا: إنه رقم يدل على القوة.

بينها وبين باغوماويل. أنت أيتها العقبان التسعة، حلّقي في السماء وزوري البلد وجمّعي كل المعلومات التي ستمكننا من أن نحارب باغوماويل ومساعديه والانتصار عليهم. وأنت أيتها القرود، ابحثي في الغابات. أما أنت أيتها الضباع، فحومي حول قرى هيلي ويويو، وهاتيني بكل ما يقال هناك همسا وجهرا، وإن اقتضى الأمر، خمّني أفكار الناس الحميمية!

وحافظي على تسترك، لأن باغوماويل ليس عدوّا حقيرا. إنه خصم له قيمته، على الرغم من صغره الظاهر. إن كان لايزال ضمن حدود نجدو ديوال، فهو ليس في مأمن مما سنقوم به، ولن نكون في خطر. لكن، إن كان قد عبرها، فإن الأخطار المحدقة بنا ليست قليلة. وفي جميع الأحوال فإننا سنكون شديدي الحذر لاتقاء شر هذا الجني الصغير.

بمجرد استماع عملاء نجدو لكلام الضبعة، انتشروا في الأرض وفي الأجواء. أما نجدو ديوال، فقد مكثت تحت شجرة الباوباب، مترصّدة كل ما يتحرك حولها وهي تتلفظ بهذا التعزيم:

(أنت يا جنّي إيطي - إيطي ١٦٣!
يا جنّي الدفء،
أنت، يا من يعرف كيف يحمّس الأرواح!
ألْهِم مَراسِيلي وقُدْ خطاهم،
فتّح عيونهم وسرّح مسامعهم!
لكي لا يغيب شيء عن بصرهم،
ولتسمع آذانهم كل شيء!
أنت أيها الجنّي نينيي - نينيي

يا حارس الحزن والكآبة!
أمطر باغوماويل وذويه
موتا وحزنا.
أصب يدَيْ الجنّي باليباس
فلا تقدر على إمساك شيء أو إطلاقه.
أنت أيها الجني لونديندياو
يا حارس الأخطار!
أغلق الأنبوب المعدني
القائم على ساق نحاسية!
أرعِد وكسّر واقتل
كل أبطال هيلي ويويو!
لتصبح صيحاتهم من الآن فصاعدا:
مي هيلي يويو، مي هيلي
مي هيلي يويو، مي هيلي١٦٤!
أنت أيها الجنّي كيفادياو
أيها القاتل بلا رحمة!
اجنِ أرواح
رجال وحيوانات هيلي ويويو
كما تجنى الثمرات الناضجة!
في هذا وبهذا ومن أجل هذا ومع هذا،
أنا أجدّد خضوعي لدونداري (*)

(*) دونداري: اسم آخر لجينو. وهو مصطلح يستدعي فكرة «شديد القوى» وحرفيا: «من يستطيع الفعل من دون أن يخشى عواقب أفعاله».

بذكر السلسلة
التي أنا إحدى حلقاتها٦٥
تعاليْ أيتها العفاريت! أنا أنتظر فعلَك
من اليوم الثالث عشر إلى اليوم الحادي والعشرين (*)
من الإقمار المقبل!
بعد أن رددت هذا الابتهال، واصلت حوارها الداخلي:

لقد حُرّر كومبسارا، الرقية العظمى، من اليقطينة المعدنية على يد سيري ويا - وامندي. منذئذ افتقدت أثرها. هي وحدها قادرة على أن تخبرني إن كان المدعو جاييل - فالو قد ولد؛ فولادته ستكون نذير شؤم عليّ وعلى أعمالي. وحدها تقدر على أن تنصحني وأن تقول لي ما عليّ أن أفعله (**).

لقد بعثتُ بضباع ذات عرف خشن ويقرود متسلقة وبعُقبان تجيد التحليق، لتأتيني بالأخبار. طارت في الهواء واجتاحت الغابات وضواحي القرى كي تستخبر عن كل ما يتعلق بكومبسارا وباغوماويل.

مرّ وقت. ظلت نجدو ديوال تحت شجرة الباوباب تنتظر، مستغرقة في أفكارها. رأت أخيرا مساعداتها تعود، لكنها لم تأت بشيء. استشاطت غيظا، فرمت الحيوانات بالغباء وطردتها، فاقدة بذلك مخبرين ذوي قيمة عالية.

(*) من اليوم الثالث عشر إلى اليوم الحادي والعشرين: المجموع ٧ أيام (بعدم احتساب الحدَّين - مترجم). نعثر هنا، كما عثرنا على ذلك في أماكن عدة من الحكاية، على «السبعية»، وهي علامة نجدو ديوال.

(**) كما أن با - وامندي وباغوماويل يستشيران الجمجمة المقدسة، فإن نجدو ديوال كانت تستشير، عندما تلاقي صعوبات، التميمة التي تضم شبح كومباساري. فلو كان هذا الشبح قد ظل في خدمتها لكان حذّرَها من ميلاد خصمها المُبَشَّرِ به ولكان أفتى عليها كيف تتصرف كي تنتصر عليه.

آنـذاك قال قائد القرود (*) وزعيمهـا، محزونا: لا تعودي أبدا إلى طلب العون من النوع الطائر ومن ذوي الأربع التي تعيش في الغابة، وبالخصوص من الحيوانات المتسـلقة! وإن كنت، يا نجدو ديـوال، لا تعلمـين، فإن جاييل - فالو، خصمك المرسـل، قد ولد. وقد ولد بشـكل معجز، إذْ خرج من بطن أمه دون مسـاعدة قابلة، وقد أخذ حمامه الأول بنفسه!

نـكّل هذا الكشـف بالمرأة الشـريرة. شـرعت تنـوح، وقد فقدت وسـائلها المعتـادة، عاجـزة وغيـر عارفـة مـا تفعـل: كان أول مـن خانني، من دون شـك، هو الوزغة؛ أحطُّ ما خلقه جينو من أنواع العظايات. هو الحيوان الجهنمي الذي مكن با - وامندي وسيري وكوبو من اجتياز اللهب وإدراك الجزيرة وسـط البحيرة. لم أكن قـد أخذت بعين الاعتبار تدخل العقـرب الملكة، ولا تدخل دودتها تحت - أرضية التي تنشـطر إلى قسـمين فتغدو دودتين تسـميان «شوكة الأرض» وتحفزان آكل النمل.

أنت يا جينو!

أسقط أسنان باغوماويل (**)!

وأصبه بجذري

يترك بثُورَه على جسده

يدممه ويفقأ عينيه!

لِيُصَب بمرض وليفقد كل قدراته!

ليؤكل لحمه!

(*) العالِم، معلم القرود؛ بمعنى آخر، زعيمها.

(**) بمعنى آخر: «تجريده من كل وسـائله»، فقد اعتبرت الأسنان رمزا للوسائل التي يستعملها في المقاومة.

ولتنخر عظامه!
ليجَفَّف جلده ويتصلب!
ليُنتِن مثل مزبلة (*)
بجانب مجزرة!
لتسارع إليه الديدان
ولتمتص دمه!
ليَصعُب عليه، منذ الآن، كلُّ شيء!
لتتداخل عروقه
مثل حزمة خيوط!
لتتورم شفتاه
ولتنتفخ ولتملأ قيحا!

بعد أن أنهت نجدو ديوال تضرعها الرهيب هذا، ضربت الأرض بقدمها اليمنى، فظهرت مطيتها الطائرة.

خذني، أمرت، إلى المكان الذي دُفن فيه كيكالا، أوّلُ رجل ظهر على الأرض. سأقضي الليل قرب قبره حتى أرى حلما استباقيا يدلني على الوسيلة التي أحارب بها جذع فالو. عليّ أن أقتله قبل أن يقتلني. سأكسر منزل (**) أبيه وأمه، وسأحطّم القرية التي ولد بها أقاربُه من جهة أبيه ومن جهة أمه. سأقتلهم جميعا وسأتملّى جثثهم!

بعد قولها ذاك، حلّقت على ظهر طيرها الضخم الذي توجه رأسا نحو سابيري، المكان الذي دُفن في كيكالا. كانت هذه البلدة العتيقة، التي لم يبق منها سوى الأطلال، تقع في سهل رحيب

(*) مستودع قاذورات.

(**) بمعنى: سأحطم العائلة. «كسر» تحتمل معنى حطَّم.

يسمى بوابيل - ماما [*]، وهو المكان نفسه الذي تجتمع فيه العفاريت التي ولدت قبل الناس، كي تتشاور في أمورها.

عندما وصلت نجدو ديوال إلى هناك، بحثت عن قبر كيكالا. عثرت عليه إلى جانب قبر ناغارا، زوجته.

اصطادت عقابا هرما رأسه عار عن الزغب وقطعت عنقه. أخذت تبحث عن زغب مأخوذ من عرف حمار عجوز منهوك القوى. بحثت أيضا عن تلك المادة البيضاء التي تتشكل على حافتي عيني الفرس، ثم قطعت رأس ديك. بعد ذلك جمعت بعضا من عشب نابت على قبر مجهول.

وضعت كل ذلك في آنية من خزف وصبت عليه بعض الماء وهي تتلو الصيغة السحرية العظمى التي تبتدئ بـ : جوم - تيتي، مان - تيتي [**]! التفتت بعد ذلك، تباعا، إلى النقاط الست للفضاء: النقط الأربع الأساس أمامها، ثم إلى السّمت فالنظير، اللذين نظرت إليهما برفع رأسها ثم بخفضه. رتلت، في كل اتجاه، ثماني مرات، تلك العبارة الطقوسية ثم أضافت:

أنت يا روح العناصر المتجمعة في هذه الآنية!
انزعي أسرارها من جهات الفضاء الست،
وأجيبي عن الأسئلة التي سأطرحها عليك،
لكن لا تجيبي عن الأسئلة التي لن أطرحها عليك.

بصقت سبع مرات في الآنية [***] وطبخت المجموع. عندما

(*) حرفيا: «خرائب». بوابيل - ماما: «سهل الأجداد».

(**) جوم - تيتي، مان - تيتي: كلام سحري يقع في مقدمة بعض الأدعية الطقوسية، عندما يراد بها الحصول على شيء. جوم - تيتي تعني حرفيا «الذي يملك وسائل السلب»؛ مان - تيتي: «متى سَلَبَ؟».

(***) يعتبر البصاق بمنزلة وسيلة لنقل القوى المتضَمَّنَة في الكلمات.

نضج الخليط جيدا، أخذت ماءه. استغلت جزءا منه في طبخ عشاء تناولته واقفة، وهيأت بالبقية - التي أضافت إليها ماء مستقى من بئر قديمة تعمرها الضفادع - حمّاما فاغتسلت به. بعد ذلك صنعت كرسيا مستديرا بضفر الأغصان اللينة لنبتة نجيلوكي، وآخر بضفر أغصان شجرة سفاطو٦٦. عندما أنهتهما، تمددت على الأرض إلى جانب القبر، فوضعت كرسي نجيلوكي تحت رأسها وكرسي سفاطو تحت قدميها، فنامت مديرة رأسها نحو الغرب منتظرة الحلم الاستباقي (*).

لحظات قبل أول صيحة ديك، رأت حلما؛ مرق طيف وقال لها:

أنت يا نجدو ديوال! خذي حذرك لأن الأمور ستتبدل عليك. لقد ولد جذع - فالو، وهو آخذ يترعرع بوتيرة لم يسبق أبدا لابن آدم أن ترعرع بها. هو ينمو كل يوم ما يعادل نمو شهر. إنه مرسول أتى إلى الدنيا كي يواجه كل الشرور التي أصيب بها الشعب الفولاني.

استيقظت نجدو منتفضة مبلبلة مما رأته في منامها. رفضت تصديق ما رأت؛ الأمر لا يتعلق إلا بكابوس! نهضت مسرعة وامتطت طائرها ثم فرت، مغادرة ذلك المكان الذي ليس بالنسبة إليها سوى مكانِ سهرٍ مقلق.

عندما عادت إلى بيتها حرقت جثامين بناتها وجمعت رمادها ووضعته في أكياس صغيرة منفصلة أودعتها جرابها. شرعت

(*) لاتزال هذه الممارسة، حتى يومنا هذا، سائدة من أجل الحصول على حلم استباقي (ما يعادل صلاة الاستخارة عندنا - المترجم)، خصوصا عن الفولانيين الرعاة لمنطقة فيرلو السنغالية، بجهة موغير.

ويلي - ويلي، فجأة، تتحول أمام عيونها المندهشة إلى كومة من الحجارة والصخور. تشكلت، في أماكن منها، مغارات وفجوات شبيهة بتلك التي نشاهدها أحيانا في أشد الأدغال وحشية. حصل ذلك بفعل أذى سحري من باغوماويل.

ما عاد يقطن ويلي - ويلي سوى ضباع هزيلة وأسودٍ بلا أسنان ونمرات بلا مخالب. وكانت الأفاعي قد فقدت سمها وشرعت الضفادع والعظايات تغزو الأزقة. السكان الذين كان بإمكاننا أن نلتقيهم هم ظباء وغزلان وحُمُرٌ وحشية وسناجيب وعقبان وشياهم. أضحت البلدة مجرد خراب شاسع أضحى ملتقى لكل ما يولد بالغابات ويكمن في الجحور ويقطن الأعشاش، وسط كل أنواع الأعشاب والنباتات التي بها من الأشواك أكثر ممّا بها من ورود؛ ومسمومة أكثر مما هي قابلة للأكل أو صالحة للعلاج.

أصاب نجدو ديوال هذا المشهدُ، الذي أتى بعد حلمها المشؤوم، بالانهيار، فانسحبت إلى إحدى مغارات بلدتها الخراب.

أثناء ذلك، كان باغوماويل وأخواله قد عادوا إلى حال سبيلهم. وذات يوم، أقبل الإخوة السبعة للبحث عن ابن أختهم فطلبوا منه بإلحاح أن يجعلهم يقومون بجولة جوية فوق مناطق نفوذ نجدو ديوال. كانوا يريدون أن يعرفوا الحال التي أصبحت عليها ويلي - ويلي. رفض باغوماويل، في البداية، محذرا إياهم من المخاطر التي يمكن أن يكونوا عرضة لها إن هم قاموا بمغامرة مثل هذه.

آنذاك التجأ الإخوة السبعة إلى أختهم وامندي. طلبت هذه من ابنها - على الرغم من المخاوف التي ساورتها - أن يعمل

على إراضاء أخواله (*).

وهل يمكن رفض طلب لأم (**)؛ تلك الأم التي نقطنها لتسعة أشهر والتي يكون رحمها غرفة نومنا وغرفة أكلنا ومكان استراحتنا، والتي تهبنا الحياة مخاطرة بحياتها هي؟ ألسيت هي التي تحملنا - بعد ولادتنا - لمدة أربعة وعشرين شهرا؟ من يستطيع، بالفعل، رد دين الأم؟ لا أحد! أقل ما يمكننا أن نقدمه للأم، إذن، كشهادة اعترافٍ بالجميل، هو أن نعمل على إرضاء رغباتها، مهما تكن، وبأقصى سرعة ممكنة.

لم يكن باغوماويل يجهل ما هو مديُن به لأمه وما عليه القيام به من أجلها، فأجابها: ما دمت تطلبين مني ذلك بكل هذا الإلحاح، سأذهب إذن رفقة أخوالي لمواجهة الخطر الذي يمثله الذهاب إلى منطقة نفوذ نجدو ديوال. تحول بعد ذلك، ثانية، إلى مركب طائر وحمل أخواله ثم طار للقيام بالرحلة الخطيرة.

كانت الشريرة العظمى، بدورها، وهي ممددة بمغارتها، تفكر في وسيلة كي تؤوِّل تأويلا دقيقا الحلم الذي رأته في منامها قرب قبر كيكالا، وما يمكنها أن تقوم به كي تنتقم من باغوماويل

(*) برغم أن وامندي ترددت في تبليغ طلب مثل هذا لابنها، فإنها لا تستطيع أن ترفض أي شيء يطلبه منها إخوتها الكبار، تماشيا مع التقاليد. يمكن لأخت أن تُدفع للقيام بأعمال قد تبدو غريبة حتى ترضي إخوتها، لكن هؤلاء يكونون أيضا مستعدين لفعل أي شيء من أجلها.
إن العقل، ههنا، لا دخل له. لا يتم التساؤل عما إذا كان الفعل جيدا أو سيئا، لأن «إرضاء» الأخ أو الأخت هو الهدف. وبذلك، فإن العواقب أو الأخطار لا تؤخذ بعين الإعتبار.
(**) ثمة، وفق تقليد لبلاد السافانا الغربية، أربعةُ أشخاص لا يَحقُّ أبدا أن يقال لهم «لا»: الأبوان والمعلم الملقن والملك والغريب الذي أرسله الله. يتم أحيانا، في شروط معينة، قبول رفض طلب الأب، لكن لا يتم أبدا قبول رفض طلب الأم. ولا تتم الاستجابة لطلب الأم، بسبب كوننا نريد أن نقدم لها خدمة لهذا السبب أو ذاك، وإنما نقوم بذلك بتبعية كاملة وغير مشروطة.

وأخوالـه. لـم يكن لها من رفقـاء، في عزلتها، سـوى الخفافيش المنتنة والبراغيث ومطيتها الطائرة المخلصة.

وذات يـوم، سـمعت الضجيـج الذي أحدثه المركـب الطائر في الفضاء. خرجت مسرعة من مغارتها. إنه جاييل - فالو المستفز، صاحت، أتى رفقة أخواله كي يسـعد برؤيـة حال بلدتي المنكوبة! ثـم امتطت طائرها وأخذت الأجواء كـي تهاجم باغوماويل. كان هذا الأخير قد حلق فوق البلدة الخراب، وأخذ طريق العودة.

كان طير نجدو ديوال يحلق بسرعة فائقة مما جعله يقترب بسرعة من المركب الطائر. ألقت نجدو على المركب حبلا سحريا، فأثـار صفيره انتبـاه باغوماويل. قذف على الفور نجدو ديوال بمكنسة سـحرية. انتصبت من عود المكنسـة مجموعة سيقان من خشـب الأسـل كما ينتصب الشـوك الواخز لقنفذ. التوى الحبـل السـحري عليه، فظنـت نجدو أنها قـد أصابت الهدف فسـحبت، لكن خشبات الأسـل كانت حادة فقطعت الحبل إلى أربعة أجزاء سـقطت على الأرض. تحول الجزء الأول إلى هوة سـحيقة تصيـب كل من يحلـق فوقها بالـدوار؛ وأصبح الثاني نهـرا عظيمـا متلاطـم الأمواج؛ وتحـول الثالث إلـى جبل هو من العلو بحيث لا يسـتطيع حتى النسـر الأشد قوة التحليق فوقـه؛ وأصبح الرابع، أخيرا، حريقا في سـهل، هو من التأجج بحيث ألهب حتى الأجواء.

حثت نجدو ديوال طيرها على أن يضاعف سرعته، وهي لاتزال تحمل في يدها ما تبقى من حبلها السحري. لكن الطير، عندما حلـق فوق الهوة، تأثر بنوع مـن الجاذبية جعله يفقد، بالتدريـج،

من علوه. وعندما وصل في الأخير، إلى وسط الحفرة المفتوحة، سقط فيها محدثا دويا، وقد التصق ريشه بعضه ببعض كأنه قد أغطس في الصاق، فاضطرت نجدو ديوال المنهكة أن تعتمد على قدميها. كانت الحفرة معتّمة كأنها ليل بهيم. مشت الشريرة ساعات طويلة، على غير هدى، باحثة عن مخرج. لمحت أخيرا أمامها ثقبا صغيرا ليس أكبر من خرم إبرة.

كانت نجدو ديوال لاتزال تعلق على كتفها جرابها السحري الذي يحوي الآن، فضلا عن ترسانتها السحرية المعتادة، رماد بناتها. أخرجت منه كيسا صغيرا وفتحته فأخذت منه قليلا من مسحوق متفجر مزجته بقليل من الرماد. حفرت في الأرض، قرب الثقب، ثقبا آخر بعمق ذراع ووضعت فيه الخليط. آنذاك أخرجت من جرابها قطعة من نوع غطاء «الكازا»، وفركت إليه بقوة شعرها، فالتهبت قطعة الصوف. وضعت نجدو ديوال الفتيل المرتجَل إلى جانب الثقب وابتعدت كي تختفي خلف هضبة صغيرة. أمسكت بغصن جاف وجدته بالقرب منها ودفعت به قطعة كازا الملتهبة إلى الثقب. دوى انفجار فاتسع الثقب الصغير الشبيه بخرم إبرة، وأضحى في شكل فتحة تكفي للمرور. غادرت الساحرة مخبأها وهربت من المخرج. لكنها، للأسف، لم تفعل ذلك إلا كي تسقط في الوادي الذي كانت أمواجه من الاعتمال بحيث كانت تقذف في الهواء بالحيوانات المائة الصغيرة كأنها مجرد حبات مبتذلة.

استطاع فرس نهر ضخم، وهو يقاوم الأمواج، أن يقترب من نجدو ديوال: من أنتِ، صاح، حتى تجرئين على ولوج هذا

النهـر في لحظة هيجانه هذه؟ وما وجهتك؟ ألا تكونين تطلبين الهلاك؟

- أنـا، قالـت، خادمـة مخلصـة لجاييـل - فالـو، باغوماويل، السـاحر الأكبـر الخيِّر الذي ولد من خيِّريـن آخرين، من حيوان وإنسـان. وقد دخل في حرب مع نجدو ديوال، ملكة ويلي - ويلي، وكلفنـي بمراقبـة تحركاتهـا. وهـي الآن قد بـدأت حملتها! فهي تعلـق على كتفها جراب شـرورها الذي يحوي أخطر تشـكيلاتها السـحرية القـادرة علـى تفجيـر الأرض بأكملها وإذابة السـماء فـي رمشـة عين. أنا أعلم أنها قد خرجـت من بيتها هذا الصباح، راكبة طيرا ضخما قويا وسـريعا. ستصل إلى المنطقة قبل صباح الغـد، أو غـدا بعد الـزوال على أبعـد تقدير. والحـال، أنه لا قوة فـي الوجود قـادرة على الوقوف في وجهها سـوى قوة باغوماويل نفسـه. وإن لم يُخطَر فالو في الوقت المناسـب، سـتفاجئه نجدو ديـوال وسـتعطل نظام حمايته. وعليّ أن أحذّره، في أسـرع وقت، حتى يستعد لمواجهة الساحرة العظيمة.

اقتنـع فرس النهر الساذج بهذا التصريح، فسلم ظهره الشاسع للساحرة العظمى. امتطته فاستطاعت أن تعبر النهر الهائج من دون مشاكل.

عندما نزلت بالضفة الأخرى، رأت أمامها منتصبا جبلا قويا يمتـد في العمق إلى الأرض السـابعة ويصـل من الارتفاع حدًّ أن بـدت قمته كأنها تخترق السـحاب. قضت يومهـا كله تبحث عن مخرج أو سـيلة لتسـلق هذا الحاجز القوي. كانت تمشـي أحيانا مبتسـمة، رافعـة بصرهـا كي تنظـر إلى الجـدار العظيـم؛ وتارة

تتفحص الأرض وهي مائلة كأنها تريد أن تأخذ من الأرض قطعة خشب جافة؛ وكانت أحايين تمشي على أربع... لكن، لا شيء من ذلك كان ذا جدوى (*).

أقرت بعجزها فقررت أن تتسلق الجدار، وإن هلكت جراء ذلك. حاولت التسلق سبع مرات، وسبع مرات تدحرجت مثل صخر حط من قمة هضبة.

كُلِمَتْ فسالت دماؤها من جروحها مثلما يجري الماء من منبع، لكنها لم تيأس. أخرجت من جرابها مسحوقا خلطته ببعض رماد بناتها ودهنت أخمص قدمَيها وراحتَيْ كفيها وركبتيْها. أصبحت هذه الأجزاء من جسدها، على الفور، ألصق من قوائم الوزغة. صعدت، ملتصقة بالجدار، بصعوبة بالغة، شبرا شبرا وذراعا ذراعا، إلى أن أدركت أخيرا قمة الجبل. غير أن هذه القمة كانت تفضي، للأسف، فجأة، إلى منحدر زَلِق جدا، مما جعل نجدو ديوال، قبل حتى أن تنتبه لذلك، تسقط وتتزحلق حتى سفح الجبل. وثمة، اندلع لهيب مهول كأنه كان في انتظارها. شرع كل شيء يطقطق من الحريق. كانت ألسنة اللهب تمتد وتنقذف في الفضاء محدثة دخانا شديد الكثافة والسواد، مما جعله يغشى السماء. شرعت عقبان ضخمة، وهي تحلق فوق الحريق، تمسك بالطيور والحشرات التي كانت تحاول الفرار من اللهب. احترقت أرانب

(*) «المشي مع الابتسام»: سلوك من أجل جلب الحظ. يقال إن العمل مع الابتسام يسهل النجاح، بينما لا يؤدي العمل مع الحزن إلا إلى الفشل. ومن هذا الباب كان الحرفيون، وهم يشتغلون، يشرعون يغنون أو يصدرون أصواتا موقعة. ونجدو ديوال تقوم بكل ما تستطيع كي تسحر الجبل، لكن سدى. يقال عن شخص: «لقد استعمل كل وسائله: مشى ونام وزحف، حاول كل شيء، لكن من دون فائدة».

مثلما تحترق قطع خشب جافة وشويت سلاحف مثلما يشوى الدجاج في الفرن.

عندما علمت نجدو ديوال بأنها لن تستطيع عبور هذا السهل من دون أن تُحرق حية، التجأَت إلى حيلة: دهنت جسدها برماد وزغة مخلوط بمسحوق نبتة تقاوم الحريق، ثم ولجت النار فخطت على الأرض الحارقة ومشت فوق الجمر المتقد متخطية الحطب الملتهب! استخدمت ببراعة يديها وقدميها، محاطة بألسنة اللهب والأدخنة، فأدركت أخيرا نهاية الحريق وغادرته. لكن شعرها غير المحمي بالمسحوق، مس بالنار فأحرقته ألسنة اللهب، وتعرت جمجمتها واسمَرَّ جلدها. كانت بالتأكيد قد أفلتت من موت محقق، لكن جسدها كان يبدو مثل جثة وأصبحت عيناها أشد حمرة من زهر شجرة القابوق.

عندما اجتازت نجدو ديوال كل هذه المحن، علمت أن باغوماويل قد ربح الوقت وفر. كان قد تجاوز منطقة نفوذها وما عاد لها عليه من سلطان. ذهبت، منهارة، لتجلس تحت شجرة جبن تسكنها خفافيش وشرعت تبكي بدموع حارة وهي تعض أصابعها غيظا. كانت تشعر بشقاء شديد أحست معه أن الفضاء حولها ضاق عليها بما رحب، كأنه زنزانة معزولة. شعرت بالعجز وبعدم القدرة على التصرف فهاجمت، غاضبة، الأشجار والنباتات التي تحيط بها. شرعت، وهي ترغي وتزيد وتلعن، تقتلعها بعنف وتقذف بها في الاتجاه الذي اختفى منه باغوماويل.

أتت الخفافيش التي تعيش في شجرة الجبن وأحاطت بها.
أنت يا نجدو، خاطبتها، لقد استطاع باغوماويل ثانية أن يفر منك. استمعي إلى نصيحتنا: تمرغي في التراب وادهني جسدك بالصلصال ثم البسي ثيابا من أوراق وعودي إلى بيتك، متقنعة بتلك الشاكلة. ستكونين شبيهة بحزمة أغصان تقذف بها الرياح، مما سيمكنك من أن تعودي أدراجك دون أن تتعرضي إلى آثار التمائم التي زرعها لك باغوماويل في الطريق. إن لم تتصرفي بهذه الشاكلة، فإنك لن تتعرفي على طريق منزلك، كما أنك ستموتين قبل انقضاء سبعة أيام. أما بالنسبة إلى باغوماويل، فقد التحق بهيلي ويويو من دون أن يصاب بسوء، وعاد أخواله إلى منازلهم بعد أن قدّموا التّهنئة لوامندي وشكروا السماء على أن أعطتهم ابن أخت بهذه الروعة!
طبقت نجدو ديوال حرفيا نصائح الخفافيش٦٧.
استطاعت، مختفية خلف قناعها الأخضر، أن تعود من دون أن تصاب بسوء، إلى مغارتها بالبلدة الخراب. عندما انعزلت في ملجئها، قضت سبعة أيام تفكر فيما عليها القيام به كي تنتقم من باغوماويل؛ لكنها لم تستطع إيجاد أي حل. أرادت، منهكة، أن تتخلص من انفعالاتها الشديدة، فتناولت منوما سائلا جعلها تغرق في النوم طيلة أسبوع. عندما أفاقت، وجدت أنْ لا شيء تغير. لم تستطع أن تقاوم قلقها المتنامي، فأخذت جرابها وأخرجت منه ملفوفا يحوي مسحوقا مشكلا من رماد حرباء. اغتسلت به كما يتم عادة غسل ميت. حللت المسحوق السحري في الماء وغسلت به كل جسدها ثم شربت بعضه. بعد ذلك ذهبت

لتجلس على مقعد من عروش الفوجي المضفورة. جلست جهة الغرب ومكثت تنتظر اللحظة التي يشرع خلالها قرص الشمس يختفي خلف الأفق. آنذاك بدأت ترتل هذه التعزيمة:

أنت يا جينو، استمع لصوتي.

أنت السيد،

السيد المطلق لكل شيء.

أنا أمّ،

أمّ يائسة

تبكي موت بناتها السبع.

كالشمس التي ستختفي في العتمة،

اعمل، يا جينو، على أن يختفي مظهري المعتاد

كما تختفي الجثة في قبرها!

من فضلك يا جينو!

اجعلني امرأة جميلة

تُثمِل رؤيتها الرجال

وتجعلهم يفقدون صوابهم.

يا جينو، يا مالك العظمة!

اجعلني امرأة فاتنة،

مجرية ومحبوبة وجذابة!

بعد أن تلفظت بدعائها، عادت إلى فراشها ونامت مثل روح بريئة لا مأخذ لها على نفسها.

عندما استيقظت نجدو صباح اليوم التالي، اكتشفت أنها قد أضحت امرأة شابة بجمال لا يضاهى، كأنها قد خرجت لتوها

من الجنة (*)! وجدت نفسها مُحَاطَة بسبع غانيات كلهن فاتنات الجمال. خاطبتهن قائلة: الزمن ينصرم. لننصرف في أقرب وقت ممكن، فالوقت الضائع لا يعود. امتطين على الفور بغالا رائعة مطهمة، ابتدعها سحر نجدو ديوال، واخذن وجهة هيلي ويويو.

كانت الساحرة العظمى قد حرصت على أن تعجل ببعث رسل قبلها، وهم يمتطون جيادا سريعة. أعلنوا في كل مكان أن قافلة كبيرة محملة بأغلى البضائع، تقودها تاجرة ثرية قادمة إلى هيلي لتحضر المعرض السنوي لمدة أسبوع. وقبل أن تنطلق شرعت توزع بسخاء عيناتٍ من تجارتها فائقةِ الجمال، تسمح بتقدير جودة وقيمة بضائعها التي ستعرضها على المشترين.

عندما وصلت نجدو إلى هيلي، أقامت مضاربها خارج البلدة. انشأت بالمكان أبنية مؤقتة مرتبة ومنظمة بتناغم، مما فتن سكان هيلي وكل عشاق المعرض القادمين من الجهات الأربع للبلاد. كان المكان جميلا ومثيرا للبهجة، معمورا بنباتات رائعة تجري بين أشجاره المورقة شعبة وادٍ ملتوية مثل أفعى ملتفة حول نفسها. في كلمة، كان جذب مضارب نجدو من القوة بحيث جعل معرض هيلي، على الفور، يتحول إلى مكانه بشكل كلي تقريبا.

كانت المضارب مملوءة بأشياء ثمينة من ذهب وفضة ودمالج وأحجار كريمة وعقود وخواتم. كما كانت به أوان

(*) لماذا يستجيب جينو لدعاء نجدو ديوال الشريرة؟ علينا ألا ننسى أنه هو نفسه من أرسلها، وبالتالي فإن ما يقرره لا يكون واضح الدلالة... خصوصا بالنسبة إلى الأحكام المتسرعة أو المصطنعة. وبالفعل، فإن نجدو ديوال، بهذا الشكل، تكون لايزال لها دور تلعبه كي تستمر الحكاية بشكل جيد قبل الوصول إلى نهاية الحبكة. وما تعتقد هي أنه تحول مبارك لمصلحتها ليس سوى السير بها نحو مصيرها. يقول المثل: «كل وسيلة تستعمل لتفادي القدر، لا تؤدي بصاحبها إلا إلى الإسراع نحوه».

منزليــة وأدوات مــن نحــاس أصفــر أو أحمر منقوشــة بعناية وملابس من حرير مزينة بشــرابات وحواش ومطرزة بخيوط ذهبية صافية وجياد ضخمة أصيلة مروّضة، إضافة إلى آلاف من الروائع. كان كل ذلك يؤخذ بالمزاد مقابل لا شيء تقريبا! حتــى الحميــر لم تكن عادية، بل كانت عبارة عن بردونات (*)! أما الخرفان والماعز، فكانت تضاهي بأحجامها حجم الظباء. وكانت الأبقار يكنزن من الحليب ما تقطر به حلمات أضرعهن عند أدنى حركة.

أقبل السكان على معرض القرية. كانت البضائع بثمن بخس، ممــا جعلهم يقبلون عليها طيلة أســبوع، وما عــاد وقت لأحد أن يبيع.

وســرعان ما سرت بذكر التاجرة الغنية الركبان في كل البلاد. ذاك كان هــو مبتغــى نجــدو ديوال. شــعرت بارتياح كبيــر، بعد أن كان الضيق مازال مســيطرا عليها إلى تلك اللحظة. أخيرا، هذه أمنياتهــا آخــذة في التحقق! أذاعت أنها ســتقيم، مــع مرافقيها ومرافقاتها، حفلا عظيما على شــرف الشباب، على أمل أن يكون الحفل مناسبة لإقامة علاقات زوجية تجعل العلاقات بين بلدها وبلد هيلي ويويو أقوى.

أثار اقتراحها حماس الشــباب وشرع الجميع يتحدث عنه في الســوق وفي الأزقة وفي الســاحات العمومية وحتى في المســاكن الخاصــة. كان مجــيء هــذه الســيدة ، بَرَكَــة مثلمــا هــي هبة من السماء يجب الاستفادة منها.

(*) (مفردها بردون – المترجم): مولود من اجتماع فرس وحمارة.

أليس الحظ، كما يقال، مثل زغب قُلَّب؟ مادمنا لا نعرف على أي جزء من الجسد سينمو، يكون علينا أن نراقبه وأن نعرف كيف نمسك به في حينه.

أقيم الحفل في اليوم المحدد. ارتاده أخوال باغوماويل على الرغم من تحفظات ابن أختهم. طلب منهم باغوماويل أن يكونوا شديدي الحذر واليقظة لأن توزيع ثروة بهذه الطريقة، من وجهة نظره، لا يمكنه إلا أن يكون مُخفيا لنية غير معلنة.

عندما أقبل الشباب إلى مضارب التاجرة الغنية، عمدت هذه إلى اختيار أجمل ست فتيات من حولها وقذفت بهن إلى أحضان أصغر ستة من الإخوان السبعة، محتفظة هي لنفسها بحمادي، البكر. عاهدت كل واحدة منهن فارسها بأن تتزوجه. وما حصل تلك الليلة، ما الذي يمكن أن يعبّر عنه أحسن من هذه المقطوعة الفولانية؟

قال لك آجا٦٨ :خذ حذرك أيها الرجل!
توجّس الحيلة التي نسجتها لك المرأة (*)
هي أخطر من رمح الحرب.
قد تَغْطِس أنت في اللهب،
وقد تغرق أمام أنظار الجميع.
من يلمس القاذورات (**) تُلطَّخ يده.

(*) «حيلة المرأة»: مكرها وخبثها.

(**) القاذورات تعني هنا الفحش، أي العلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية. وهو أمر منبوذ جدا في تقاليد البافور (السافانا الغربية). وليس الفعل الجنسي، في هذا التقليد، هو الذي يعتبر معيبا - بالعكس، فهو مقدس لأن «رحم المرأة هو معمل جينو» (أو مانغالا)، وإنما المعيبُ اقترافه خارج إطار الطقوس والمعايير.

جمال الأنثى يُعمي الذكر؛
يُضله حتى يَفْقد شرفه
يَجُسُّ ويُتَأْتِئ ويُمَأْمِئُ دون جدوى.
إن أفلح فذاك هو العار،
وإن فشل فهو الاحتقار٦٩.

للأسف، لم يأخذ أخوال باغوماويل حذرهم من الحيلة التي نسجتها التاجرة الجميلة والغنية. قبلوا من دون تردد اقتراحات مرافقاتهم وواعدوهن بالذهاب معهن ليطلبوهن للزواج، بالطريقة التقليدية، من آبائهن (*). لكنهم كانوا قد لمسوا القاذورات فأفقدتهم رشدهم العلاقات التي أقاموها مع الفتيات خارج إطار الزواج.

عندما أُخطر باغوماويل بذلك، جمع مجلس شيوخ هيلي ويويو وقال لهم: لقد تم الإيقاع بأخوالي. اعْتَقَدُوا أنهم قد عثروا على مرافقات نموذجيات، وهم يريدون أن يذهبوا معهن كي يتعرفوا على أصهارهم المستقبليين. لكن هذه المرأة التي أتت وأغرقت معرضنا ببضاعتها التي تضاهي حبات الرمال عددا، تقلقني. أنا أشك بقوة في أمرها.

تقاليد الفولانيين الحمر (**) تقتضي، بالفعل، أن يتم قضاء الأيام السبعة الأولى للخطوبة في بيت الأصهار، وأنا أتفهم أن يكون أخوالي يريدون احترام التقاليد، لكنني أشك في أن الأمور

(*) أن تكون الفتيات، عكس التقاليد، قد اقترحن أنفسهن للزواج، وأن يكون الإخوة السبعة قد قبلوا، لا يكفي لعقد القران، حسب التقاليد. ويكون على الشباب أن يتوجهوا إلى عائلات الفتيات كي يسووا الوضعية.
(**) لقب أطلق على الفولانيين الرعويين.

ستمر على خير. أنا أخشى أن تكون نجدو ديوال من وراء هذا الأمر كله. كيف يمكننا أن نقبل أن تجد امرأة بهذا الجمال وهذا الثراء نفسَها مضطرة لذرع البلد حتى تحصل على زوج لنفسها ولمرافقاتها الجميلات؟

ومن المعروف أنّ أي تاجرة تسعى إلى الربح من وراء تجارتها، والحال أن هذه تبيع بضاعتها بأبخس الأثمان. إنها من وجهة نظري تبحث عن شيء آخر غير الربح التجاري. إن هذا لَواضح وضوح الشمس في كبد السماء! لكن، للأسف، وكما يقول المثل: «الطائر الذي سيموت برمية سهم، لا يسمع الصفير المحذر من الخطر»، أو كما يقول أيضا: «من سيموت لا يلمح تنقل الرصاصة التي ستجهز عليه».

كان باغوماويل قد قبل، بالرغم منه، أن يقوم أخواله بالرحلة، لأنه لا شيء كان قادرا على كسر تصميمهم. أُعدَّت لهم، صباح اليوم التالي، باكرا، قافلة، فمُنح الشباب السبعة سبعةَ جياد مطهمة بشكل جيد، وجُمعت البضائع، التي لم تُبع، في أكياس وضعت على ظهر حيوانات لحمل الأثقال، كما وضع بعضها على ظهر خمسة حمير من نوع البردون حتى انثنت من ثقلها ظهورُها.

أخيرا، وبعد يوم كامل من الاستعدادات، أصبحت القافلة مستعدة للانطلاق نحو وجهة مجهولة، فغادرت هيلي ويويو منتصف النهار.

كانت الظلمة من الكثافة بحيث لم يكن بمستطاع أحد أن يرى راحة يده. كانت التاجرة الثرية تركب ثورا ضخما، وكان

أخـوال باغوماويـل يتقافـزون إلى جانبهـا. كانوا، مـن فخرهم، يجعلون مطاياهم تمشي مشيا موقّعا، بل كانوا يجعلونها ترقص ليستميلوا زوجاتهم في المستقبل٧٠.

مشـت القافلـة كل الليل، وعند الفجر، قالـت التاجرة الغنية لحمادي: سـيروا فـي المقدمة أنت وإخوتك؛ سـتكونون طليعتنا، وستتبعكم بقية القافلة في خط مستقيم.

أخـذ حمادي المقدمـة متبوعا بإخوته السـتة، وسـارت نجدو ديوال خلف نجوبو، أصغر الإخوة.

شرع حمادي، في قمة سعادته، يتغنى بالحب ويفتخر بنفسه. وكان أحايـين أخـرى، خـلال ذلك، يتغنـى بأشـعار رعوية تمجد الانتصـارات الكبـرى لرعـاة قدامـى، أو بأناشـيد حربيـة تمجد أبطـالا قدّموا أرواحهم فـداء للمرأة ولليتيم وللنوع البقري. أما إخوته الستة فقد اكتفوا بترديد أناشيد تُغنى في الأعراس كأنّهم يستعجلون قرانهم المقبل.

وعندمـا كان أخـوال باغوماويـل يهيمـون هكـذا فـي ثمالـة أناشـيدهم، لـم ينتبهـوا إلـى أن القافلـة خلفهم، وبالموازاة مع تقدمهـم، كانـت تتناقـص تدريجيـا كأن الأرض تبتلعهـا شـيئا فشـيئا. كانوا يمشون قدما غير مهتمين إلا بالأفق الذي يتراجع أمامهم كأنه مستقبل عصيّ على التحقق.

سـرعان ما اختفت القافلة كلها تحت الأرض، وبقيت التاجرة المُدَّعَـاة وحدها خلـف أخوال باغوماويل السـبعة. فجأة، وأمام انذهـال الشـبان السـبعة، اختفـت مطاياهـم تحـت الأرض كأن انسـياخا ابتلعها. وجدوا أنفسـهم جميعا جالسين على الأرض.

في قمة مفاجأتهم، انتصب حمادي واقفا. وعندما لم ير القافلة، سأل خطيبته الواقفة أمامه، وقد أضحت أجمل من أي وقت مضى:

أنت يا وورانيكام، يا حياتي (*)، أين اختفت القافلة، وأين مطايانا، وأين نحن؟

- لماذا أنت قلق؟ أجابته بصوت رقيق. هل أنت خائف؟ إن كان الأمر كذلك، فاعلم أنه لا يمكنني أن أحب جبانا ولن أقبل الزواج منه أبدا. لكن عليّ أن أقول لك الحقيقة، فأنا لست جميلة من دون سبب، عليك أن تعي ذلك. أمي ابنة رجل وامرأة، لكن أبي جني. كثير من الرجال طلبوا الزواج مني، لكن من أحببته واخترته من بين الجميع هو أنت، واخترت إخوتك لمرافقاتي. وقد جعلت المطايا تختفي لأنني أردت تجنيبكم عناء إنزال ما عليها وربطها. ألا نعمل على تجنيب من نحبّ كل عناء؟

أثناء حديث نجدو ديوال، شَعَرَ الشبان السبعة، فجأة، بقوة غير مرئية عظيمة ترغمهم على التمدد على الأرض والبقاء بلا حراك، بينما كان أمرٌ ما أصلب من الصخر يُنشأ حولهم. وبالفعل، فإن نجدو ديوال كانت قد أمرت فريقا من البنائين - العفاريت بحبس أخوال باغوماويل في نوع من التوابيت الحجرية تلفّ أجسادهم ورؤوسهم، ولا تترك ظاهرا سوى وجوههم. وهكذا وجد الشبان المساكين أنفسهم وسط توابيت حجرية كأنهم أحياء بين الموتى أو موتى بين الأحياء.

وكي تحول نجدو ديوال دون وفاتهم وتخليصهم من عذابهم،

(*) وورانيكام: حرفيا «حياتي أنا».

عمدت إلى مدهم ببعض الطعام. بعد ذلك أمرت عفاريتها برفع التوابيت الحجرية وتثبيتها واقفة حول دائرة يصل قطرها سبع أذرع. عندما أصبحوا على تلك الشاكلة، ذهبت للبحث عن جرابها فأخرجت منه الأكياس الصغيرة السبعة التي تحوي ما تبقى من رماد بناتها. دخلت وسط الدائرة وأفرغت محتوى كل علبة على قدم كل تابوت من التوابيت الحجرية السبعة ثم قالت:

أنتم يا أخوال باغوماويل! لكلٍّ دوره! لقد جعلني ابن أختكم أذبح بناتي اللواتي يوجد رمادهن أمام أقدامكم. وقد استدرجتكم لمنطقة نفوذي. اعلموا أن حراس هذا البلد أفاعي سامة، وزعماء الحرب أُسودٌ ضارية والخدم فيلة ماكرة. لن تكون لكم إذن أية فرصة للفرار من سجونكم.

آنذاك استخرجت نجدو ديوال من جرابها ملفوفَ مسحوقٍ. قذفت منه جزءا على كل كومة رماد. خلطت كل ذلك بقضيب قطعته من شجرة عناب (*)، وبصقت سبع مرات على كل كومة، ثم تلفظت بكلام لا يفهمه أحد غيرها. أخذ الرماد يعتمل مثل قشطة تُمخض. أصبح الخليط مثل رؤْبة دم. ارتفعت المادة اللاصقة كما لو بفعل خميرة، واستدارت في شكل يقطينة تجعل الرائي يفكر في بطن امرأة حامل. لكن اليقطينة كانت شفافة فأخذت قطع الدم الكبيرة، أمام أنظار المحنطين، تتحول إلى عظام ولحم وأعصاب. استقام كل ذلك، بشكل معجز، وتعدّل في شكل بناء مشابه لوكر أرضةٍ له ملمح جسد امرأة، لكنه جسد بدون رأس.

(*) قضيب عناب، انظر الهامش ٧١ من الملحق.

عـادت نجدو ديـوال، لحظـات بعد هـذا التحول المذهـل، إلى الظهـور، بعد أن كانت قـد اختفت، حاملة رؤوس البنات السـبع. عرضتها على الفتيان السـبعة المحبوسين: هل تعرفتم على هذه الـرؤوس؟ ابـن أختكـم جعلني أقطعهـا. كونوا علـى يقين بأنني سـأجعل كل واحد منكم يموت سـبع مرات انتقاما لبناتي اللائي ترون أجسادهن في شكل وكر أرضة!

انصرم شهر على انصراف القافلة. لم يتناه أي خبر لهيلي ويويو عن الشبان السبعة. ذهبت وامندي أم باغوماويل لمقابلة ولدهـا فقالـت متألمـة: لقد ذهـب إخواني مع المـرأة التاجرة، وهـا قـد انقضى شـهر من دون أن نعرف أي شـيء عنهم. أنا أخشـى أن يكون قد أصابهم سـوء. بعد ذلك أمسكت بثدييها ووجهتهمـا نحـو باغوماويـل وقالت وهـي تنظر فـي عينيه: أسـتحلفك باسـم السـائل المغـذي الـذي رضعته مـن هذين الثديـين (*)، قـل، يا باغوماويل يا ولدي، شـيئا كي تطمئنني على مصير إخوتي، أو قم بشيء كي تعيدهم إليّ. أنت يا جذع فالو! هم أخوالك؛ هم وأنا خرجنا من البطن نفسـه ورضعنا الحليب نفسـه. مـا يصيبهم من سـوء يصيبنـي، وبالضرورة يصيبك أنت أيضا.

لـم تكـن وامندي وحدهـا قلقة بهيلـي ويويـو. كان البلد كله يتسـاءل بقلـق عن مصير الإخوة السـبعة الذين تركوا أنفسـهم ينقادون لقوة الحب العمياء.

(*) لم يكن لباغوماويل، في حقيقة الأمر، الوقت الكافي كي يشـرب من حليب وامندي. لكن لها الحق، مع ذلك، وحسب ما جرت به التقاليد، بوصفها أما، أن تتلفظ بهذه العبارة الطقوسية. بل حتى الخالة (أخت الأم) يمكنها أن تتلفظ بها.

التجأ باغوماويل، استدرارا للإلهام، إلى ظل شجرة العناب المقدسة بهيلي ويويو؛ تلك الشجرة العجيبة التي تثمر في كل فصل، والتي لم يكن لأسوأ مواسم الجفاف أي أثر عليها٧١. أكل من ثمرها وشرب من الماء الشفاف الجاري على قدمها؛ ثم أخرج من جرابه الجمجمة المتكلمة التي ورثها عن جده با - وامندي(*).

سطر، كما يقتضي الطقس ذلك، على الأرض جدولا ووضع الجمجمة في مركزه. بعد ذلك أخذ ينتظر مُوليا وجهه جهة الشرق، إلى أن حانت لحظة بزوغ القرص الشمسي على الأفق، مثل كرة مستديرة موضوعة على قاعدة غير مرئية. واجه الشمس وقال:

أنا باغوماويل جاييل - فالو. تلقيت تعليمي على يد جدي با - وامندي الذي تلقى تعليمه بدوره على يد سلسلة من الرجال تمتد إلى كومين. أنت يا جمجمة متكلمة! أنا أبحث، مثلما بحث قديما سيلي ساديو عن بقرته الضائعة، عن أخوالي المختفين. كان سيلي ساديو، في زمانه، قد سمع صوت كومين٧٢. وأنا اليوم بحق قولة هور، هور، هور! وبحق الكلمات فيتان! فيتي! فيتي! فيري (**)، أستحلفك بالشمس الشارقة، أنت يا جمجمة مقدسة، أن تخبريني بما عليّ القيام به كي أعثر على أخوالي المحبوسين، بالتأكيد، في مكان ما خفي، من طرف نجدو ديوال، أم الكارثة.

(*) الموروثة عن جده با - وامندي: تدفع الحكاية، من حين لآخر، إلى افتراض أن با - وامندي قد توفي، والحال أن التصريح بذلك لا يتم.

(**) هور... هيري: محاكتان صوتيتان تعزيميتان غير قابلتين للترجمة، تلفظ بهما كومين عند أول فرجة (انظر كومين. ص ٣٨ و٣٩).

ذكـور هـذا العالم وإناثه لهم في أحشـائهم بـذرة الحياة التي تسـمح لنوعهم بأن يتوالد ويبقى. أمـا نجدو ديوال، من جهتها، فإنهـا لا تملـك فـي روحهـا وذهنها سـوى بـذرة المـوت والخراب، وبذرات الجفاف والجوع والمرض.

أنـت أيتها الجمجمة، اجعليني أسـتطيع كشـف نجدو ديوال مهما يكن مخبؤها!

أجابت الجمجمة:

أجـل. أنـا الخادمـة المطيعة التـي وضعها جينو تحت سـلطة بويتورينـغ، جد الفولانيين. سـأظل دائما مطيعة لنسـله ما دام لـم يهمل تربية ثلاثـة أنواع: النوع الغنمي والنوع البقري والنوع العنزي.

والآن، يـا باغوماويل، اذهب إلى غرفة نوم جدك با - وامندي. سـتجد ثمـة نحلة؛ نحلة ضخمة. اسـألها: أيـن الضفدعة التي تنق، فابوغا! فافابوغا! بوغا فوندوندور!؟ (*).

سـتأخذك النحلة٧٣، التي هي ملكة عظيمة، إلى الضفدعة. آنـذاك، قل للضفدعة: مُرِ الملكة النحلة٧٤ أن تحملني إلى حيث أسَرت نجدو ديوال أخوالي. ستبتلعك النحلة بعد أن تتلقى هذا الأمر وستطير في مقدمة سربها لمص رحيق الزهور عبر كل ربوع البلـد. سـتنتهي النباتات بأن تُسـر لها بالمـكان الذي تحبس فيه نجدو ديوال أخوالك. سـتذهب إلى هنـاك، وعندما تدرك المكان، سـتخبرك النحلـة بالطريقـة التـي سـتخلص بهـا أقاريك من أسرهم.

(*) الضفدعة فابوغا: ضفدعة أسطورية نجدها أيضا في نص كومين (ص ٣٨ و٣٩).

نفّـذ باغوماويل تعليمات الجمجمـة، فتوجه إلى غرفة جده. aعثر فيها، بالفعل، على الملكة النحلة التي قادته إلى الضفدعة فابوغـا. أمـرت الضفدعة النحلـة ببلع باغوماويـل ويحمله إلى المكان الـذي تأسـر فيـه نجدو ديـوال أخوالـه. ابتلعت الحشـرة الضخمـة باغوماويـل بسـهولة كأنه رحيـق وردة؛ ثـم حلقت في السماء على رأس سربها.

بعـد صبـاح طويل مـن امتصـاص الرحيـق عبر البلـد، علم النحل العامل، أخيرا، من طرف بعض الزهور، في أي مكان تأسر نجدو السـاحرة أخوال باغوماويل. طار السـرب مَقُودا بالملكة في التجاه المطلوب.

رأت نجدو السـرب يقترب. صاحت: أخيرا، أشـفق عليّ جينو! هـا هو ذا قد أرسـل إليّ سـرب نحـل ليقدم لي العسـل الضروري لإعـداد نبيـذي! كانت قد اعتـادت بالفعل، كل مـرة يعوزها الدم الطري، المصوص من الفتيان المُرْد، أن تسـتعيد نشاطها بشرب نبيـذ مصنـوع مـن العسـل. لذلـك لم تقم بأي شـيء كـي تمنع السرب من أن يعشش في تجويف شجرة باوباب ضخمة، تنتصب غيـر بعيد عن المكان، حتى تسـتزيد من جمـع المؤونة من الزهور الموجودة هناك.

عثر النحل، بعد سبعة أيام من البحث الدقيق، على التوابيت الحجرية السـبعة التـي حُبس فيها أخوال باغوماويل البؤسـاء. حصـل اليقـين لـدى النحـل بـأن الإخـوة السـبعة أحيـاء، لكن معاناتهم شديدة، لأن لذة نجدو ديوال تكمن في أن تراهم يموتون ببطء. أخطرَ النحلُ ملكتهم فأحضرت من العش عددا كبيرا من

وسائل العلاج التي استقتها من مختلف الزهور. أخرجت النحلة باغوماويل من بطنها وأخبرته بالحالة السيئة التي يوجد عليها أخواله، فسألها باغوماويل:

ما الذي عليّ أن أقوم به؟ كيف يجب أن أتصرف كي أخلصهم من أسرهم.

أجابته ملكة النحل:

لقد وضع جينو إحدى عشرة قوة في الطبيعة. وكل واحدة من هذه القوى قادرة على تحطيم القوة التي انبثقت منها ٧٥. وهكذا، فالحديد قادر على تحطيم الحجر الذي انبثق منه. علينا إذن أن نتوجه إلى الجني الوصي على الحديد٧٦ حتى يأمر مساعديه بتكسير توابيت الحجر التي يُحبس أخوالك بداخلها.

- من هو «سيد الحديد»٧٧، سأل باغوماويل. علينا بالفعل أن نقصده كي يتلو التعزيمات المناسبة ويجعل عفاريت الحديد تميل إلى جانبنا.

- اسأل الجمجمة المتكلمة التي ورثتها عن أجدادك. قالت الملكة.

سطر باغوماويل على الأرض الشكل المعتاد ووضع داخله الجمجمة التي لا يفارقها أبدا ثم سألها. ومرة ثانية انبعث الصوت العجيب:

اذكر سبع مرات اسم نونفاييري، جدّ الحدادين، وسيظهر لك. ذكّره بالعَقْد الأصلي المبرم بين الفولانيين والحدادين في وادي بوكول، داخل أول عش أرضة ظهر من الأرض. ففي ذلك اليوم

كان نونفاييـري، الراعي، قد تحول إلى حداد شـغله هو الحديد، فـي حـين كان بويتوريـنـغ، الحـداد المشـتغل علـى الحديـد، قـد أصبـح راعيا٧٨. كان بويتورينـغ الفولاني قد نقل إلى نونفاييري أسـرار الحديد وأسـرار النار التي ينتج الحديـد عنها، بينما كان نونفاييـري قـد علم بويتوريـنـغ سـر البقرة التي تدر حليبا وسـر الحليب الذي ينتج سـمنا وسـر السـمن الذي يعطر الأكل أثناء طبخه.

ويحق سـر السـمن والحليب ٧٩، سـيأمر نونفاييـري الحديدَ بتخليص أخوالك من أسر نجدو ديوال، الكارثة العظمى.

تلفظ باغوماويل بالتعزيم، فظهر نونفاييري واقفا أمام عش أرضة أسود منشأ في ظل شجرة باوباب عظيمة.

أنت يا نونفاييري! قال باغوماويل. أنت الذي كنت راعيا فصرت حـدادا، أسـتحلفك بالتحالف الذي أقمته مـع جدي بويتوريـنـغ الحـداد الذي صار راعيا، مُرِ الحديـد، الناتج عن الحجر ومدمر الحجـر، أن يكسـر التوابيـت الصخرية التي حبسـت فيها نجدو ديـوال بإحكام أخوالي. وإن تـردد الحديد في تنفيذ أمرك، هدده بالنار التي تفوقه قوة والتي تستطيع إذايته.

قـال نونفاييـري: ابتعـد بما مقـداره يـومَ مشـي وانتظر. ثم اختفـى تحـت الأرض. سـمع باغوماويـل صوتـه يأمـر الحديـد الأسود (*) بالذهاب لكسر التوابيت الصخرية التي تحتفظ فيها نجدو ديوال بالسجناء الأشقياء.

(*) حرفيا «معدن أسـود» (نيجي فين). وهو الاسـم الذي يطلق علـى الحديد. وحداد «المعدن الأسود» لا يشتغل أبدا لا على الذهب ولا على الفضة.

الموروث لا يحدثنا عن الطريقة التي قامت بواسطتها عفاريت المعدن الأسود بنزع غشاء الحجر عن أجساد الإخوة السبعة، كما يسلخ الجزار جلد الحيوانات؛ المهم أن التوابيت بعد أن أُفرغت من محتوياتها تدحرجت وذهبت لتسد منفذ المغارة التي تقطنها نجدو ديوال.

حملت العفاريت الوصيَّةُ على الحديد الشبابَ منهكين إلى ابن أختهم. وكان هذا الأخير قد استغلّ وقت الانتظار في إعداد - بواسطة مؤونة النحل - أدوية قادرة على إنعاش أخواله شبه الميتين وإعادتهم إلى قوتهم السابقة. قدمها لهم، وبمجرد أن استعادوا عافيتهم التحقوا، كلهم، بهيلي ويويو، حارقين المراحل.

قضت نجدو ديوال سبعة أيام في التخلص من أكوام الحجر التي سدت مدخل مغارتها. كانت قد خسرت من جديد معركتها ضد باغوماويل! وعندما استشارت ترسانتها السحرية، علمت أن عفاريت الحديد أتت لنجدة عدوها الرهيب.

آنذاك تحولت إلى كونغورو؛ وهو فرس أسود فاحم، قوائمه نظيفة للغاية، بوجهه بياض شبيه بشريط حريري، ثم ذهبت لتتجول في غابة هيلي ويويو. كان كونغورو مطهما بشكل رائع. كل شيء كان يدل على أنه قد قدم إلى الدغل بعد أن أسقط فارسه، فشرع يتجول كيفما اتفق.

لمح سائسون، أتوا للبحث عن الكلأ، الفرسَ فأسروه وأخذوه إلى ملك هيلي وخاطبوه قائلين: سيدي! إن هذا الفرس الجميل الذي لا مثيل له والمطهم بشكل رائع لهو جدير بحضيرتكم.

فهــو لكــم بحكم القانون، لأن كل ثروة - وفق تقاليدنا - لا يُعلم صاحبها، تعود إلى الملك.

كان كونغــورو يبــدو جيد الترويض. لم يكــن لا طويل الأذنين ولا صغيــرا بدينــا. لــم يكن له ردف بغلة ولم يكــن يبدو عليه أي عرج. لم تكن عيناه محاطتين بزرقة ولا شبيهتين بعيني خنزير. لــم يكــن لا جفــولا ولا حرونــا. لــم يكــن مصابا بــأي مرض من الأمــراض التي تنتقص من قيمة الجيــاد. كان يعرف كيف يقوم بــكل الحركات الأنيقة وكيــف يقوم أمام النســاء بحركات راقصة من دون أن ينتظر إطراء من فارسه. تلك كانت مميزات كونغورو.

أعلــن الملــك، وإن بغير رغبــة حقيقية، في العمــوم، أنه قد تم العثور على كونغورو وأن بإمكان مالكه أن يستعيده من الحظيرة الملكيــة. والحقيقة أن الملك لم يكــن يتمنى أبدا أن يُعلم صاحب الفــرس، لكــن نزاهتــه تغلبت علــى أنانيته. بعد أن مــر وقت ولم يتقــدم أحد، أصبح الفرس ملكا للملــك. جعله مطيته المفضلة وأصبح يركبه في موكبه.

عندما أقبل العام الجديد ٨٠، نظم الملك سباقا كبيرا استدعى له كل قرى هيلي ويويو. قام هؤلاء بإرســال أجود متسابقيهم كي يشاركوا في السباق الذي كانت جائزتُه نيلَ المجد٨١.

جعــل الملك ابنــه البكر ســاكاي الدلفين يركــب كونغورو؛ وهو ابنــه المفضل من زوجته المفضلة. كان الأمير الشــاب محبوبا من طــرف الشــعب. كان وســيما ويشوشــا ومهذبا مع الجميــع، وكان عطوفــا على الفقراء محترما للمســنين ومدافعــا بلا هوادة عن الضعــاف والأرامــل والأيتام. كان قلبه كبيــرا ويــده بيضاء، إذْ كان

يوزع بسخاء الثروة التي يسلمها له أبوه؛ وكان هذا الأخير يعطيه من دون حساب!

عندما جُمعت كل الجياد التي ستشارك في المسابقة، تم تنظيم سباقات تمهيدية إقصائية في البداية قصد انتخاب أحسن متسابقي البلاد ليشاركوا في السباق النهائي. عدَت الجياد، في البداية، في مجموعات من خمس عشرة فرسا. لم يتم الاحتفاظ منها إلا بالتي احتلت المراتب الثلاث الأولى. دام هذا الانتخاب الأول خمسة أيام. بعد ذلك عدت الجياد المنتخبة في مجموعات من خمسة جياد. سمحت هذه الجولة الثانية التي دامت يوما بأكمله، بانتقاء المتسابقين السبعة الأجود في البلاد. ومن البديهي القول إن كونغورو الذي يركبه ساكاي، والذي كان يحتل دائما المرتبة الأولى، كان يوجد بين الجياد السبعة المنتقاة.

أقبل يوم السباق الأعظم. صُفَّت الجياد السبعة. أعطيت الانطلاقة. وفي رمشة عين، أخذ كونغورو مقدمة السباق، وسرعان ما أصبح بعيدا عن الجواد الثاني بسبعة أطوال. كان المنتظرُ أن يقطع المتسابقون دورتين. انتهت الدورة الأولى باحتلال ساكاي المقدمة، تحت وابل من التصفيقات، وأمام رضا الملك التام.

قُطعت الدورة الثانية بحماس أكبر، حاول كلُّ فارسٍ أن يجعل مطيته تعدو بأكبر سرعة ممكنة. غير أن كونغورو ظل دائما في المقدمة، محتفظا بالمسافة التي تفصله عن الفارس التالي. اجتاز خط الوصول بقوة ملهبا حماس المتفرجين.

سحب الأمير الزمام بقوة كي يجعل كونغورو يقف، لكن دون جدوى. واصل كونغورو، الذي عض بأسنانه على الزمام، انطلاقته

بسرعة إعصار، كأنه يريد أن يقوم بدورة ثالثة. لا أحد بقي يهتم ببقية الجياد التي توقفت بشكل عادي. كانت كل العيون متوجهة إلى كونغورو الذي يعدو بقوة، حاملا الأمير الشاب محبوب أبويه وشعبه.

عندما أدرك كونغورو انعطافة الحلبة، وبدلا من أن يتبع استدارة الطريق، واصل قدُما وانطلق مثل سهم في الدغل، حيث اختفى. ظلت الحشود المنذهلة حائرة ومجمدة مثل صخر. هكذا انقلب الحفل إلى حزن وقلق، بعد أن كان منتظرا أن يُوَاصَل في سعادة وابتهاج.

استدعى الملك، غاضبا، كل السحرة وضاربي الرمل وقارئي المستقبل والمتنبئين، كي يستشيرهم في أمر مصير الأمير وكي يخبروه بما حصل له. تهالك الملك على فراشه وطفق يندب حظه: أنت يا جينو! لماذا أرسلت لي هذا الفرس المشؤوم؟ كنت أتمنى لو أن كونغورو أخذني أنا بدلا من ولدي، ثَلج صدري وسكينةِ روحي وأملِ شعبي!

باشر السحرة وضاربو الرمل فنهم. خلصوا جميعا إلى أن كونغورو ليس فرسا عاديا بل هو تجسيد لروحٍ شريرة ساعيةٍ إلى إشباع حقد دفين غير مستعدة لأن تتراجع أمام أي شيء كان حتى تصل إلى هدفها.

نادى الملك على باغوماويل وطلب مساعدته، علما منه بقدراته. وعد الشاب بأن يقوم بكل ما في استطاعته، ثم انسحب كي يستشير الجمجمة المتكلمة. بعد أن قام بالطقس المعتاد، طلب منها المشورة. أجابت الجمجمة:

ابـن الملك، يا جاييـل - فالو، اختـطفـته نجـدو ديـوال، هـذا لا شك فيه. وقد حملته إلى منطقة نفوذها وهناك احتفظت به بوصفه رهينة. عما قريب سترسل للملك رسلا تخبره بالشروط التـي عليـه تنفيذهـا إن كان يريـد رؤيـة ابنه. إن رفض سـتقتل الأمير الشاب مهما يكن الأمر.

- مـا الـذي علـيّ أن أقولـه لعاهلي، يـا جمجمـة موروثة عن أجـدادي؟ عليّ أن أعثر على وسـيلة لتخليص وارث العرش، فهو محبوب جدا من شعبه.

واصلت الجمجمة كلامها، بعد لحظة صمت:

اذهب تحت شـجرة العناب العتيقـة (*) واملأ جرابا عن آخره مـن ثمارهـا. بعـد ذلـك وزع الثمـرات على القـرود التـي توجد بالأيكـة، على ضفاف النهر الأسـود (**) الذي يفصل بلاد هيلي ويويو عن بلاد نجدو ديوال.

من دون أن يضيع باغوماويل لحظة واحدة، توجه إلى الشجرة المقدسة وملأ من ثمراتها جرابا كاملا. بعد ذلك التحق بشاطئ النهر الأسـود ومكث ثمة منتظرا، بصبر، عودة القرود التي كانت انتشرت في الدغل باحثة عن طعامها. كمَن باغوماويل، تحديدا، على شاطئِ تجمُّع الماء الذي اعتادت القرود أن تأتي لتشرب منه. سـرعان ما اسـتبد العطش بالقرود فعدت فـي فوضى نحو الماء، لكن لم يجرؤ أي منها على الشرب، لأن زعيمها لم يكن قد وصل

(*) حول شجرة العناب، انظر الهامش الرقم ٧١ من الملحق.

(**) يرمز النهر والجبل وسلسـلة من الكثبان الرملية والشجرة، غالبا، إلى الحدود بين عالمين. فثمة دائما شيء للإشارة إلى الحد.

«النهر الأسود» يعني أيضا النهر الملغز. السواد لا يرمز بالضرورة إلى ما هو سيئ (مثل «مشعوذ أسود» مقارنة مع «المشعوذ الأبيض»)، بل يرمز أيضا إلى ما هو ملغز وغير معروف.

بعـد، والعادة تقتضي أن لا تشـرب قبله. لم يتحـرك باغوماويل ولم يخرج ثمراته، وقد قـرر أن يسـلمها إلى ملـك المتسـلقين. لـم يتأخر هـذا الأخير في الالتحـاق ببقية القرود، فاسـتقبلته هذه بصيحات عالية وبحركات محتملة.

تقـدم باغوماويـل نحـو رجـل الخشـب، القردوحـي العجوز، وسلمه جراب ثمرات العناب.

أنت يا عجوزا جليلا، قال له. لقد تحولت نجدو ديوال الساحرة إلـى كونغورو كي تختطف أميرنا الذي تحتفظ به، بالتأكيد، في أحد أماكنها السـرية. لقد أتيتك بهـذه الثمرات كي توزعها على رعاياك، وأريدك أن تبعثها للبحث عن أميرنا.

أجاب ملك القرود:

ليس ثمة البتة عملٌ لا يسـتطيع شـعبي القيام به، إن قدمت لهم فاكهة شجرة العناب العتيقة العجيبة. الشمس الآن في كبد السـماء وقبل أن تختفي غرقا في ثقب الليل الأسود، سنكون قد اكتشفنا ما تبحث عنه.

ثم شـرعت القرود في العمل. وكمـا تنبأ بذلك الملك العجوز، اسـتطاعت القـرود، فـي مـدة وجيـزة، أن تكتشـف المكان الـذي تحبس فيه نجدو ديوال الأمير الشاب. كان هو المكان نفسه – في حضن بلدتها الحجرية – الذي نصبت فيه، في شـكل مسـتدير، التوابيت الحجرية لأخوال باغوماويل. وقد سامت الأمير الشاب ما سـامته إياهم، إذْ حبسـته في تابوت صخـري، فلم يعد يظهر منـه سـوى وجهه حتى تسـتطيع إطعامه وثقبـا للتغوط. لكنها حرصت، هذه المرة، على وضع التابوت الصخري في حـفرة يصـل

عمقها إحدى وعشرين ذراعا.

أخبرت القرود، عندما عادت، باغوماويل بما اكتشفته. أجهد باغومايل نفسه في الذهاب إلى الحفرة التي يوجد بها الأمير الشاب، لكنه عجز عن الوصول إليها (*). عاد، محزون الروح، إلى هيلي وأخبر الملك بما عرفه. طلب منه هذا الأخير النصيحة فأجاب باغوماويل: لننتظر، ستنتهي نجدو ديوال بأن تظهر لتخبرنا بطلباتها. آنذاك سنرى ما سنفعله.

عندما كان الأمير يتعذب في سجنه الحجري، كان سكان هيلي ويويو غارقين في حزن عميق، منتظرين سماع نعي أميرهم. كان القلق يعصر قلوبهم، فأخذوا ينامون مع مقدم الظلام مثل الدجاج (**).

كان كل واحد منهم يغلق على نفسه ويأخذ في ذرف الدموع الغزيرة على مصير الأمير الشاب الطيب والجذاب. ما عادت الماعز والخرفان تثغو، وكف الدجاج عن الصراخ، ولم يعد السكان

(*) قد يبدو مثيرا للاستغراب أن تستطيع القرود أن تكتشف، من دون صعوبة، المكان الذي يحجز فيه الأمير الشاب، في حين يعجز باغوماويل، المبشَّر به، عن ذلك. أولا، لا يتماشى مع منطق الحكاية أن يستطيع باغوماويل اكتشاف وتخليص الأمير الشاب في هذه المرحلة، لأن الجمجمة قد سبق أن أعلنت أن نجدو ديوال سترسل مبعوثين ليعلنوا عن رغباتها. والحال، أن هذا التنبؤ لم يتحقق بعد. وثانيا، فإن أحد التعاليم التي تُفهم من هذا الفصل هو أن الفولانيين لا يعطون أبدا سلطة مطلقة لأي كان، باستثناء جينو. ولهذا يقال بأن لا أحد - مهما تكن درجته - يستطيع أن يرى قمة رأسه؛ كي تصبح الأمور واضحة، تكون ثمة دائما لحظةٌ يُحتاجُ خلالها إلى طرف ثالث. وحتى مُبشَّرٌ به مثل باغوماويل يمكنه أن يعرب عن هفوات؛ وإلا فإنه سيكون كايدارا نفسَه (أحد تمظهرات جينو). في ملك باغوماويل سلطات متعددة، لكن ليس في ملكه السلطة المطلقة التي ليست في ملك أحد آخر غير جينو؛ وإلا دُمِّرَت الوحدانية الربانية، لأنه سيكون ثمة مالكان للسلطة.

وهناك إفادة أخرى، هي أن المريدين، برغم تعليم معلميهم لهم، لا ينجحون دائما منذ أول محاولة؛ بعضهم ينجح فورا في امتحان، ويكون على آخرين أن يكرروا المحاولة مرات متعددة.

(**) علامة حداد وحزن: ما عادت ثمة تسالي أو مجالسات أو أغانٍ مساء من أجل السهر.

يسمعون ضربات المِدَق تدوي عبر المدينة. كفت الأغاني الفرحانة والضحكات العالية عن بث البهجة على حواف الآبار. الزمن نفسه أصبح ثقيلا، وأضحى الهواء ساخنا إلى درجة أن لا أحد عاد قادرا على التنفس. كان الفرح قد غادر القلوب والوجوه. أصبح شغل الناس الوحيد هو الذهاب قصد الجلوس إلى ظل الجدران التي تحيط بالقرية لسبر الأفق على أمل رؤية قدوم الأمير المحبوب الذي اختطفته الشريرة العظمى. القطيع نفسه كف عن الذهاب إلى المراعي.

تواصل الانتظار لأسبوع كامل. أصبح الليل مثل النهار والنهار مثل الليل.

وخلال اليوم السابع من ذلك الأسبوع الحزين، وعندما كانت الشمس تميل نحو المغيب، شوهد في البعيد رجلٌ يمتطي ثورا، محاطا بسبعة فرسان يمتطون جيادا أصيلة مطهمة بشكل يدل على الثراء. عندما اقترب الرجل أوقف موكبه ودق مضاربه خارج أسوار المدينة. بعد ذلك بعث رسولا إلى الملك يخبره بأنه مبعوث نجدو ديوال التي تأسر ساكاي وارث عمامة هيلي ويويو.

اشترطت نجدو ديوال كي تطلق سراح الأمير، فديةَ عشرين شابا تتراوح أعمارهم بين أربعة عشر وواحدٍ وعشرين عاما، إضافة إلى باغوماويل. أما إن تأخر الملك أو تردد في تلبية طلبها، فإنها لن تكتفي فقط بقتل الأمير، بل ستصيب البلد بجوائح قاتلة وبأمراض لا علاج منها، ولن يستطيع أحد تحاشيها.

أمهلت الملكَ سبعةَ أيام مضروبة في ثلاثة كي ينفذ ما أُمر به، وبعد ذلك سيصاب البلد بكل الأمراض: آلام صدر حادة

وانتفاخ الأعضاء وأوجاع البطن ومغص لا تحتمل آلامه والتينيا والزهري، دون الحديث عن آلام الرأس ودود الأمعاء...!

وقد نصت شروط نجدو ديوال على أن يختار الملك بين أن يسلم الفدية المطلوبة، فيعاد إليه ابنه، أو أن يحكم على الشعب بأن يصاب بهذه الكوارث ويموت ابنه.

دعا الملك مجلسه الاستشاري للاجتماع وعرض على أعضائه الوضعية. قبل المستشارون، متألمين، شروط الشريرة. أما الملك، من جهته، فقد رفضها. آنئذ أخبر المجلسُ الشعبَ وطلب من الناس، بواسطة منادين، رأيهم في المسألة.،

اجتمع الأعيان وأرباب الأسر، وفي اليوم التالي توجهوا، بقيادة زعمائهم، إلى القصر فأخبروا الملك بأن الشعب قد قبل بالإجماع، الرضوخ لما طالبت به نجدو ديوال.

كان باغوماويل أول من قبل التضحية بنفسه، لكن الملك ظل على رأيه ورفض اقتراح الشعب وصرح قائلا:

حياة ولدي، على الرغم من أنه وارث العرش، لا تساوي حياة واحد وعشرين شابا. وفضلا عن ذلك، فإنه، بالنظر إلى القدرات والمعارف التي وهبها جينو لباغوماويل، فإن حياته يمكنها أن تكون أفيد للبلد من جيش من المحاربين ومن المعالجين ومن المتنبئين. لا يمكنني إذن أن أضحي بالمصلحة العامة من أجل مشاعري الأبوية؛ فثمة لحظات يكون على القائد خلالها أن يعرف كيف يُصمِت قلبه كي لا ينصت إلا إلى ما يوشوش به العقل في أذنه.

بالفعل، يُعدّ إنقاذ أمير بتقديم أرواح آدمية متعددة، تقليدا

ورثناه عن أجدادنا، ولانزال نعمل به حتى اليوم، لكن يعد من واجب الملك أيضا أن ينقذ قيمة حقيقية يستفيد منها الجميع. هذا، كما أنني لن أسلم باغوماويل لهذه الساحرة، مقابل أي شيء في الدنيا، فإنني لن أسلمها أيضا العشرين فتى الذين تكرم آباؤهم بإهدائهم إليّ كي أنقذ ولدي!

إن طلبت مني نجدو كل ثروة المملكة سلمتها إليها كي أنقذ ولدي. لكن، إن رفضتها، فلتفعل ما يحلو لها بالأمير، فلا مجال لأن تمهلني سبعة أيام أو أربعة عشر أو واحدا وعشرين أو حتى ثمانية وعشرين يوما٨٢ !

بعد أن أكد الملك إرادته هذه، نادى على رسول نجدو ديوال واخبره بالجواب.

كان رئيس البعثة قد أُخطر من طرف سيدته، قبل انصرافه، بأن ملك هيلي ويويو، بالتأكيد، لن يستسلم وأنه لن يسلم باغوماويل مقابل أي شيء في الدنيا. وكانت قد سلمته أكياسا صغيرة تحوي مسحوقا مسموما يكون عليه، في حال رفض الملك، أن ينثره سرا في آبار المدينة. كانت المهمة سهلة، لأن كل الآبار كانت تقع خارج أسوار المدينة، وإذن فهي بلا حماية وبلا حراسة. كان الملك قد قرر أن تكون الآبار خارج أسوار المدينة حتى تستطيع القوافل التي تصل ليلا أن تتزود من الماء حتى بعد إغلاق أبواب البلدة.

سمم رسل نجدو كل الآبار ثم عادوا إلى بلدة سيدتهم.

صباح اليوم التالي، ذهبت النسوة، من دون احتراس، مثل العادة، لملء جرارهن وقرعاتهن ويقطيناتهن وجفناتهن. وعندما

شـرب سـكان هيلي مـن الماء واسـتعملوه للاسـتحمام أو لغسـل الملابـس، ارتفعـت صدورهـم، في البدايـة، بفـواق لا يتوقف. ثم شـرعوا يلهثـون مثـل كلاب مريضـة. كان كل واحد منهم يسـعل بقـوة حتى ليبدو أنه سـيغثو بقلبـه أو برئتيه. ما عاد أحد منهم يسـتطيع أن ينام. وفي النهاية أصيب الجميع بإسهال غير قابل للتفسـير. حتى الأشـجار جفت ومـا عادت توفر ظـلالا. وداخل المساكن، كان الهواء قد أصبح أسخن من محل للحدادة!

لم تكتف نجدو ديوال بتسميم مياه الآبار، بل دفنت أيضا، هنا وهناك، رقيات شـريرة أصبح فعلها يعكـر الأجواء ويحيل الناس شديدي الغضب.

وأمام الجائحة التي اجتاحت البلد والتي لم تسـتثن لا بشرا ولا حيوانا أو نباتا، جمع باغوماويل، من دون علم الملك، مجلس الأعيان. طلب عشـرين شـابا من المتطوعين المسـتعدين لمرافقته عند الشـريرة ليسـلموا انفسـهم بوصفهم فدية للأمير ساكاي. لم ينقض وقت طويل حتى كان قد جمع مجموعته الصغيرة.

وقبـل أن ينصـرف باغوماويـل، قدم توجيهـات لخاله حمادي قائلا: إن لم تصلك أخبار عني، اطلب من أمي أن تسلمك جرابي. سـتجد به الجمجمة المتكلمة الموروثة عن أجدادنا. استشرها في أمري واطلب منها أن تقول لك ما عليك القيام به لتعثر عليّ.

وكي لا تثير البعثة شكوك الملك، غادرت البلدة سرا عند مقدم الظلام.

التقى الشبان، على بعد بضعة فراسخ من المدينة، خادما من خـدام نجـدو ديوال. كلفه باغوماويل بأن يذهب لإخطار سيدته

بأن الفدية ستقدم لها من طرف باغوماويل نفسه، غدا عند وقت حلب الحيوانات المدرة للحليب، مقابل حرية الأمير.

عندما وصل الخبرُ الشريرةَ العظمى، لم تصدق أذنيها. أعربت عن فرح عظيم. لم تكن تنتظر أن تنكسر مقاومة الملك بهذه السرعة، كما لم تكن تنتظر، بالخصوص، أن يقبل التضحية بباغوماويل، فتساءلت: ألا يتعلق الأمر، بفخ ما؟ أيعقل أن أصل إلى هدفي بهذه السهولة، في الوقت الذي كنت قد أخذت أفقد، كل يوم، الأمل في أن أستطيع يوما الانتصار على هذا الجذَع وأسْرَه؟ لنكن حذرين، لكن لنعرف، أيضا، كيف نستغل الفرصة، لأن الأمر يبدو كأننا نتجه، الآن، نحو نهاية لهذا الصراع القائم بيني وبين جاييل - فالو.

وصل الشبان الواحد والعشرون في الصباح الباكر. أدخلتهم نجدو ديوال إلى قريتها المتحجّرة وقد قررت أن تسترجع صحتها بشرب دم الفتيان.

خاطبت نفسها قائلة: أما باغوماويل، فسأخصه بمعاملة تكون من القسوة ومن الدقة بحيث حتى كبار خبراء التدقيق سيندهشون منها. وسيحوِّل الموسيقيون الحدث إلى شعار موسيقي يشيد ويمجّد القسوة والشر!

أمسكت نجدو ديوال بباغوماويل وذهبت لتعلقه من ساقيه فوق حفرة يصل عمقها تسعا وأربعين ذراعا (*). كانت الحفرة مترعة بجمرات تلقي بألسنة لهب أحمَت الأجواء، وقالت ضاحكة:

(*) نعثر دائما على مضاعف للعدد سبعة «٧»، عدد نجدو ديوال.

ستبقى معلقا بهذه الطريقة لمدة عشرين يوما؛ يعني الوقت الذي أحتاجه كي أمتصَّ دماء مرافقيك وأشبَعَ منها. وبعد كل وجبة سآتي لأتجشأ بصوتي بالقرب منك حتى يلج نَفَسُ رئتي الحارقُ أنفَكَ، فيصعد إلى دماغك كي يحطمه وينزل إلى قلبك كي يبيضّ دمك الأحمر ويصفرّ دمك الأسود. ستموت ببطء، وأثناء ذلك، سأضحك أنا بصوت عال!

أما مدينة هيلي، وكما كان منتظرا، فبعد أن اكتشفت انصراف الشّبان الواحد والعشرين، أصبحت تعيش في انفعال شديد. ساور الملك شعور قوي بالذنب فاستدعى أخوال باغوماويل السبعة وأعرب لهم عن أسفه، كما عبر لهم عن إعجابه الكبير بشجاعة الفتيان الذين ضحوا بأنفسهم، طوعا، لإنقاذ ابنه.

لم يكن يشك، في الواقع، في أن ابنه سيعاد إليه. ففي تلك الأزمنة، كانت الكلمة عندما تُعطى، تُصبح مقدسة عند الرجال الشرفاء كما عند غير الشرفاء. كان ثمن الكلمة يفوق ثمن الذهب والفضة، ويفوق حتى ثمن حياة من يعطيها. ونجدو ديوال نفسها، على الرغم من قسوتها ورغبتها الدائمة في أن تؤذي، احترمت كلمتها وسلمت الأمير وأرسلت معه رفقة إلى أن أدرك قصر أبيه.

تم الاحتفال بعودة الأمير بوصفه حدثا جليلا، من طرف جميع سكان هيلي ويويو، باستثناء الملك: كان يعيش حِدادا على الواحد والعشرين شابا الذين يعتبرهم شهداء متطوعين، ماتوا من أجل إنقاذ أميرهم.

لم يكن أحد يعرف ما الذي حل بهؤلاء الشبان. وعندما عجز

حمادي عن الوصول إلى أي خبر يخص باغوماويل، قرر أن ينفذ توجيهاته. طلب من أخته أن تأتيه بجراب ابنها. فتحه وأخرج منه الجمجمة المتكلمة واستشارها فيما عليه القيام به. وهذا ما أجابت به:

اذهب تحت شجرة العُنَّاب العتيقة وابحث داخل الأيكات الثلاث التي تحيط بها. ستعثر على ملكة العناكب٨٣ بين أغصان شجرة كايلسيدرا هي بنفس قِدَم شجرة العناب. اطلب منها باسم فن الحياكة الذي علّمها إياه جينو، أن تعمل على اكتشاف المكان الذي تحبس فيه نجدو ديوال باغوماويل ورفقاءه.

نفّذ حمادي على الفور. عثر على الملكة العنكبوت وعرض عليها الأمر. تذكرت الملكة كل الأعمال الخيرة التي قدمها با - وامندي للحيوانات، فأمرت كل النوع العنكبوتي، حيثما وجد، أن يصطاد الذباب من كل الأنواع وكل الأحجام وأن تجعله يسعى لأن تكتشف، قبل مغيب الشمس، المكان الذي التجأت إليه نجدو الساحرة العظمى، كي ترتكب جرمها.

أُعطيَت الأوامر فانطلقت العناكب مسرعة. انتشر الذباب، الذي اصطِيد ثم أطلق، في البلد. بحث في كل مكان: في المدن والقرى والضيعات وفي كل جزء من أجزاء الأرياف وأعالي الأدغال. انتهى الذباب بأن اكتشف المكان الذي التجأت إليه نجدو ديوال رفقة أسراها، من دون أن يستطيع، مع ذلك، أن يحدد بدقة المكان الذي يوجد فيه الأسرى.

أُخبر حمادي. استشار من جديد الجمجمة حتى يعرف كيف يعثر بدقة على المكان الذي حُبس فيه باغوماويل ورفقاؤه.

نصحتـه الجمجمـة أن يتضرّع إلى كومباسـارا، الإلـه - التميمة الـذي خلصه با - وامندي وسـيري من اليقطينـة المعدنية التي كانـت نجـدو ديـوال قـد حبسـته فيهـا. علمتـه طقـس التعزيم وأخبرته بما عليه أن يطلبه.

عزم حمادي فظهر كومباسارا أمامه.

فقال حمادي: أنت يا روحا قوية! خذ بيض العناكب الذي سبق لوالـدي با - وامندي أن سـلمه إليك عند افتراقكما، واسـتعمِله لتذهب وتفك أسر باغوماويل ورفقائه (*).

نـادى كومباسـارا على غومبـاو، الأسـد/الأسـود٨٤. ركبه وهو يقول:

بحق القدرات المنقولة بواسـطة ديكوري دياوو إلى ديافالدي، الـذي نقلها بـدوره إلى كوغولدي٨٥ الذي وهبـه الله عينا ثالثة على الجبهة كي يرى ما خَفِيَ ويَدَيْن كي يُخْفِيَ ما بَدَا (**)، بحق هذه السلسـلة أطلب منك، أنت يـا غومباو، أن تقودني إلى حيث توجد نجدو ديوال.

وعلى الفور انطلق غومباو، الذي لم يكن، بالفعل، أسـدا عاديا. كان يعدو على الأرض بسـرعة تفوق سـرعة إعصار. كما كان يسـبح في الماء أحسن من سمكة جِري. أما في الأجواء فكان يحلق بسرعة تفـوق سـرعة العقـاب المطارِد لفريسـته. بعـد رحلة دامـت يومين، وضع كومباسـارا على بعد خطوات من الحفرة الجهنمية التي علق

(*) لنلاحظ هنا أن حمادي، خلال هذه المرحلة المأسـاوية من الحكاية، يدرك وضعية جـديدة، إذ يصبح أكثر إحساسا بالمسؤولية؛ فقد أصبح المُعَزِّم على الجمجمة المقدسة ومخاطِبَها.

(**) يمكننا، بحركة من يدينا، أن نسـتر وأن نخفي شـيئا لا نريد أن يراه أحد. «إخفاء ما بدا» يعني إخفاء سـر التلقين. وعين الجبهة، عين المعرفة، مخصصة لكشـف ما خفي. واليدان، رمز سلطة الإنسان بوصفهما وسيلة الفعل، يفترض فيهما أن يقنّعا (يخفيا) ما يجب الا يبدو.

باغوماويل فوقها من ساقيه. أخرج كومباسارا حبلا كان قد فتله من زغب ذيلِ وعرفِ بغلة درداء، والذي يعرف وحده أن لا شيء يستطيع قطعه. وضعه بطريقة إذا ما أتت الساحرة العظمى للاستلذاذ بالتنغيص على باغوماويل، ستُمسَك داخل أنشوطتها المتحركة.

سرعان ما حصل ذلك. اقتربت نجدو ديوال من الحفرة، جاهلة بالوجود غير المرئي لكومبسارا، الذي كان يستحيل عليها المعرفة بوجوده ما دام لا يقع تحت سيطرتها. اندهشت عندما لاحظت أن ألسنة اللهب لم تحرق باغوماويل. علينا أن نعلم أن نجدو ديوال، عندما ملأت الحفرة بالجمرات المتقدة، كانت قد دهنت جسدها، كي تحمي نفسها من النار، بمادة أعدتها هي نفسها. والحال أنها في لحظة انسحابها، كانت الآنية التي تضم المادة قد سقطت في الحفرة فسقت جسد باغوماويل، مما أفقد النار قدرة إصابته بسوء، وبذلك نجا من الإحراق.

لم تدر نجدو ديوال لِمَ لا يصيح باغوماويل، ولا يتلوى من الألم، وبالخصوص لم لا يحترق. وكي تعرف الأمر عن كثب، اقتربت أكثر وأتت لتضع نفسها تماما، ودون أن تعلم، وسط الحبل الذي لا تراه. وفي الحال جمع كومباسارا والأسد غومباو قواهما الخارقة وسحبا الأنشوطة. وجدت نجدو ديوال نفسها مربوطة من وسط جسدها، ذراعاها مكبلان. حاولت سدى أن تخلص نفسها. كانت قد وقعت كما يقع أي حيوان مفترس في فخ غير منتظر.

فهمت أنها قد خسرت، مرة جديدة، المعركة ضد باغوماويل. لكن ما أقلقها هو الظهور المفاجئ لكومباسارا ولغومباو؛ ذلك

أنها كانت قد أُخطِرت بأن اليوم الذي يتحالف فيه كومباسارا، بعد أن يُحرر، مع غومباو الأسد الأسود ذي العرف الأسمر، سيكون هو يوم إعلان هزيمتها النهائية (*).

اقترحت، مقابل حريتها، حياة الفتيان العشرين وحياة باغوماويل.

أنت يا نجدو ديوال! قال كومباسارا بسخرية، لقد وقعت، وقعت بشكل كامل! كم مرة، كنت أنا نفسي أشتغل بهمة لمصلحتك، لكنني كنت غير واعٍ بأعمالك الشريرة. كم مرة نفذت أوامرك على الفور، مُمَكِّنا لأعمالك السحرية الشريرة أن تخلف أرامل ويتامى وأن تصيب بسوءٍ بلدا بأكمله. لم يسبق أبدا ليديك أن لامستا إلا الفظاظة والدمار والموت! وأنتِ الآن ستخضعين لمحاكمة باغوماويل. هو وحده سيبرئك أو يدخلك قفص العذاب(**). لا داعي إذن لأن تقترحي علينا تحريره وتحرير رفقائه. هم في هذه اللحظة قد فُكَّ أسرهم. افتحي عينيك والتفتي لتري المشهد الذي يدور خلفك.

التفتت نجدو ديوال، مربوطة مثل حزمة حطب، فرأت، مصطفين أمامها، الشبانَ العشرين وباغوماويل، في صحة ممتازة. لم تضع وقتها في المطالبة بتفسير لما ترى، إذ فهمت من تلقاء نفسها أن الشبان يستعدون للعودة إلى قريتهم.

(*) تحالف كومباسارا وغومباو، نذير شؤم بالنسبة إلى نجدو ديوال. فكومباسارا، الذي كان من قبل خديمها، لا يضع فقط قواه الخارقة في خدمة الخير، بل يستخدم، هو أيضا، قوة غومباو الذي يقف، تقليديا، في وجه النهاية السعيدة للتلقين (انظر كومين). يقدم هذا الفصل، أيضا، فائدةَ أن القوة، في ذاتها، ليست لا جيدة ولا سيئة. كل شيء متعلق بطريقة استعمالها.

(**) الزنزانة الانفرادية.

سحبها غومباو، مربوطة، إلى أن وصلت قرب باغوماويل. أخذ هذا الأخير الكلمة فقال:

أنت يا كومباسارا! وأنت يا غومباو! باسم جدنا بويتورينغ وباسم كومين وزوجته فوروفوروندو (*)، قديسة الحليب وملكة السمن، نشكركما على تدخلكما.

أما بالنسبة إلى نجدو ديوال، فلا تقتلاها ولا تعاملاها معاملة سيئة (**). اذهبا بالأحرى وسلماها للشعاع البرتقالي٨٦ الذي تسيله الشمس على شجرة الكايلسيدرا، على ضفة النهر الأحمر الذي يسقي البلد، وأبقياها مقيدة إلى أن نصل، رفقائي وأنا، إلى هيلي.

عندئذ، أخذ باغوماويل ورفقاؤه طريق هيلي ويويو، بينما اقتيدت نجدو ديوال إلى ظل الشجرة حيث اتخذها كومباسارا وغومباي أسيرة.

ما عاد للساحرة العظمى، بالطبع، نفس الإمكانيات القديمة، لكن بقي لها دَوْرَانِ تلعبهما. فرغم التسامح الذي أبداه باغوماويل تجاهها، كانت تتساءل عما إذا كانت قادرة على استعمال دوريها الأخيرين ضده، لأنها لم تكن متأكدة من أن كومباسارا وغومباو سيطلقان سراحها عندما يحين الوقت. وبالفعل، فقد سمعت كومباسارا يقول لباغوماويل: احذر من أن تترك هذه المشعوذة على قيد الحياة! فرغبتها في أن تؤذيك تملأ قلبها وجسدها،

(*) زوجة كومين، قديسة الحليب وملكة السمن، هي معلمة كبرى في مجال التلقين النسوي الفولاني (انظر كومين).

(**) عبارة تدل على نبل طباع باغوماويل وميزة التسامح لديه، وهما خصلتا كل «الخيرين» في هذه الحكاية.

إلـى درجـة أنهـا تنضح بذلك من كل مسـام جسـدها. فما دامت حية، لن تهدأ أبدا!

كانـت نجـدو ديـوال، قلقة الـروح، تـكاد تختنق خوفـا من أن تمـوت قبـل أن تسـتطيع قتـل باغوماويـل، عيناهـا جاحظتـان وأذناهـا نافرتـان مثل دابـة يطاردها نُبَـاح. كانت تنتظـر، حائرة زائغة النظر... دام عذابها سـبعة أيام، وهو الزمن الذي استغرقه باغوماويل مع رفقائه للوصول إلى بيوتهم.

عنـد نهايـة اليـوم السـابع، ومـن دون أن تدري كيـف، ارتخى الحبـل الذي كان يقيدها كما لو بفعل السـحر. انتفضت وخفت للالتحـاق بمخبئها غيـر المرئي حيث ظلت مختبئة سـبعة أيام، كي تسترجع قواها.

عندما استعادت نجدو ديوال قوتها، غاصت عميقا في الأرض. وثمة تقدمت، ممزقة أحشـاء الأرض، إلى أن وجدت نفسها تحت قدم شـجرة العناب العتيقة لهيلي. آنذاك سحبت الشجرة تحت الأرض جاعلـة إياها تختفي عن الأنظار، ثم تحولت هي نفسـها إلى شجرة عناب وأخذت مكانها.

وككل أسـبوع، خـرج كل أطفـال هيلـي من المدينـة وذهبوا كي يتجمعـوا تحت الشـجرة المقدسـة قصـد قطف ثمارهـا. أصيب أهل هيلي بالدهشـة وهـم يرون، فجأة، شـجرة العناب تحلق في الفضـاء حاملة معها قطعة مسـتديرة مـن الأرض يصل قطرها إحـدى وعشـرين ذراعا! وهكذا تكون نجدو ديـوال قد حملت، في رمشة عين، كل أطفال هيلي، ولم تترك لآبائهم سوى عيونهم كي يبكوا أبناءهم!

ويمجرد أن ابتعدت شجرة العناب المزورة في الفضاء، خرجت شجرة العناب الحقيقية من الأرض وأخذت مكانها.

غرقت المدينة في حزن جعل الأهالي ينسون بسرعة الفرحَ الذي نتج عن العودة غير المنتظرة للشباب الواحد والعشرين.

سارع الأهالي كلهم نحو قصر الملك، شاكين:

أيها الملك! متى ستنجح في تخليص العالم من نجدو ديوال، أم الكارثة، التي ما انفكت تنيمنا بتمائمها وتجعلنا نشرب كل مرة الكأس المرة لشرابِ شرها!

نحو من نديرعيوننا الحمراء من الألم، والتي لم تعد جفوننا الذابلة تستطيع حتى أن تحميها؟ طار نومنا مثلما يطير طير خطاف مهاجر. لقد غرست نجدو ديوال أشواكها في قلوبنا. قل أيها الملك شيئا! قم بشيء.

خرج الملك من قصره، أشد حزنا من أي وقت مضى، محياه منقبض غارق في الدموع. كان الملك، الذي يتمتع ببنية قوية، قد تقوس مثل منجل، وأصبح لونه، الذي كان قديما يلمع مثل خشب الأبنوس، شبيها بلون الرماد. في ليلة واحدة أصبح نحيلا مثل بغلة مسنة من المناطق الصحراوية في فصل جاف، فشاب شعر رأسه ولحيته. اسود كل ما كان فيه ناصع البياض (بياض العينين والأسنان والأظافر). كانت حاله تلك جراء الهموم التي تقرضه بسبب شقاء شعبه.

كان لايزال لديه أمل واحد؛ وهو في الحقيقة أمل ليس دون قيمة: باغوماويل. نادى عليه على الفور وخاطبه قائلا:

إن من يكون عليه أن يقطع عشْرَ مراحل ولم يقطع منها

سوى تسع ونصف يكون قد أضاع مجهوده؛ إذ سيكون كمن لم يقم بشيء. والأمر كذلك بالنسبة إليك. كل الانتصارات التي حققتها على نجدو ديوال خلال تطوعاتك المميتة السابقة ستكون من دون قيمة ما دامت الشريرة العظمى تحيا وتواصل زرع الخراب على الأرض. الشعب لا يدري أنني لا أستطيع أن أقوم بشيء اعتمادا على نفسي. وأنا ألتجئ إليك، أنت يا باغوماويل، لأن جينو القادر على كل شيء قد وهبك قوة خارقة؛ تلك القوة التي لم تتردد أبدا في جعلها في خدمة الأشقياء وضحايا القدر.

لقد اختطفت نجدو ديوال بطريقة سحرية أطفالنا؛ فهي وحدها، في الحقيقة، القادرة على التصرف بهذه الشاكلة. الشعب يطلب مني أن أقول وأن أفعل شيئا. وقد حان دوري كي أطلب من جينو (*)، عبرك، أن يقوم بشيء من أجل إطلاق سراح أطفال شعبي.

حرك باغوماويل رأسه من أسفل إلى أعلى ثلاث مرات؛ وهي حركة تعني موافقة غير مشروطة. آنذاك انصرف الملك وعاد إلى بيته.

استشار باغوماويل الجمجمة المتكلمة، فدلته على الطريقة التي يتصرف بها كي يتحول إلى نسيم عليل، وأضافت:

عندما تصبح هواء عليلا رائقا، انتقل وأنت تهب نحو الشرق إلى أن تدرك بلد نجدو ديوال. عندما ستصل إلى أبواب بلدتها،

(*) «عبرك...»: دائما احترام القاعدة التقليدية التي تنص على ضرورة المرور عبر وسيط لتقديم طلب.

ستجد قطيعا يرعى. ستعثر ضمنه على عجلة لونها أبيض تماما؛ إنها البيضاء، العجلة المفضلة لنجدو ديوال. اندسَّ في رحمها. ستلدك في هيئة عجل شديد الجمال ستعشقه نجدو. عندما يحصل ذلك، سيلهمك جينو ما عليك أن تقوم به كي تنقذ الأطفال من بين مخالب الشريرة الكبرى.

عندما تحول باغوماويل إلى نسيم عليل، هب في اتجاه الشرق إلى أن وصل بلدة الشريرة. وجد، بالفعل، على أبواب البلدة قطيع نجدو ديوال في المرعى. اندس في رحم البيضاء. وبعد بضعة أشهر من الحمل، ولدت البيضاء عجلا لم يسبق لأحد أن رأى مثله من قبل. كان جلده أملس مثل الحرير؛ وزغب جسمه أرق من زغب شجرة القابوق؛ وعيناه الكبيرتان كانتا مثل جواهر بيضاء مصطادة في الأعماق الكبيرة للمحيطات الشرقية. كانت البيضاء تدر كثيرا من الحليب. وبالموازاة مع إرضاعها لصغيرها، أضحى جلدها هي بمثل رقة جلد عجلها.

تحقق ما تنبأت به الجمجمة. أبدت نجدو ديوال، تجاه هذا العجل الاستثنائي، حبا كان من القوة بحيث لم تعد تستطيع لحظة واحدة أن لا تتملاه وتلامسه. منعت أطفال هيلي، الذين كانت تستعملهم في العناية بقطيعها وحراسته، من أن يأخذوا عجلها إلى المرعى. كان عليه أن يبقى بالمنزل، تحت حراستهم.

كبر العجل فأصبح جذعا متقلب الأطوار. فرغم حراسة الأطفال، كان ينجح دائما في الفرار والالتحاق بالقطيع في المرعى. كان يفر، كل يوم، مرتين أو ثلاثا. كانت نجدو ديوال ترسل الأطفال في أعقابه لإعادته وكانوا يأتون به دائما، لكنها

كانـت تعنفهم على عجزهم، علـى الرغم من عددهم الكبير، عن الاحتفاظ به.

ذات يوم، وكالعادة، فر الجذع إلى الدغل. أرسـلت نجدو ديوال كل الأطفـال لملاحقتـه. وبـدلا مـن أن يلتحق الجـذع، كما كانت عادتـه بالقطيـع، توجـه نحـو أعالي الدغـل. لاحقـه الأطفال. وعندمـا أصبحـوا بعيديـن جـدا عـن البلـدة الخـراب، وأمـام اندهاشـهم، اسـتعاد باغوماويل مظهره الآدمي. سـألهم إن كانوا موجودين كلهم. وبعد أن تأكدوا قالوا إنهم موجودون جميعا.

سـأل باغوماويل أي اتجاه يأخذون وأي طريق يسلكون للفرار مـن نجدو ديـوال عندما سـتنطلق فـي ملاحقتهم. علـى الفور مرقت مجموعة نمل وشـرعت تمشـي أمامه. لم يجد أحسن من أن يمشـي فـي أعقاب هـذه الحشـرات الصغيرة. أعادتـه الطريق المسـطرة بتلك الشـاكلة، مـن دون عوائق، هـو ومرافقوه الصغار، إلى أبواب بلد هيلي.

وكما يمكننا أن نتصور، سـببت عودته هـو والأطفال، ابتهاجا عظيما. وقد أقام الملك نفسه حفلا كبيرا بالمناسبة.

لم تقلق نجدو ديوال، على الفور، من تأخر الأطفال في العثور على الجذع. ظنت أنهم سـيعيدونه مساء مع بقية القطيع. وقد كانـت دهشـتها عظيمة عندمـا رأت القطيع يعود مـن دون جذع ومـن دون أطفـال. وعندمـا رأت أن البيضـاء عـادت مجرد عجلة عادية وفهمت ما حصل، صاحت غاضبة:

آه يا باغوماويل! باغوماويل! إن أمرا ما كان أخبرني بأن جمال هـذا العجل، وبالخصـوص عيناه، لم يكن في شـيء من الجمال

البقري. لكنني كنت ساهية، فاعتنيت بلا شيء، رافضة أن أستمع إلى ما تقوله لي غريزتي. وها باغوماويل قد نال مني ثانية!

لم يبق لي سوى قدرة واحدة. إنها السهم الأخير في قوسي. سأرمي به، لكنه إن أخطأ باغوماويل، سيرتد نحوي وسيخترق قلبي، وستكون تلك نهايتي.

على أي وجه أضحت حياتي.. كان عليّ أن أدرك أن جزاء الشر ليس سوى شر أفدح. تمائمي ورقياتي وتسخيري لأرواح جعلتها عبيدا، كل ذلك لم ينفعني في شيء. لقد بدأت النزول نحو المنحدر المنزَلِق. ونزولي هو من السرعة بحيث لا أدري كيف أفعل حتى لا أسارع إلى الهوة التي تنفتح على قدم هذا المنحدر(*).

ظلت نجدو ديوال، لمدة سبعة أيام منهَكَة وغارقة في حزن لا ينتهي. لم تعد تأكل إلا القليل ولا تكاد تشرب شيئا، فأضحت نصف حية نصف ميتة.

وبعد أن خرجت من تلك الحال، عادت إلى العمل. ما كان عاد لديها سوى سهم واحد تقذف به باغوماويل. وإذن فقد ذهبت لترميه به وليكن ما يكون! أنا مثل رجل بُقر بطنه، قالت. سيان عنده أن تكون الغلة جيدة أو قليلة، ما دام، في الحالين معا، لن يأكلها.

حينئذ تحولت نجدو إلى فيضان. جرى الفيضان بسرعة خارقة، فاجتاح بلد هيلي ويويو، مالئا الحفر والمغارات بمائه كريه الرائحة. أغرق الأيكات والأكمات وأحال الأسوار ترابا

(*) للمرة الأولى تعود نجدو ديوال لنفسها وتقوم بتأمل واضح وإيجابي. ويوضح هذا ما قيل في هامش سابق من أن ثمة دائما بذرة خير في الشر وبذرة شر في الخير. ومهما يكن، فإن استفاقة ضمير نجدو ديوال هذه، لا يمكنها أن تستمر مادامت قد خلقت كي تكون شريرة.

مدكوكا ودمر الأكواخ. غطى المراعي وأغرق الحيوانات التي كانت ترعى بها.

أمر الملك كل السكان أن يفروا وأن يلتجئوا إلى قمم الهضبات الكثيرة، لحسن الحظ، بالبلد. بعد ذلك استدعى باغوماويل وسأله عن رأيه في هذا الفيضان الغريب الذي لا مبرر له خارج فصل الشتاء.

أجاب باغوماويل: هذا هو السهم الأخير الذي ترمي به نجدو ديوال هيلي ويويو. وقد أحسنتَ صنعا، أيها الملك، عندما نصحتَ الناس بالفرار حاملين ما لديهم من أمتعة ثمينة.

سمعت وامندي، أم باغوماويل، هدير المياه. خرجت مسرعة من كوخها، تاركة على الموقد آنية خزفية بها ملح بارود، أُعد وفق وصفة موروثة من أبيها با - وامندي. كان أبوها، مع ذلك، قد أوصى بعدم إهمال هذه المادة عندما تكون على النار، مهما يكن الأمر.

عندما رأت وامندي الأمواج تتقدم نحو كوخها، نادت على ابنها: يا جذع فالو، صاحت، أَعنِّي، قم بأي شيء كي تنقذ الملح الذي أنا مدينة به لجدك. الفيضان يسارع نحو كوخي. سيطفئ النار ويدمر الملح. والحال أن علينا أن لا نفقده بأي ثمن. أما إذا ما حصل أمر مثل هذا، فإن أبي قد حذرني من أن كارثة ستحل ليس بنا فقط بل بالبلد كله.

- أماه! أجاب باغوماويل، هذا الفيضان الذي ترين ليس فيضانا عاديا؛ فنجدو ديوال شخصيا قد قذفت بنفسها نحوي. هي تريد أن تستدرجني إلى مكان تفتح فيه فاها الجهنمي الواسع مثل مغارة كي أدلف إليه إلى الأبد. وأخشى أن يكون

داخلُ كوخك هو المكان المناسب؛ سيكون بإمكانها أن تبتلعني فيه بالسهولة نفسها التي تبتلع بها أفعى أرنبا. لا يمكن للساحرة أن تفعل أي شيء ضدي خارج الكوخ، أنا متأكد من ذلك. لكنني سأكون بالداخل تحت رحمتها، وأنا متأكد من ذلك أيضا.

- لقد أوصاني والدي، عقّبت وامندي، بألا أفقد أبدا هذا الملح، ولو فقدت في سبيله حياتي. وبما أنك قد تُبلَع إذا ما ولجت الكوخ، فإنني سأقوم بذلك بنفسي. أهْوَنُ عليّ أن أفقد الملح، بل حتى حياتي، من أن أجازف بفقدك أنت الذي تعد حياتك ضرورية لشعبنا.

وشرعت وامندي، من دون أن تفكر في عواقب ما هي مقدمة عليه، تستعد للعودة إلى كوخها. فكر باغوماويل، في رمشة عين:

هل يمكن لابن يستحق هذا الاسم أن يحضر تضحية أمه؟ ثم إن أمي كي تتشبث بهذا الملح أكثر من تشبثها بحياتها، يعني أن قيمته عظيمة. أفضل إذن أن تواجهني نجدو ديوال أنا من أن تواجه أمي. ثم ألن أكون أردأ الأطفال وأعق الأبناء إن لم أشتر حياة أمي بثمن حياتي أنا؟

ثم سارع لإيقاف وامندي، ساحبا إياها بلطف: ابقي هنا، قال لها برقة، وصلِّي من أجلي. سأذهب للبحث عن ملحك، حتى إن ضحيت، من أجل ذلك، بحياتي. وربطا للقول بالعمل، ومحمسا بالحب الأمومي، ولج الكوخ (*).

(*) كل مغزى الحكاية يتجمع في هذا الفصل الذي يضحي باغوماويل فيه بحياته من أجل أمه. فمن الناحية الأخلاقية، حب الأم والتضحية من أجل الأقارب هو ما تتم الإشادة به ههنا. ومن الناحية الصوفية، تعد هذه فرصة لإظهار أن النصر الروحي يمر دائما عبر التضحية بالذات والزهد والتجرد. وبالفعل، فإن فعل باغوماويل هذا، بالتحديد، هو الذي سيقود إلى هزيمة نجدو ديوال الهزيمة النهائية.

توجـه نحـو الموقـد. كانت الآنيـة موضوعة علـى ثلاثة أثافي تشـتعل بينهـا قطع خشـب. التفـت فانتبه إلـى أن الفيضان قد التحق به وأن رأس الماء يلج خلفه المنزل. سارع بحمل آنية الخزف التـي كان ملـح البارود قـد طبخ فيهـا تماما. اجتاح المـاء الكوخ وأطفـأ النـار. كان باغوماويل، وهـو يحمل عاليا الآنية، يسـتعد للخروج عندما شعر بأذرع ملساء تلتف حول ساقيه. كانت تنضح منها مادة لزجة تحاول أن تنتشـر على كل جسـده. انتفض بقوة كي يتخلص منها محاولا الالتحاق بالباب. ارتفع مسـتوى الماء، علـى الفور، وأدرك صـدره. ما عاد باغوماويل يتحرك. ظل هادئا متيقظـا، لأنـه لم يكن يشـك فـي أن نجدو ديوال لـن تتأخر في الظهور، بهذا الشكل أو ذاك.

وفي اللحظة نفسـها التي كانت تتكون لديه هذه الفكرة، هاج المـاء واعتمـل. أصبح في شـكل رأس ضخم فيه سـبع آذان وثلاث عيـون، تقع إحداها وسـط الجبهة تمامـا (*). فتح الرأس المرعب فما بشساعة هاوية وقال:

آه يـا باغوماويـل! اعْلَـمْ أن حتى أكثر المحاربـين تيقظا، حتى لو كان مشـمولا بألف انتصار، يمكنه أن يسقط يوما على ساحة الوغـى. وتلك هي حالـك اليوم. لقد انتصـرتَ دائما عليّ. كانت الأيام السـالفة أيام نصر بالنسـبة إليك وأيام غمٍّ بالنسـبة إليّ. لكـن تلـك الأيـام دارت وشـملها النسـيان. وهـذا اليـوم هـو يوم انتقامـي. لـم يعـد يلزمني إلا أن أمد يدي كي أقطفه. سيمسـح

(*) سـبع آذان، وثلاث عيـون: عندما وصلت نجدو ديوال إلى هـذه المرحلة، معتقدة أن النصر مضمـون، أبانـت لـ باغوماويـل عن وجهها الحقيقـي، الذي خلقت به؛ بمعنى آخـر: أبانت عن حقيقتها الفعلية.

مــن ذاكرتــي، كما من ذاكرات الناس، ذكريات الأيام العصيبة التي شــهدت انهزاماتــي المتعددة. أنــا الآن مثل أفعى وأنــت مثل أرنب تحت رحمتي.

ســأدهن جســدك بمواد لزجة حتى أبتلعك مــن دون صعوبة. لكننــي، قبــل ذلك، ســأصيبك بالشــلل وســأضع حــدا لطاقتك، وسترى بعينيك المفتوحتين عمق فمي الذي ستغيب فيه، عاجزا، كأنك تغيب في ليل بَهِيم لن يُتلَى أبدا بأي فجر ملتمع.

ثم فتحت نجدو عيونها الثلاث ومغارة فمها التي لا نهاية لعمقها. وفي اللحظة التي كانت تســتعد لابتلاع باغوماويل، لم تســتطع مقاومــة الرغبة في أن تضيف: آه يــا باغوماويل! لقــد كنتُ على علم بأن اليوم الذي ســأتحول فيه إلى فيضان كــي أجتاح بلدك، ســيكون هو يــوم منيتك. اليــوم إذن هو يوم وفاتك!

بشــكل غريــزي، كأن روح جــده بــا - وامنــدي ألهمتــه، قــذف باغوماويــل في عيون وفم نجدو الملح الموجود في الآنية التي كان لايزال يحملها في يده. صاحت الشريــرة. انتشرت صيحتها مثل هــزيم رعــد قــوي. آه! آه! قالت شــاكية... اليوم وقــد ظننت أنني انتصــرت علــى باغوماويل، يكون هو، للأســف، الذي ينتصر عليّ بشــكل نهائي، لأن الملح الذي قذف به إلى عيوني وفمي هو ســـم لا بلسم له سيؤدي حتما إلى وفاتي.

بمجــرد أن كــف رعدُ صراخِ المشــعوذة العظمى عــن التصدية، اختفــى الفيضان واســتعادت نجدو ديوال شــكلها المعتــاد. لكنها نجدو جديدة، عمياء وخرســاء. شــرعت، محموقــة، تعدو في كل

اتجاه وترتطم بالحواجز وتسقط ثم تقف من جديد وتعاود عدوها الفوضوي. وأخيرا، ذهبت، متعثرة، لتسقط على رأس وتد خشبي مدبب صلب مثل قطعة معدنية فولاذية، فاخترقها (*). بُقِرَ بطنها فانتشر كل ما بداخله - الأمعاء والكبد والبنكرياس والرئتان والقلب - على الأرض. وهكذا هلك مجسّمُ الشّر، نجدو ديوال، أم الكارثة.

في تلك اللحظة نفسها انقشع الظلام العميق الذي كان قد لف البلد.

عند مغيب الشمس، شوهدت، يا لَلْعجَب! النجوم المتعددة تنتظم في دوائر حول النجوم الثمانية والعشرين الكبرى التي بزغت هي أيضا، في السماء، في اللحظة نفسها، وهو ما يعد أمرا غير مسبوق! كانت تلمع مثل تاج حول العلامات الفلكية الاثنتي عشرة التي تحيط، هي بدورها، بالكواكب السبعة المجتمعة (**)٨٧.

على الأرض، عادت الأشجار المثمرة والأعشاب الطبية في أعالي الدغل، التي كانت من قبل قد جفت، إلى الاخضرار كأنها في بداية موسم الأمطار. كل ما كان من قبل قد أصبح هزيلا نحيفا اكتنز على الفور. عادت الزروع لتملأ الحقول من جديد.

(*) التقاء غريب مع أسطورة مصاص الدماء الغربية، التي لا يمكن لهذا الأخير، فيها، أن يموت إلا وقد اخترق بطنَه وتدٌ خشبي.

(**) النجوم الثمانية والعشرون (٢٨) (انظر الهامش ٨٧ من الملحق) تظهر دفعة واحدة وكذلك الكواكب السبعة والعلامات الفلكية الاثنتي عشرة، محاطة بما لا يعد ولا يحصى من النجوم في السماء، كما لو أن مجمل الزمن والفضاء يجتمع في هذه اللحظة حيث تنقشع كل عتمة. إن المشهد يقع في زمن آخر غير الزمن البشري المعتاد.

بعد اختفاء مبدأ الشر، تستعيد الطبيعة براءتها الأولى. تقول عبارة فولانية: «عدنا إلى نقطة البداية...».

أصبح الحليب مدرارا. ومع مرور الأيام أصبحت كل عملية حلْبٍ أو حصاد أو قطْف أحسن من التي كانت قبلها.

عاد البلد كله إلى حيويته، لأن القدر الأسود الذي أُصيب به انتهى في اللحظة نفسها التي زهقت فيها روحُ نجدو ديوال.

عاد الجميع مبتهجا. عوضت الضحكاتُ البكاء. شكر الشعب جينو وكرَّم من كان أداة استعادتهم لسعادتهم: باغوماويل، جذع فالو. لأن لكل شيء سببا، وأبدا لا يحتقر الإنسانُ الحكيمُ السببَ أو ينساه.

* * *

وحيثما وجدتني حكاية نجدو ديوال، تركتني. أما بالنسبة إلى الحكاية في ذاتها، فتواصل طريقها على جناح الزمن نحو غدوات لن تكف عن التجدد، ونحو آذان جديدة لن تكف عن الاستماع، ونحو فتيان أذكياء لن يكفوا عن التأويل والتكييف والتطبيق (*).

هكذا تمشي الحياة، بخطى وئيدة أو بسرعة، للقاء الموت الذي يتقدم، هو أيضا، بخطى بطيئة أو بسرعة أكبر.

(*) التطبيق: يعني حرفيا «تقليد الحكاية»، بمعنى تأمل سلوكات مختلف الشخوص بهدف استخلاص دروس واستقاء نماذج.

ملحق الهوامش الخاصة بحكاية نجدو ديوال[1]

(١) أسطورة الخلق

أسطورة الخلق هذه مشتركة تقريبا بين كل عرقيات السافانا بأفريقيا الغربية (بافور القديمة)، مع تنويعات تختلف باختلاف هذه العرقيات والجهات والأنحاء، وفق المظهر الذي يريدون التركيز عليه من فعل الخلق.

وفضلا عن ذلك، فإن للفولانيين أسطورةَ خلقٍ خاصة بهم، تقوم على الدلالة الرمزية للحليب والسمن والنوع البقري. لكن عندما هزمهم سوندياتا كايتا (مؤسس إمبراطورية ماندي، أو مالي) وتم نقلهم من الشمال إلى الجنوب، اندمجوا بشكل كامل في النظام الثقافي لبلاد ماندي فتبنوا جزءا من أسطورتها حول نشأة الكون، ولم يحتفظوا إلا باختلاف بسيط، إلى درجة أنه قد أصبح مستحيلا التفريق بين نظرة الفولانيين ونظرة بامبارا لنشأة الكون. فقد أصبحت الشخوص الرئيسية تنتمي إلى هذه الثقافة كما تنمي إلى تلك.

وكي يندمج الفولانيون بشكل جيد في المجتمع، تبنوا أيضا أربعةَ أسماءِ عشائر (العشيرة بلغة بامبارا هي ديام، وبلغة الفولانيين ييتور) حتى يتلاءموا بشكل جيد مع النظام الأربَعيِّ لماندي. العشائر الفولانية الأربع هي إذن أسماء مستعارة. فالفولانيون، في الأصل، لم يكن لهم سوى أسماء قبائل: فآل با، مثلا، هم في الحقيقة آل ووروبي. وكلما توجهنا نحو شرق المنطقة الثقافية لماندي والدلتا النيجيرية، يقل عثورنا على فولانيين يحملون اسم عشيرة ييتور؛ فهم يحملون اسم قبيلتهم.

١ - كل الهوامش الخاصة بهذا العمل إما كتبها أمادو همباطي بنفسه (التفصيلات الكبرى المتعلقة بهوامش الملحق والإشارت

الرمزية)، وإما أملاها بالموازاة مع قراءتنا المشتركة للنص (ومن بينها الدلالات الروحية لمختلف مراحل الحكاية) هـ. هيكمان.

* * *

مفهوم «الفراغ الحي» أو «الفراغ الذي لا بداية له»، الذي نعثر عليه في الأسطورة (والذي يستدعي مفاهيم ميتافيزيقية توجد في أمكنة أخرى، خصوصا في الشرق الأقصى) متواتر في الموروث الفولاني. فجينو لم يُخلق ولا جسد له وليس له مظهر مادي (ومن ثمة فكرة الخواء)، لكنه في الوقت نفسه أصل ومبدأ كل حياة. والموروث يميز بين نوعين من الحياة: الحياة الأبدية، الخاصة بجينو وحده؛ ثم الحياة العارضة الخاصة بكل كائن مخلوق (حتى الكائنات العلوية للعوالم الدقيقة). الحياة التي خرجت من البيضة الأصلية هي حياة عارضة، وبذلك، فهي تتّبع قانون السبب والمسبَّب.

لنشر أيضا إلى أن الكلمة «فان» بلغة بامبارا (البيضة) تعني أيضا «معمل حدادة». الحداد، الذي يعتبر بمنزلة ابن الأرض الأول، يحول المادة ليصنع منها أدوات. فهو يشكل إذن أول مقلد للخلق الأصلي. ومشغله هو انعكاس لمعمل الحدادة الكوني الأعظم. كل الأدوات فيه لها طابع رمزي وكل الحركات التي يتم القيام بها هي ذات طابع طقوسي.

الموروث يعتبر أن ثمة أشكالا عدة للزمن: فثمة أولا «الزمن اللانهائي اللازمني»، وهو الأزل الذي لا مبتدأ له ولا منتهى، وهو مسْكن جينو؛ ثم «الزمن الزماني الإلهي» (دومونا) الذي يحضن البيضة الأصلية؛ وأخيرا الزمن الزماني الإنساني (الساعة

واليوم والأسبوع... إلخ). الذي يخرج من البيضة. ونحن تجنبنا تقديم تعاقب العناصر التي تولد من البيضة حتى لا نثقل النص.

وكما يمكننا أن نلاحظ في مسألة نشأة الكون الناتجة عن الإنسان الأصلي (نيدو)، فإن الوحدة، في لحظة ما، تنتفي؛ إذ يبرز سبيلان: سبيل الخير مع «الرجل العجوز»، وسبيل الشر واللانظام والفوضى مع «المرأة العجوز الشيباء». الصراع بين الخير والشر أمر متواتر في حكايات الموروث الأفريقي، واستجابة لهَمٍّ أخلاقي، يتم الانتصار دائما للخير. وبالفعل، فإن المبدأين مترابطان ويعتبران متلازمين إلى درجة أنهما يشكلان وجهين لعملة واحدة.

الرجل بوصفه نقطة التقاء كل التأثيرات وكل القوى (إذ هو ملخص للكائنات العشرين الأولى وإناءٌ للشرارة الربانية)، يجسد الخير والشر. وسلوكه هو الذي يؤدي إلى بروز إما هذا وإما ذاك. وسيركز التلقين، تدقيقا، على أن يُعليَ في الإنسان من شأن كل درجة من درجات أسطورة النشأة هذه، حتى تتم إعادة إدماج حالة «نيدو» الأصلية، والذي يعد مخاطَب جينو ومدبرَ عملية الخلق التي تظل كامنة في كل كائن.

نيدو هو الإنسان الخالص، النموذجي. السلوك الممتاز يدعى «نيداكو»، أي كل ما يقوم به من هو إنسان بكل معاني الكلمة: النبل والشجاعة والشهامة والخدومية ونكران الذات. ولندقق بأن مفهوم نيدو يحوي في الآن نفسه الرجل والمرأة، لأنه يقال بأن نيدو يضم في ذاته المذكر (بابا: الأب) والمؤنث (إينا:

الأم)، المقترنين بالتتابع، بالسماء وبالأرض - السماء لفظ مذكر في اللغة الفرنسية - المترجم) وحالة نيداكو هي حالة الإنسانية الكاملة، المؤنثة والمذكرة في الآن نفسه. والتلقين الذي نتحدث عنه باستمرار في هذا العمل، يمكن أن نفهمه بمعنيين متكاملين: ثمة التلقين المستقبَل من الخارج والتلقين الذي يتم داخل الذات نفسها.

التلقين الخارجي هو «انفتاح العينين»، أي كل التعليم المقدم في أثناء احتفالات تقليدية أو في أثناء لحظات الاختلاء بالنفس التي تعقب هذه الاحتفالات. لكن، يجب، بعد ذلك، أن يعيش المتعلم ما تعلمه وأن يتمثله ويخصبه بأن يضيف إليه ملاحظاته الشخصية وفهمه وتجربته. والمؤكد أن التلقين يتواصل طيلة الحياة. فمثل فولاني يقول: «التلقين يبدأ أثناء الدخول إلى الروضة وينتهي بالقبر».

٢ - نيلبي (سونسون بلغة بامبارا) - diospyros mespiliformis: شجرة مثمرة ذات فضائل طبية. هي الشجرة المقدسة للفولانيين، لها علاقة بأنشطة الذكور؛ فعصا الراعي تؤخذ دوما من أغصان هذه الشجرة. أما شجرة كيلي، وهي شجرة مقدسة أخرى، فلها ارتباط بأنشطة الإناث.

ثمة، في الموروث الثقافي، أربع عصوات: عصا الراعي وعصا القيادة وعصا الحكمة ثم عصا الشيخوخة.

٣ - الجدول: شكل مؤلف من مثلثين متساويَيْ الأضلاع متداخلين، أحدهما موجه نحو الأعلى (السماء)، والآخر موجه نحو الأسفل (الأرض). والمجموع يشكل نجما ذا ستة أطراف.

ويشـكل تقاطـع خطوطـه سـت خانـات جانبيـة وخانـة مركزيـة تسمى «سرة» أو «قلب» الجدول.

اسـم هذا الجدول باللغـة الفولانية هو فادوند نـداو (من فاداد: حَمَى، ونداو: النعامة). يقال بأن النعامة، قبل أن تلد، تقلد وهي ترقص، رسم الجدول على الأرض، ثم تذهب لتلد وسطه. وبالمثل، فإنـه عندما يكون الاسـتعداد قائما لضرب مضـارب الفولانيين، فإن زعيم الموكب يعيد رسـم هذا الشـكل، سواء وهو على فرسه أو كان راجلا، حول المخيم. ويستعمله المعلمون الكبار «silatiguis» (ملقنون فولانيون. انظر الهوامش ٥ و١٦) في عملية التنجيم.

إنـه شـكل ذو قيمة حمائية عالية، بالنسـبة إلـى الفولانيين كما بالنسـبة إلـى بامبارا. فهـو يرمز إلى الكون. يمثـل المثلث الموجه نحو السـماء النار ويمثل المثلث الموجه نحو الأسـفل الماء. وتمثل الأطراف الستة الاتجاهات الأربعة، إضافة إلى السمت والنظير. وتمثل الخانات السـبع، من بين ما تمثله، أيام الأسـبوع السـبعة والزوايا الاثنتي عشرة وأشهر السنة الاثنيْ عشر.

يعد هذا الجدول رمزا خفيا أو رمزا دينيا كونيا. التقليد الهندي يرى فيه اتحادَ الإلهِ سـيفا مع بُعدِه المؤنث شـاكتي. وفي الموروث اليهـودي المسـيحي، يسـمى «نجمـة داوود» أو «خـاتم سـليمان». ويعتبر الجدول في الموروث الإسـلامي، بمنزلة الشـكل الهندسي لاسـم الله؛ يُسـعفُ الحـرف الأخير (الهاء) «الذي يشـبه شـكلُه الهندسـي شـكل مثلث»، في تشـكيل مثلث صاعد، يسمى «مثلث الوَرَع». أما الرسـم العمودي للأحرف الثلاثة الأخرى (ألف - لام - لام -) فيُسـعف فـي تشـكيل المثلـث النازل، أو «مثلـث الرحمة

الربانيـة». الجدول، بالنسـبة إلـى طالب العلم المسـلم، لا يعتبر رمـزا عبرانيـا خاصـا، وإنما هو رمـز أبدي يجسـد اتحاد الأرض والسماء، أو بمعنى آخر اتحاد الروح العارضة بالله المتعالي.

٤ - الجمجمة: درَست مدرسةُ كوري (موروثٌ مانْديٌّ خاصٌ ببامبارا) عظامَ الرأس وأعطت اسما لكل عظم من عظامها، وهو ما قام به أيضا التقليديون الفولانيون المنتمون إلى دجيري (بالسنغال) المرتبطون بملـة ديالان. فهـؤلاء على علم بطقس يتم فيه التضرع للجمجمة ويسـمح بمعرفة ما سـيحصل مسـتقبلا. تعتبر الجمجمة، في هذا الموروث، بمنزلة العاملِ المسـتقبِل للقـوى العلوية. وتعتبر جمجمة الرجـل، من بين كل الجماجم، أحسـن عامل لتلقي إرسـاليات هذه القوى. ويتم الاحتفاظ بجماجم الزعماء أو الرجال ذوي السـمعة الكبيـرة، ليـس بوصفها غنائم فقط، بـل بوصفها أيضا أداة خاصة بنقـل فضائـل هـؤلاءِ العظَماء المتوفـين إلى الأحياء. تسـمح هذه الإشـارات القليلـة بفهـم أحسـن للوظيفـة المركزية التـي تقوم بها (الجمجمة المقدسة) طيلة هذه الحكاية.

ووفـق تعاليم بامبـارا المنتمين إلى كومو، خصوصـا تعاليم ديبي وكوليكورو (شـاطئ النيجر الشّـمالي أسـفل باماكو)، فإن جسد الإنسـان يضـم سـبعة مراكـز موزعـة بـين قمـة الـرأس وأسـفل الجسـد. وتعتبـر الجمجمة «المركز - الرئيس»، ثـم تتتابع المراكز الستة الأخرى انطلاقا من الجبهة - ولا يمكننا هنا ألا نفكر في «الشـاكرات» السـبع، أو مراكز الطاقة، التـي يوزعها أيضا الموروث الهندي على جسـد الإنسـان، من قمة الرأس إلى أسـفل العمود الفقري.

نعثر، في بعض المعابد التعليمية الأفريقية، على بضع مزهريات خزفية؛ قد تكون ثلاثا أو خمسا أو سبعا. عندما تكون سبعا، تكون ترمز إلى مراكز الجسد السبعة. يتم وضع أربعة «أحجار رعدية» في المزهرية التي تمثل الجمجمة؛ وهي ترمز إلى النار العلوية التي نزلت على الأرض لتنقش في الكائنات التي تعْمُرها الذكاءَ والقوة المنبعثة عن مانغالا (الإله).

في بُعْد آخر، تُماثَل الجمجمة بالبيضة الكونية التي كانت توجد فيها كامنة كلُّ الأشياء قبل خلق العالم الزائل. وبهذا المعنى، تكون الجمجمة رمزا لرحِم المعرفة.

العظام الأساسية التسع للجمجمة، هي، في الموروث الفولاني، بمنزلة السبل التسع للتعلُّم. العظم التاسع ليس ظاهرا، كما هو الشأن بالنسبة إلى «واحد» الذي لا يعد عددا لأنه الوحدة غير المعروفة وغير المحددة. إن سر معرفة هذا العظم مرتبط بسر الوحدة الأساسية والخفية.

٥ - العارفون: يتم التمييز، عند بامبارا، بين السوما والدوما، على اعتبار أن الثاني أعلى مرتبة من الأول. السوما، مثلا، يعرف فقط مختلف فئات النباتات والمعادن... إلخ، بينما يعرف الدوما طريقة تشخيص المرض ووصف النباتات المناسبة للعلاج. وعندما يكون الأمر متعلقا بالتطبيق، فإن السوما يعتمد على الدوما.

أما عند الفولانيين، فإن الغاندو، هو في الآن نفسه، سوما ودوما. والمعلم الأكبر (السيلاتيجي) هو دائما غاندو، لكنه أرفع شأنا من هذا الأخير في تراتبية التلقين. ولقب السيلاتيجي يشير

إلــى مرتبة في التعليم، يمكن أن نســميها مرتبة «المعلم الكبير - Grand maître» (انظر الهامش ١٦).

٦ - نينوفــار: ترمز زهرة النينوفار، بمنطقة ماندي، إلى العذراء التــي تنتظر أن تُخصَّب. بهذا المعنى، تكون مماثلة لكأس كونية مســتعدة لأن تمــلأ. وتعتبر الأمطــار الأولى في الســنة بمنزلة بــذرة علوية تأتي لملء هذه الكأس. بالنســبة للفولانيين وبعض الملل والأديان الماندية، فإن زهرة النينوفار ترمز إلى الحب؛ إذ لها تماثــل قريب لهــذا المفهوم. ويعتبر الفولانيــون والدوغون زهور النينوفــر بمنزلة رمــز للحليب الأمومي؛ كما أنهم يســتعملون أوراق هــذه النبتــة قصد مساعدة الأمهات المرضعــات في إغزار حليبهــن. ويقومون بالشــيء نفســه عندما يتعلــق الأمر بإناث الحيوانات.

الأســطورة الفولانيــة تســند للســيلاتيجي (المعلمــين الكبــار) «نينوفــار الأجــداد» التــي اســتقدمها مــن مصــر شــتاتٌ قــديم. وكانت نســاء هيلي ويويو يحملن حول اعناقهن أكاليل من زهرة النينوفار ويزين بهذه الوردة ضفائرهن.

٧ - شــجرة الجبن وشجرة الباوباب وشــجرة الكايلسيدرا: ستأتي الهوامــش المتعلقة بدلالة هذه الأشــجار، وبدلالــة نباتات أخرى وحيوانات واردة في هذا الوصف، أثناء هذه الحكاية، عندما يكون أحد هذه العناصر موضع حديث.

٨ - المــاء، ذاك العنصــر - الأم الــذي لا روح لــه: «العناصــر الأم» الأربعــة هي الماء والنار والهــواء والأرض. والمزج بينها هو ما مكن من خلق كل الكائنات الفانية.

وعبارة «لا روح له» لا تمتلك أي قيمة إلا مقارنة مع روح الإنسان؛ ذلك أن لكل شيء روحا، في الموروث الأفريقي: ثمة روح للمعدني وروح للنباتي وروح للحيواني. وهي ما نسميها «الأرواح الثلاث». ولكل سيادةٍ روحٌ وحيدة. ويمكن لمثال الكهرباء أن يساعد على فهم مفهوم الروح الوحيدة: سواء أمر التيار إلى مصباح من ٢٥ واط أو إلى مصباح من ٢٠٠٠ واط، فهي دائما الكهرباء نفسها. الشيء الوحيد الذي يختلف هو قوة المصباح. أما الإنسان فشيء آخر، لأنه قد تلقى إرث أن يكون مُخَاطَب جينو (أو مانغالا). الإنسان المكثف في أصل كل شيء في الكون والمحرِّك بما نُفخ فيه من روح إلهية، يعتبر في الآن نفسه مدبِّرَ الخلق وضامِنَه، باسم جينو. ومن ثمة المسؤولية التي يتحملها.

٩ - الوادي: تعتبر الوديان رموزا للتلقين الذي يقود متعلما مبتدئا إلى المعرفة وإلى الحكمة. الوادي يؤدي إلى البحر المالح، مستودع المعرفة. وكلما قرن الهدف المشار إليه بالملح، فإن ذلك يعني أن تعلما كبيرا قد تحقق.

١٠ - البلد السَّبْعِي: إن كل هذه الحكاية تقع، بالفعل، تحت علامة عددِ سبعة، انطلاقا من اسم نجدو ديوال نفسها الذي يعني «المرأة السبعية».

يعتبر العدد سبعة عددا كبيرا في كثير من التقاليد، مع عددِ واحد وعددِ ثلاثة. والأعداد الفردية، المسماة «مذكرة» هي أعداد أكثر «امتلاء» من الأعداد الزوجية المسماة «مؤنثة». العدد سبعة مرتبط بمفهوم الدورة المتكررة، وإذن فهو مرتبط بالزمن. الفولانيون يقولون: «كل سبعة أعوام». وفي الإسلام ترمز

مضاعفات الرقم ٧ (٧٠، ٧٠٠٠، ٧٠٠٠٠) إلى كمية ضخمة، فضلا عن رمزيتها لأمر لا يمكن قياسه. ومعلوم أن الفاتحة، أول سورة من القرآن، التي تقرأ في كل صلاة، تتكون من سبع آيات، تماما كما هو الشأن بالنسبة إلى الصلاة المسيحية.

في التقليد الفولاني، كما في موروث بامبارا، تعتبر كل فتحة في الرأس (الفم والعينان والمنخران والأذنان) بابا لدخول حالة كينونة، عالم داخلي، ولذلك فهي محروسة بقوة ربانية خاصة. كل باب يؤدي إلى باب داخلي آخر، وذلك إلى ما لا نهاية. ولفتحات الرأس السبعة هذه علاقة بدرجات التعلم السبع.

١١ - شجرة التمر الهندي: تحتل هذه الشجرة المطهّرة القاعدة من التطبيب الأفريقي؛ فمكوناتها المختلفة تدخل تقريبا في كل الأدوية التقليدية. ترمز هذه الشجرة المقدسة في تقاليد بامبارا المنتمين إلى ندومو وكوري إلى التعددية والتجديد. وترمز جذورها إلى طول العمر. وعندما يصاب إنسان بمرض شديد، يقال له: «خذ جذور شجرة التمر الهندي». فـ «أخذ جذور شجرة التمر الهندي»، يعني الانتصار على المرض.

١٢ - الدجاجة - الذكر: الديك. يعتبر الديك في أفريقيا السوداء حيوان التضحية بامتياز. يتم تقديمه إلى الآلهة كما يقدم إلى الضيف إكراما له. وبما أنه يعلن مقدم ضوء اليوم الجديد، فإن الفولانيين ينادونه (مؤذن الحيوانات). وهو يرمز إلى يقظة الذهن. صوته يرشد إلى السبيل المؤدي إلى نور جينو. كل أجزاء جسد الديك تدخل في الاستعمالات السحرية في الموروث الأفريقي، لأنه مبارك للغاية. ترمز شوكته إلى سلاح

البطـل المنتصـر علـى أعدائه. فبفضل شـوكة ديك معدة بشـكل سـحري، انتصر سـوندياتا، بطل ماندي، على عدوه سومانغورو. الديك، في الموروث الفولاني ذو ارتباط شديد بالسر الخفي(انظر كايدارا).

١٣ - الثـور: لـم يكـن لتربيـة المواشـي عنـد الفولانيـين هـدف اقتصادي. الفولاني يعتبر النوع البقري بمنزلة قريب له، بمنزلة أخ. لم يكن يذبحه ولم يكن يبيعه أو يأكله. كان يسـتهلك حليب البقر وسمنه ويقايض بهما كي يحصل على مواد أساسية. ولمزيد من المعلومات حول عقيدة الفولانيين المرتبطة بالبقر والوظيفة الرمزية له، نحيل على كتابنا كومين.

١٤ - سـليمان: يلمِّـح الفولانيـون باسـتمرار، فـي أسـاطيرهم وموروثهـم التاريخـي، إلى الأحـداث التي طرأت فـي زمن النبي سـليمان الـذي يبدو لديهم دائما بمنزلة أصـل بعض التعلُّمات. وفضـلا عـن ذلـك، فـإن الفولانيـين ينـادون ملكة سـبأ (الخالة بلقيـس). بعض النظريات التـي تناولت أصول الفولانيين تقول بقرابتهـم العرقية القديمة مع العبرانيين، وترى أخرى أنهم من أصول عربية. أما في أسـاطيرهم الخاصة، فهم يصرحون بأنهم قـد «قدموا من الشـرق» (انظر حكاية لمعـان النجم الأعظم، ص ٥١. انظـر أيضا نهاية الهامش الرقم ٦). وتجعل نظريات أخرى، مشـتقة من دراسات لسـانية، أصلَهم يعود إلى الهند الدِرَاويديَة (انظـر القضيـة الفولانية، لـ ألان أنسـيلان، كاراثـالا). وكيفما كانـت الحال، فـإن الحفريات الصخرية التـي أجراها هنري لوت فـي مغـارة تاسـيلي، تشـهد علـى وجودهـم بأفريقيا منـذ ٣٠٠٠

سـنة قبـل الميلاد، على أقل تقديـر (انظر أيضـا أمكوليل، الفتى الفولاني. ص ١٨ و١٩ - مجموعة بابل من ص ٢٠ - ٢٢).

١٥ - وصف هيلي ويويو: يثير هذا الوصف مجموعة من الأسئلة. فنحـن نـرى، بالفعـل، أن الفولانيـين إن كانوا (يملكـون قطعانا كبيـرة)، فإن من المفروض أن يكونوا يسـكنون قرى وحتى بلدات، وأنهم يملكون مسـاكن (بعضها أجمل من بعض)، مما لا يتوافق البتة مع طابع هذا الشـعب الذي يعد أساسـا شـعبا من الرحل، حيـث نجد في الصفحة المواليـة أنه (أكثر تجوالا من الإعصار). مؤكـد أن الفولانيـين كانوا يسـتقرون بالقربُ مـن بعض القرى أثناء فصل الجفاف، غير أن مسـاكنهم، المكونة أساسـا من أكواخ مؤقتة من القش، كانت تقام دائما خارج حدود القرية، فلا يمكننا أن نقـول بـأن ذلك يشـكل انتقـالا فعليا من حالـة الترحال إلى حالـة الإقامة الدائمة. إن إنشـاء بعـض الإمبراطوريات أدى إلى بناء مدن وقرى، لكن تلك ظاهرة تعتبر حديثة نسـبيا بالنسـبة إلى تاريخ الفولانيين.

هـل علينـا أن نسـتنتج مـن هـذه الحكايـة أن الفولانيـين كانوا يعيشـون، في ماضٍ سـحيق، في بلد مجهول، نمطا حياتيا آخر، وأنهـم عاشـوا حياة الترحال بعـد ذلك؟ أم أن علينـا أن نرى في هذا الوصف تأثيرا للموروث الخاص بشعوب ماندي التي تعايش الفولانيـون معها (انظـر الهامش ١)؟ وخلف الآثـار والتأثيرات المتبادلـة التـي يصعب اليـوم كشـف طبيعتها، يبقى أن الشـعب الفولانـي يتذكـر جائحة قديمـة ورهيبة طردتهم مـن بلد رائع، لم يكن البشـر يعيشـون فيه حياة سـعيدة ومثالية، فقط، وإنما

كانوا أيضا قد أدركوا مستوى رفيعا من العلم ومن المهارة. يقال: «الشيء الوحيد الذي لم يكن فولانيو هيلي ويويو يعرفونه هو أن يجعلوا فرسا يمشي على سور أو أن يُمِيلوا بئرا ليشربوا منها وكأنهم يشربون من كأس!»، وسواء أكانت هذه الحكاية أسطورة أو حقيقة، أو ربما خليطا من الاثنتين، فإنها تثير أيضا العصر الذهبي أو الجنة المفقودة، وهو أمر مشترك بين جميع موروثات الكون.

١٦ - المعلمون الكبار: هم الملقنون الكبار للفولانيين الرعويين. فباعتبار المعلم الكبير قائدا روحيا للمجموعة، فإنه سيد الأسرار الرعوية وأسرار الأدغال. وبما أنه مخصوص بمعرفة فوق - عادية، فإنه يترأس الاحتفالات ويقرر في كل ما يتعلق بمسألة ارتياد المراعي وبصحة وتخصيب القطيع. هو يمثل المرحلة القصوى للتلقين. كل راعٍ مبتدئ يحلم بأن يصبح يوما معلما كبيرا. ويُعتبَر كومين نصًا تلقينيا يصف المراحل التي يتبعها سيلي ساديو كي يصبح معلما كبيرا. في لمعان النجم الأعظم، وهي حكاية تالية لكايدارا، سيكون باغوماويل (الذي يشارك في أحداث حكاية نجدو ديوال بوصفه طفلا صغيرا) صورة للمعلم الكبير المثالي، إذ سيكون معلما ملقنا لملك.

كانت القيادة الروحية والزمانية، عند الفولانيين التقليديين القدامى، توجد بين يدي معلمين كبار. كان قادة القطيع (آرب) يعيَّنون كل يوم من طرف المعلمين الكبار عن طريق التنجيم. وشيئا فشيئا، خصوصا مع فتوحاتهم وما نتج عنها من انتقال من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار، انتقلت القيادة إلى يد

قادة القطيع الذين أصبحوا زعماء وملوكا، فلم يحتفظ المعلمون الكبار إلا بوظيفة الملقنين والمعلمين. غير أننا نعرف أيضا بعض الحالات التي يتقلد فيها زعيم القرية، أيضا، دور المعلم الكبير: حالة الزعيم ديمبو، مثلا، بقرية نديلا، دائرة لانجير (السنغال)، الذي أدين له بتعليمي الرعوي وبنص كومين.

١٧ - قط أسود، تيس أسود: بما أن الأمر يتعلق هنا بمخلوق جالب للشؤم وللكوارث، فإن السواد، لونَ العتمة حيث تمارس الشعودة، هو الذي يسود.

يوجد القط والتيس، اللذان يعتبران، بالخصوص، «مشحونين» لكونهما يستقبلان قوى خارقة، في موروثات كثيرة. التمائم الأكثر تأثيرا تحفظ في جلد قط أسود أو في جلد تيس. وتتم التضحية بالتيس أكثر مما تتم بالثور. قديما، كان لكل قرية من قرى حوز النيجر تيس يسرح كيفما أراد في كل مكان. ولكونه مشهورا بقدرته على تلقي كل الشرور التي يمكن أن تصيب القرية، فإنه يعد حارسها وحاميها. ولرمزية التيس علاقةٌ أيضا بالقوة الإنجابية (انظر كايدارا).

١٨ - السلحفاة: تعتبر السلحفاة من بين الحيوانات الأولى في الخلق. هي رمز لطول العمر والدوام، وهي أيضا رمز للحماية بسبب الدرع التي يمكنها من أن تختفي تحته بشكل كامل. وهنا، يعطيها عيشها في أحضان البحر، وظيفة حيوية جديدة، على اعتبار أن الماء يعتبر أصل الحياة.

١٩ - البيضة: هي رمز للحياة، لأن كل حياة تأتي، بعد الماء، من البيضة. حتى بذرات النباتات تعتبر بيضا. ألا يقال: «تفتحت

الوردة...»؟

٢٠ - تمساح عجوز: التمساح بدوره يعتبر رمزا للقدم ولطول العمر. وعلينا ألا ننسى أن كل ما هو عجوز وقديم، في أفريقيا، يعتبر مشحونا بـ نياما، أي القوة الخفية، بوصفه وعاء لقوة نابعة من الله الخالق، الذي يعد «الأقدم» بامتياز. شيء من القوة الربانية نفسها، إذن «من جانب مظهرها المتعلق بالدوام وبالخلود» يوجد في كل ما هو عجوز، اعتبارا لقانون التشابه التماثلي الذي له قيمة في الفكر الأفريقي. نحن نستعمل هنا مصطلح «رمز»، لافتقارنا إلى مصطلح أكثر تعبيرا عن المراد، لكن الأمر لا يتعلق ههنا برمزية تجريدية أو ذات طابع فكري صرف؛ إن الأمر يتعلق بتشابه ملموس أو، إن شئنا، بتَمظهرٍ لأحد مظاهر القوة الإلهية الأصلية (الدوام والحيوية والقوة... إلخ) عبر وعاء؛ وتتنوع دراجات كثافة هذا التمظهر وفق طبيعة الأوعية.

٢١ - سبع آذان وثلاث عيون: الآذان السبع هي أحد مظاهر قانون السبعية الذي يطبع وجود نجدو ديوال كله. العين الثالثة تقع على الجبهة، وتختص بالنظر الداخلي. يطلق عليها اسم «عين العارف» أو «عين المشعوذ»، لأن تلك المعرفة، المحايدة في ذاتها، يمكنها أن تؤدي إلى الخير، كما يمكنها أن تؤدي إلى الشر، وفق الطريقة التي نستعملها بها.

٢٢ - العقرب: هي تجسد، في الرمزية النهارية (الإيجابية) نكران الذات والتضحية الأمومية (وليس «الأبوية»، كما ورد خطأ في الطبعة الأولى لكايدارا، الصادرة عن مطابع (ex - NEA

بأبيدجـان). وبالفعل، فإنه يقال بأن صغار العقرب الأنثى تهلك جنبيها وتأكل أحشاءها قبل أن تولد.

أمـا فـي الرمزيـة الليلية (السـلبية) فـإن العقرب تجسـد الروح الشرسـة، ذات المزاج الشـرير، والكامنة على الدوام، ولا تظهر إلا قصد الوخز وأحيانا كي تُميت. وعلى العموم، يتم تجنب النطق باسمها لأنها مؤذية.

ترمز سـيقانُها الثمانـي وشـوكتَاها وذيلُها، إلـى القُوى الإحدى عشرة التي تشكل موضوعا قائم الذات في الدراسات الباطنية.

نـرى باسـتمرار، فـي أكـواخ شـعوب مانـدي أو بامبـارا أو حتـى الفولانيـين، عقـارب سـوداء معلقـة على بـاب المدخـل أو الغرفة المخصصـة للاحتفالات الجنائزية. العقـرب ترمز إذن إلى الروح التي تسـتعمل لطرد الشر المرتبط بالليل، وإلى أعمال مصاصي الدماء الليليين.

٢٣ - الفيلة والعقبان وأشجار الباوياب والجبال: كلها رموز للقِدَم بامتيـاز. في لمعـان... (ص ٤٣)، يُذكَر «مجلس شـجرة الباوياب»، الذي يعتبر تجمعا سـريا يقيمه كل سـنة العُقاب القديم والفيل وشـجرة الباويـاب، كـي يفحصـوا جميعهـم الأحـداث الماضيـة والقادمـة. وحده المعلم الكبير، باغوماويل، اسـتطاع حضور هذا المجلس المحظور على الإنسان، واستفاد من تلقين هؤلاء الأحياء الثلاثة القدامى.

٢٤ - أن يكـون المطـر مصيبا بالجفـاف، وأن يكون الحر مُخضرا: هذا القلب في الظواهر أمر متداول في الحكايات. وهو يدل على أننـا نوجد فـي عالم آخر، لا تنطبق عليـه القوانين المادية. وتتم

الإشــارة إليه، باستمرار، عندما يكون الأمر متعلقا بمعلمين كبار (باغوماويل في لمعان...) أو بسَحَرَة.

٢٥ - الملك: وظائف الملك (أو الزعيم)، في المجتمعات التقليدية، لم تكن شـاملة، إذ لم يكن له الحق في كل شـيء. كان على الملوك أن يأخذوا في الاعتبار قوة الزعماء الروحيين التقليديين، الذين يعدون أسـياد القرار في مجالهم الخاص («سـيد الأرض» و«سيد المُدية» أو المُضحي أو المعلم الكبير الفولاني... إلخ). وفضلا على ذلك، كانوا ملزمين بالعدول عن محظورات صارمة.

٢٦ - ٢٢,٥٦: الأرقام ١١ و٢٢ و٥٦، تعتبر لدى الفولانيين (كما في الإسلام)، ذات وظائف رمزية كبيرة.

٢٧ - النجمـة الشـريرة: بزوغ نجم يكون دائما علامة إما سـلبية (كمـا هـي الحال هنـا)، وإمـا إيجابيـة، كما سـيحدث لاحقا في الحكايـة عندمـا سـيبزغ نجـم معلنـا عـن الحمـل بباغوماويل. وسـواء أظـل النجم ظاهـرا لمدة طويلـة أم اختفى بسـرعة، فإنه دائما مشحون بالدلالة.

٢٨ - نهايـة التكهـن: يجـب أن نقـارب بين هذا الوصـف لمجتمع أدرك لحظة انحطاطه وأوصاف أخرى من النوع نفسه في تقاليد أخـرى، خصوصا التقاليد الإسـلامية. وفي جميع الأحوال، فإن الأمـر يتعلق بنهايـة دورة حيث تنعكس القيـم، فيعرف المجتمع كارثة عظمى قبل أن ينطلق من جديد على قواعد جديدة.

٢٩ - الـدم: مقدس لأنه يحمل الحياة. عندما يفقد إنسـان دمه، فإنه يفقد أولا حيويته ثم يفقد حياته نفسـها. وفي الأضحيات التقليديـة، لا تطلـب الآلهـة سـوى دم الأضاحـي، وليس لحمها

الذي يستعمله الإنسان بعد ذلك. ويشرب نجدو ديوال هذه المادة الحيوية، فإنها تعضد دمها نفسه وتبرز طابعها بوصفها مشعوذة، لأنه يقال بأن المشعوذات «يمصصن دم الشباب كي يَنتعشن».

٣٠ - الظبية: الظبية، وفق علمنا، لا تلعب دورا كبيرا في التقاليد الأفريقية بالسافانا. فهي لا تبدو حيوانا مشهورا للتضحية. لكن علينا أن نشير إلى أن هناك، مع ذلك، قناعا لشعب بامبارا، يحمل اسم سوغونيكون، أي «رأس الطَّرِيدة»، وهو رأس «ظبية». ترمز الظبية في الموروث الفولاني إلى الرشاقة، وبالتماثل، إلى المرأة الجميلة. أن ترى ظبية في الحلم، يفسر على أنه علامة ابتهاج، وأن تراها مع صغارهـا، يؤول على انه فألُ رخاءٍ وازدهار. هناك نوع من الظباء يسمى «الظباء القميئة» (أومر باللغة الفولانية) تستعمل قرونها ورأسها في تهيئة التمائم. وهي تعد مشحونة جدا بنياما، أي القوة الخفية.

٣١ - أن لا يُؤتَاها بضرة: يقول المثل: «من يأتي لامرأة ممتازة بضرة، لن يستطيع أن ينام أو يَقيلَ، وسيعاني من مائة وأحد عشر توعكا، لأن أجداده سيأتون للتنغيص عليه». والخصال الأربع للزوجة الممتازة هي: أن تكون امرأة طيبة، وامرأة جميلة، وأن تكون أما جيدة وامرأة للحب.

٣٢ - أغا نوتيورو: حرفيا «الراعي القارص». ويمكن لهذا أن يعني أنه كان معتادا على قرص الأطفال أو متعلميه. ونوتيورو تعني أيضا «الذي يتطفل بعض الشيء»، الأمر يتعلق إذن برجل كان «يقرص» أو «يأخذ» قليلا من كل المعارف.

٣٣ - تعويذة الفولانيين العظيمة: نفهم من كلمة تعويذة، شيئا

«شُـحِن» بشـكل طقوسي حتى يصبح سندا لقوة ما. يصبح شيء مثـل هـذا أداة أو حامـلا لقوةِ شبحٍ أو إلـهٍ، ليس في ذاته سـوى تجسـيدٍ للقوة الأساسـية التي يتمتع بها الله الأعلى، خالق كل شيء، الأوحد.

يتعلـق الأمر، هنا، كما سـنرى لاحقا، بواحد من الآلهة الثمانية والعشـرين عنـد الفولانيين، والذي تُسـخَّر قوته بهـذه الطريقة وتُسـجَن من طـرف نجدو ديوال خدمة لمشـاريعها الهدامة. ومن حيـث المبدأ، فإن كل إله من آلهة الفولانيين الثمانية والعشـرين (انظـر الهامـش الرقـم ٥٣) يملك سـندا مثل هـذا يَصلُح أيضا للتضحية بالحليب وبالسمن، لأن التضحية نادرا ما تكون دموية عنـد الفولانيـين. جينو وكايـدارا هما الإلهان الوحيـدان اللذان لا يملـكان «تعويذة». وعلى أي حـال، فإن حرق العطور والنباتات يندرج في كل الطقوس.

٣٤ - الجـرادة: تعتبـر، بصفـة عامـة، رمزا للأزمـة والدمار. وهي مقدَّمة هنا بمظهرها الهجين، محققة نوعا من التآلف بين عدة حيوانـات؛ إذ يقال بأن لها رأس فـرس وقرني وعيني غزالة وعنق ثور وصدر تمساح أو عقرب وبطن دودة وجناحي نسر وقوائم زرافة. يرتبط لونها الأخضر بفصل الأمطار ولونها المصفر بالجفاف.

٣٥ - وكر الأَرَضة: يعتبر وكر الأرضة أول بناية مقامة على الأرض. وقد يكون فَنُّ البناء قد لُقِّن للإنسان من قبل الأرضة التي تكون بذلك سيدة البنائين، تماما كما هي العنكبوتُ سيدةَ الحياكة. يعتبـر وكـر الأرضـة بمنزلـة مسـكن للأشـباح. ويصلـح أيضـا، باسـتمرار، مكانا لحفظ الأشـياء الطقوسـية والحلـل الدينية.

يحفـر ضمن وكر أرضة فسـيح، يسـتطيع أن يعيش فيه إنسـان، حفرة توضع فيها هذه الأشـياء. بعد ذلك تقوم الأرضات بالبناء حول ذلك فتصبح هذه الأشياء محمية بشكل جمالي.

٣٦ - الكلـب: لقـد خصصـت المثولوجيا الماندية (نسـبة إلى بلاد ماندي)، كما هو الشأن بالنسبة إلى ميثولوجيات أخرى متعددة فـي العالـم، مكانا مهمـا للكلـب. وبالفعل، فإن الديـك والتيس والكلب تعتبر بمنزلة المرشدة للأرواح المجردة عن الماديات.

ويغـض النظر عن كون التضحية تتـم بالكلب للآلهة التقليدية الستة لماندي (نتومو - وولو وكومو وناما وكونو وتشيوارا وكوري)، فـإن الكلـب يضحى به لـلأرض حتى تكون منتجـة، وحتى تكون أيضا «خفيفة» على أجساد الموتى. وتتم التضحية به أيضا لدفع سوء الطالع في أثناء حالات الكسوف.

وبما أن الكلب يعتبر أليفا للامرئي، فإن جمجمته، مثل جمجمة الإنسـان، تدخل في طقوس التنبؤ. وفي بعض التجمعات المالية والنيجيريـة، يتم اسـتعمال بعض أجزاء جسـد الكلـب - الرأس على وجه الخصوص - في رقصات التَّمَلك.

٣٧ - رمـص عينـي الكلب: يسـتعمل لإثارة أحلام منـذرة. ويقال أيضا بأنه يحسن الرؤية، خصوصا عندما يضاف إليه كحل، وهو نبات من فوائده تقوية النظر والعلاج من الرمد.

٣٨ - فوجـي: iandolphia - owariensis (فوجـي باللغـة الفولانيـة ونزابـان بلغـة بامبارا). هـذه النبتة، التي تنسـب إلى القمـر وليـوم الإثنين، هي عبارة عن عارشـة متسـلقة تسـتغرق زهرتها سنة كي تصبح ثمرة. وعندما نريد أن نستعملها، نحيِّيها

بالعبارة الآتية: «يا وردة هذه السنة، وثمرة ناضجة خلال السنة المقبلة!».

تمثل فوجي - النبتة ذات الفوائد - أيضا الليونة والمرونة، لأنها تقترن بنبتة أخرى بالالتفاف حولها.

٣٩ - رحلة السمك المهاجر: لقد لوحظ المسار نفسه تماما عند السمك المهاجر إلى نهر النيجر.

٤٠ - التمساح ذو الذيل القصير: التماسيح التي فقدت جزءا من ذيلها بسبب حادثة، مشهورة بكونها تماسيح شريرة. ففي بانديا غارا، القرية مسقط رأسي، يوجد تمساح ذيله مقطوع يعيش، مع أمثاله، في جيب مائي من وادي يامي، يسمى «بركة التماسيح». كان هو الوحيد الذي يجرح الحيوانات؛ أما بقية التماسيح فلم تكن تهاجم لا الرجال ولا الأطفال ولا الحيوانات.

٤١ - الباوباب: ليس مصادفة أن تكون هذه الجمجمة الموروثة عن ماضٍ سحيق، والتي ستلعب دورا رئيسيا طوال هذه الحكاية، قد خرجت من ثمرة باوباب، الشجرةِ المقدسة بامتياز، والتي تعد رمز طول العمر والقِدم والحكمة والكرم. وبالفعل، فإنه بالإمكان الاستفادة من كل مكونات شجرة الباوباب، مثلما تتم الاستفادة من كل أجزاء البقر؛ وهذا هو السبب في قولهم بأن شجرة الباوباب هي، بين النباتات، مثل البقرة أو الثور بين الحيوانات.

٤٢ - العنكبوت: نموذج الحياكة (انظر الهامش الرقم ٨٣).

٤٣ - البلشون: طير من نوع مالك الحزين، وهو من الطيور التي يحبها الفولانيون لأنه، بحمله اسم «نقَّار الثور»، يرافق البقر كي يأكل الحشرات الطفيلية الملتصقة بجلده.

٤٤ - طير اللقلق: اللقالق هي التي دلت با - وامندي على طريق ويلي - ويلي، بوصفها طيورا مهاجرة.

٤٥ - التحالف بين الفولانيين والحدادين: يعود هذا التحالف المقدس إلى زمن بويتورينغ ونونفاييري، جدَّيْ الرعاة والحدادين، وفق ما ورد في أسطورة «فيرلو» السنغالية (انظر الهامش ٧٨).

هذا النوع من التحالفات، القائمة بين بعض الإثنيات وبعض القرى وبعض الأقارب (أخت الزوج وأخ الزوج، الجدان والحفدة... إلخ) أنتجَ ما يمكننا أن نسميه «قرابة الفكاهة» (تسمى بلغة بامبارا سنانكونيا، وبلغة الفولانيين ديندىراكو).

٤٦ - الكائن الإنساني - النباتيّ - الحيواني: يجمع هذا الهجين، في ذاته، الملكات الثلاث، مما يستدعي مفهوم الوحدة. هناك اعتقاد في الموروث الفولاني يرى أننا كنا في البداية معدنيين ثم صرنا نباتيين وأخيرا حيوانيين. والنتيجة كانت هي الإنسان. نسمع الفولانيين يقولون، أحيانا: «حصل هذا عندما كنت لاأزال حجرا!». وهذا الكائن الغريب المُتحدَث عنه ههنا هو رمز لتلك الوحدة المفقودة. وهذه فرصة، بالنسبة إلى الملقِّن الحكَّاء، أن يستطرد ويعطي بعض المعلومات حول الملكات الثلاث التي تكون وحدة الحياة.

هذا الكائن ذو الرأس الآدمي - «الأعلى» يوجد إذن في مكانه - يعد كائنا محايدا؛ وهو، على أي حال، ينسحب من دون أن يصيب أحدا بسوء. العناية الربانية هي التي أرسلته كي يخبر با - وامندي بما الذي يوجد خلف البهو. في أثناء حصول كل هذه الأحداث، نلاحظ كيف تقود العناية الربانية، عبر كل

التفاصيل، با - وامندي، شيئا فشيئا، إلى تحقيق هدفه. لا وجود للمصادفة في التقليد الفولاني. ثمة فقط «قوانين تَصَادُف» نجهل إواليتها.

٤٧ - الأفعى: يمكننا أن نقول بأن الأفعى تعد رمزا كبيرا في كل تقاليد الدنيا تقريبا، ابتداء بالتقليد الأفريقي الذي تحتل فيه مكانة مهمة للغاية. وبما أنها ذات طابع مُلغز ومزدوج، فإن رمزها يمكن أن يكون إيجابيا كما يمكنه أن يكون سلبيا، ويكمنه أن يكون سعْدا أو نحسا. يمكنها أن ترمز إلى إله أو إلى شيطان. ونحن نرى في الأساطير أن الإنسان والأفعى يقدمان على أنهما أخوان متكاملان تماما، يكادان يكونان أخوين، أو يقدمان على أنهما عدوان لدودان. الأفعى في الأساطير، تبدو حاضرة منذ بداية عملية الخلق، والرجل خلفها. فهي ذات صلة بالاهتزازة الأولى التي أحدثها الله الخالق الأعظم. هي تأخذ في الرسومات الصخرية، باستمرار، شكل خط متموج منكمش على نفسه، ومتكسر أحيانا.

التقليد الفولاني - الماندي يعطي للأفعى أوجها رمزية مختلفة ويطلق عليها، كل مرة، اسما خاصا. في الموروث الماندي، تعتبر الأصلة (أفعى كبيرة غير سامة تعيش في المناطق الحارة - مترجم) المسماة نينكي - نانكان، هي حافرة مجاري المياه التي شكلت نهر دجوليبا بالنيجر. وفي موروث بامبارا - مالينكي بكومو وكوري، ترمز الأفعى إلى اللانهائي وإلى الأفق الذي يستحيل إدراكه. وهي تدعى أحيانا «حزام الأرض»، وترمز أيضا إلى البرق، أي السرعة. والذين يقرأون الآثار يؤولون العلامات

التي تتركها على الرمال بعد أن تعبرها ملتفة. ويعتبر قوس قزح، من جهة أخرى، بمنزلة أفعى سماوية متعددة الألوان تبتلع ماء المطر؛ فتصبح نتيجة ذلك، رمزا للشؤم الذي ينشر الجفاف. قادت الأفعى تيانابا - التي تعتبر عند الفولانيين مالكةَ الأبقار باسم جينو - القطعان في رحلة طويلة، من الغرب إلى الشرق؛ والموروث يذكر الأماكن التي تم التخييم فيها. وقد اعتُبر أحد الأجداد الرعاة الفولانيين، واسمه إيلو، بمنزلة أخيها التوأم، فورث جزءا من حيواناتها. وفي بلد بينين، تقام شعائر خاصة للأصلات المقدسة، وخصوصا لتلك المحتَفَظ بها في معبد أبومي.

ونعثر في موروث سونيكي على بيدا، الأفعوان الضخم الذي يقطن البئر العجيبة لواغادو، والذي يحض على أن تتم التضحية له كل سنة (أو كل سبع سنوات وفق بعض الروايات) بفتاة شابة عذراء تختارها لجنة من الحكماء. وكمقابل لهذه التضحية البشرية، يقوم بيدا، بوصفه إلها، سيد المعادن ومُشَكِّلها، بضمان غنى واغادو بالذهب. وقد أدت وفاة بيدا، وفق الأسطورة، إلى دمار إمبراطورية واغادو.

وعلى العموم، فإن للأفعى، في الأساطير الأفريقية، باستمرار، «شحنة» مقدسة إيجابية للغاية، خصوصا عندما تكون مقترنة بمفهوم الخصوبة. وهي تقترن أيضا بمفهوم «الدورة» والتجدد بسبب استبدالها لجلدها. ويحوي رأسها كل قواها الخفية. وفي الحكاية الحالية فإن الأفعى الضخمة للغاية تصبح طائرة؛ مما يعني تغيرا في الخط وإغناء. وأن يكون با - وامندي قد

امتطاهـا، فـإن ذلك يعني أنه سـيد القوى التـي تمثلها الأفعى. كثيـرا ما نعثـر، في الأسـاطير الأفريقية، على أفـاع طائرة، مما يسـتدعي مقارنتهـا بالتنين الطائر في تقاليد الشـرق الأقصى، والتي كثيرا ما تكون حارسة لـ «الكنوز الخفية».

٤٨ - الجبـل: الجبـل، فـي الأسـاطير، يمثـل الحـد بـين عالمـين، الحاجـز غيـر القابل للاختـراق إلا من قبل المتعلِّم وفي شـروط معينـة. الجبل يمثل الحد بين العالم المحدود للمعرفة البشـرية والعالم الذي لا حدود له للمعارف الربانية، والذي لا يسـتطيع ولوجـه إلا نخبة منتقاة. وهو يرمـز، من جهة أخرى، إلى التعلُّم ذاته: الصعوبة والمحنة وعائق الاختراق. وهو أيضا رمز للحماية. فـي كل الأديـان نعثر على رمزيـة للجبل المقدس. فبفعل شـكله العمـودي، يعتبـر أنه السـبيل التي تؤدي إلى السـماء أو تسـمح بإقامـة اتصـال معهـا. وتعتبر قمته المـكان الأمثـل للتمظهرات أو الاتصـالات الربانية (جبل سـيناء وجبـل الزيتون وجبل حراء حيـت تلقى النبـي محمد أول الوحـي القرآني... إلـخ). وتعرف في مالي، من بين جبال مقدسـة متعـددة، قمتا كوليكورو اللتان تحملان اسـم نيانانكولو (المنتسـبتان إلى الإله نيانان) وتماكولو فـي منطقـة كاييس، كما نعثر على الجبل سـونغو غير بعيد عن بانداياغارا... إلخ.

فـي التقليـد الفولاني، كل قمـة جبلية تمثل رمحا نشـبه جينو في الأرض في مناسـبة معينة. وفي مجمل الموروث الماندينـي، فإن الجبل والمغارات - التي تعتر بمنزلة أبهَاءٍ - تُؤْوي أشباحا. تسكن القمَمَ أشـباحٌ بيضاء (خيِّرة)، في حين تقطن الأشـباح السوداء،

مالكةُ القوى الشريرة، المغارات والهاويات حيث تلتجئ المشعوذات والسحرة. سنرى لاحقا بان نجدو ديوال، عندما ستهدم بلدتها، ستلتجئ إلى مغارة.

المعرفة مثل جبل يُفترض أن نقوم بتسلقه مواجهين لعدد من العوائق والمحن. العقبان الضخمة، رمز التلقين الأفريقي، تبني أعشاشها في قمم الهضاب أو الجبال، في أماكن لا يستطيع أحد الوصول إليها. ولهذا السبب يعتبر شبه مستحيل رؤية صغار العقاب. يُقال في الموروث: «يجب بذل الجهد لإدراك المعرفة؛ تلك المعرفة التي تعد أندر من كتاكيت العقاب». وفي هذه الحكاية ينتصب «الجبل الحد» في شكل دائري ويحيط بمحيط عظيم يُحظر ولوجه.

في الإسلام أيضا، نعرف «الجبل قاف» الخفي الذي يستحيل على الناس العاديين أن يدركوه، وهو يحيط بالأرض ويفصلها عن عوالم أكثر دقة.

٤٩ - وزغة: نوعة من العظاية، تحمل أصابعها وأرجلها صفيحات. وتعرف الوزغة، في الحكايات، بقدرتها على ولوج النار. وهي مرتبطة بها رمزيا.

٥٠ - رابطة الدم ورابطة الحليب: رابطة الدم لها علاقة بالأب: الإخوة والأخوات المتحدرون من الأب نفسه، والأعمام والعمات والأحفاد وأبناء العم من جانب الأب... إلخ. أما رابطة الحليب، فتتصل بالأم.

العهد الأبوي، الذي يُقام بين المرتبطين دمويا، يتصل بقضية الشرف. وهو رابطة ثروة ومجد. فالمرتبطون دمويا، يمكنهم، في

لحظة غضب شديد، أن يتمنوا الموت جماعة، لكنهم لا يقبلون البتة العار أو فقد الشرف، لأنهم سيعرون بذلك. والشيء نفسه بالنسبة إلى الثروة، لأن الإرث، عند الفولانيين، يحصل عليه الأقارب من الأب. أما العهد الأمومي، من جهته، فيؤدي إلى رابطة حب وعطف. فعندما نؤدي خدمة إلى ابن خالة، فإننا نقوم بذلك من دون أن يكون لنا أمل في جزاء أو تعويض، مادمنا لن نرث منه، في حين أننا نرث من ابن العم. ثمة إذن تعويض من جانب العلاقات الدموية، وهو ما لا يحصل في جانب رابطة الحليب. والمثل يقول: «نموت بشكل نهائي بالنسبة إلى ابن الخالة، لكننا لا نموت كلية بالنسبة إلى ابن العم» (مادام بإمكانه الاستفادة من موتنا).

٥١ - السماوات السبع والأراضي السبع: يقال في التقليد الفولاني، كما في الموروث الإسلامي، بأن هناك سبع سماوات طباقا وسبع أراض تتراكب في العمق. للسماوات السبع علاقة بالشموس السبع الواردة في الموروث التلقيني الفولاني (انظر كومين). ومن بين الأراضي السبع، وحدها الأرض (المتأملة للنجوم) تعتبر زوجة للسماء (السماء بالفرنسية اسم مذكر - مترجم)، أما بقية الأراضي فتتعاقب في عمق خفي غير مرئي.

٥٢ - القمر، مالك أسرار الماء والنار والريح: نحن نعرف العلاقة التقليدية بين القمر والماء والمرأة والنباتات. والقصد بالنار هنا هو الدفء. فالقمر يؤثر، بالفعل، على حركات الرياح؛ والحال أن الرياح تأتي إما بالمطر وإما بالحرارة الشديدة؛ ومن ثمة علاقتهما بالعنصر (نار).

٥٣ - الآلهة الثمانية والعشرون للفولانيين الرعاة: في المشهد الديني الفولاني هناك ثمانية وعشرون إلها أو شبحا حارسا، مقترنة بمنازل القمر الثماني والعشرين، ومقاطع السنة الثمانية والعشرين المسبوقة بالنجوم الثمانية والعشرين الكبرى (انظر الهامش ٨٧). الآلهة الاثنتا عشر الأولى (الأهم) تدير الشهور القمرية الاثنيْ عشر؛ وتدير الستة عشر المتبقية منازلَ ضرب الرمل الستة عشر. الآلهة، بالنسبة إلى الفولانيين، ليست سوى مساعدات لجينو. الآلهة هي، بمعنى من المعاني، مظاهر خاصة للقوة العظمى الأساس الصادرة عن الإله الأسمى. تُعلمنا الحكاية أن قوة، فيّ ذاتها، ليست لا جيدة ولا سيئة، وأن بإمكانها أن تكون في خدمة الخير كما يمكنها أن تكون في خدمة الشر، وفق طريقة استعمالها؛ هي مثل الماء الذي لا شكل له ولا لون، إلا ما نضفيه عليه نحن.

إن تجسد هذه القوى الخاصة، أو الآلهة، في الكائن أو في الشيء الذي يصير سندها (الرقية مثلا أو القناع) يحصل وفق أشكال تشكل القاعدة نفسها لسرٍّ مجموعة التلقين.

٥٤ - القلب والمخ: يَتعبر الموروثُ الثقافي الإنسانَ جسما صغيرا، يُعتَقَد أنه يحوي في ذاته قوى الكون؛ وهي قوى مجسدة بطريقة مخصوصة في بعض أعضائه (انظر الهامش ٤ حول الجمجمة). يقع الحب والشجاعة في القلب والذكاء في الذهن.

٥٥ - التبخير بدخان الشعَر المحترق: يعتبر التبخير طريقة للتطهير. سيلج هنا الدخان الناتج عن الشعر المطبوع بكل القوى الخيِّرة المتجسدة في با - وامندي والتي جعلت منه أحسن رجل

في زمانه، رحمَ زوجته كي يهيئه قبل أن يستقبل نطفة الأطفال الذين ستلدهم.

٥٦ - جاييل - فالو، جذع المنطقة الخصيبة: وهو اسم مبارك. فالثور يعد، بالفعل، رمزا للقوة (هنا قوة الفتوة)، بينما تعد المنطقة الخصيبة، رمز الثراء والرفاهية، مادامت تربتها العضوية مشكلة من كل العناصر التي جمعها النهر في أثناء جريانه.

٥٧ - الأبناء السبعة الأوائل: يسمي الفولانيون أبناءهم - إلى جانب اسم دنيوي، عادة ما يكون اسم جد - وفق النظام الآتي: حمادي اسم أول ابن ويخصص للإله حام؛ ثم سامبا، وهو اسم الابن الثاني، ويخصص للإله سام؛ ثم ديمبا، اسم الابن الثالث المخصص لديم، فييرو اسم الابن الرابع المخصص لبير؛ وباتي، اسم الابن الخامس المخصص لبات، فنجوبو اسم الابن السادس المخصص لنجوب، وأخيرا ديلو اسم الابن السابع المخصص للإله ديل («حام - باتي، إذن، هو الابن الأول المولود لـ ابن خامس»). ويوجد نظام مماثل لتسمية الأبناء الخمسة الأوائل.

٥٨ - شجرة باوباب وشجرة كايلسيدرا وشجرة جبن في شكل مثلث: هذه الأشجار الثلاث ذات الدلالة الرمزية العالية، ليست هنا، بالتأكيد، عبثا، لأن لكل شيء دلالة في هذه الرحلة. ولنسجل أن أول ما وجده الإخوة السبعة من أكل رباني، وجدوه تحت هذه الشجرات. الثالوث، خصوصا الموضوع على شكل مثلث، مشحون بالدلالة في التقليد الفولاني (انظر أحجار الموقد الثلاثة (الأثافي) في حكاية كايدار). والثالوث، في سيرورة الخلق، يمثل عنصرين يمتزجان لينتجا عنصرا ثالثا: مثل التقاء الأب

والأم في الطفل. يمثل الثالوث رمز المبدأ الفاعل والمبدأ السلبي والنتيجة المحصلة من اجتماعهما.

الباوياب: انظر الهامشين ٢٣ و٤١.

الكايلسيدرا: تستعمل قشرة هذه الشجرة، شديدة المرارة، في تطهير الإنسان، كما أنها تستعمل لحماية الإنشاء من الشؤم والتأثيرات السيئة. وتعد هذه الشجرة، بالفعل، شجرة مدارس تلقين بامبارا في كل من كوري وكومو. وأنشودة كومو تشير إلى (الديالا (الكايسيدرا) المرة التي توجد خلف الوادي، وتلك التي توجد خلف البحيرة). الوادي والبحيرة يرمزان هنا إلى المحن التي يجب اجتيازها لتحصيل المعرفة؛ تلك المعرفة التي يكون الحصول عليها أمرٌ من إغلاء قشرة الديالا.

شجرة الجبن: اتخذ (العجوز الضئيل ذو العمود الفقري المشوه)، في حكاية كايدارا، شجرة الجبن ملجأ له. وهو العجوز الذي يمثل تجسيدا لكايدارا نفسه، إله الذهب والمعرفة. ومن ثمة، يقرن الفولانيون رمزية شجرة الجبن برمزية الألوهية الأسمى. والباوياب والكايسيدرا والجبن، شجرات تُتَجاذَب تحتها أطراف الحديث، كما تقدم حصص تعليمية.

٥٩ - «جدتك... زوجتك»: من المعتاد أن تعتبر امرأة عجوز، بشكل آلي، جدة لطفل صغير، إن وجدا في المنزل نفسه، أو إن كانت بين آبائهما علاقة قرابة أو علاقات صداقة أو جوار. يعتبر الحفيد في الموروث الأفريقي لِبَافُور، بمنزلة «الزوج الصغير» لجدته، وبمنزلة الغريم لجده. وتعتبر الحفيدة، في المقابل، بمنزلة «الزوجة الصغيرة» لجدها وبمنزلة الغريمة لجدتها. ويعتبر هذا

التقليد مصدرا غنيا للمُزَح اللطيفة داخل الأسر. وهي شكل من أشكال قرابة التفَكُّه (التي توجد أيضا بين فئات اجتماعية أو إثنية أخرى). (انظر الهامش ٤٥).

٦٠ - الضبعة: تعتبر بمنزلة سيدة الرقيات. فحيثما وجد رقص للتملك (هول عند السونجاي) تكون هي سيدة العارفين بهذا الطقس.

ودياترو هي ضبعة أسطورية سوداء، ولدت من مَلِك الذهب الأسود. وبالفعل، ففي الموروث الأفريقي، ثمة ثلاثة أنواع من الذهب: الذهب الأسود، وهو غير مرئي، ثم الذهب الأصفر والذهب الأبيض. وبما أن دياترو مشعوذة عظمى، فإنها تعتبر منذ ولادتها، بمنزلة ملكة كل القرود الصائحة وكل الضواري (انظر أيضا أمكولل. ص ٣٢٦ - مجموعة بابل ص ٤٢١).

يتم البحث دائما على طرف منخر الضبعة ودماغها وجلدها، كي تستعمل في الرقيات والتمائم. والطيور والضباع هي الحيوانات الأكثر قدرة على التكهن. ويتم تأويل صيحاتها مثلما يتم تأويل صيحات الترِغَلة.

٦١ - العقاب: للعقاب، في الموروث الأفريقي دلالة عظمى. فله رمزية متعددة: بما أنه يبني عشه، في الغالب، على قمم لا يستطيع أن يصل إليها أحد، وحيث لا يمكن لأحد أن يرى صغاره، فهو يعد رمز المعرفة نفسها، أي المعرفة التي يصعب الحصول عليها. وبما أنه يعيش لمدة طويلة، فهو رمز للقدم. وبهذا المعنى، يكون «العقاب الجد» عضوا في مجلس الباوباب (انظر الهامش ٢٣).

٦٢ - القرد: يعتبر القرد أيضا بمنزلة «مشعوذ» أو حيوان يتمتع بقوى خفية لأنه نوع من الانتقال بين الحيوان والإنسان، فهو بمنزلة بهو يجمع بين مسكنين. والحال أن الكائنات المزدوجة تعتبر دائما «مشحونة» للغاية.

٦٣ - أنت يا جني إيطي - إيطي: نعثر على العناصر القاعدية لهذه التعزيمة في كومين (ص ٨٩). وهي أطول تعزيمة تلفظ بها سيلي ساديو لاجتياز آخر حاجز (الأسد غومباو) قبل أن يصبح معلما كبيرا وأن يعرف «الاسم الخفي للبقر».

٦٤ - مي هيلي يويو، مي هيلي: هذه هي الصرخة التي يطلقها الفولانيون (مع تمديد الصوت يو...). عندما يكونون في ضيق، تَذَكُّرا للبلد الأصلي (مي «أنا» هيلي يويو) تعني (أنا «من» هيلي ويويو)، التي تعني: «أريد أن أعود ما كنته زمن السعادة بهيلي ويويو».

لم نعد اليوم نسمع هذا إلا على منعطف النيجر. وتجب الإشارة، على أي حال، إلى أن التَشَكِّي في الزمن الماضي، الذي غالبا ما كان بمنزلة قصائد شعرية مرتجلة، كاد يضيع.

٦٥ - السلسلة: توجد لدى الفولانيين سلسلة معرفة تمتد إلى دونداري (القدير). وقد جرت العادة أن يتم في أثناء الدعاء (في الموروث الأفريقي كما عند الباطنية في الإسلام) ذكر سلسلة المعرفة التي نرتبط بها.

٦٦ - نجيلوكي، سفاطو: يتم إحراق أوراق نجيلوكي تحت بطن الحيوانات عندما تكون في الحظيرة. ويقال بأن لهذا التبخير فوائد حمائية. وعندما نضع غُصَيْنا صغيرا من نجيلوكي خلف

الأذن عندما نخرج من البيت أو عندما نظل فيه، فإن ذلك يكون بمنزلة احتماء ضد الصاعقة. ويُعتَقد أن نجيلوكي ودوكي تعتبران نبتتين تستطيعان مقاومة الموت، والانتصار عليه أحيانا. وتنتمي نجيلوكي والسفاطو إلى النباتات الطبية، كما أنهما تستعملان في التنجيم، ومن ثمة استعمالهما في هذا الفصل من الحكاية.

٦٧ - الخفافيش: يعتبر موروث بلاد ماندي الخفاش ملتقى للتناقضات: هو مثل الطير يملك جناحين، ومثله أيضا يضع بيضا، لكنه يرضع مثل الثدييات؛ ويرى ليلا ويَعْمى نهارا؛ وينام أو يستريح معلقا من رجليه، رأسه إلى الأسفل. وتختلف تأويلاته من منطقة إلى أخرى، ووفق موروث كل جهة. فهو، بالنسبة إلى البعض، حيوان ملوث، يُقرن بالمشعوذين بوصفه مصاص دماء؛ وبالنسبة إلى آخرين، يدخل جسده في إعداد المادة التي تطيل الحياة وتمكن من السعادة. ويستعمل مخ الخفاش، في بعض التقاليد، من أجل إعداد مكونات يُعتقَد أنها توفر ذكاء حادا وذاكرة قوية للأطفال وللمواليد الجدد. وغالبا ما يعتبر الخفاش بمنزلة حيوان قَبْرِي لأنه يعيش في المغارات ويعشش في أغصان أشجار كبيرة نابتة وسط المقابر أو أماكن كئيبة.

أما عند الفولانيين، فإن رمزية الخفاش مزدوجة: فهو، بالمعنى النهاري (الإيجابي)، يرمز إلى حدة البصر التي تسمح بالنظر حتى وسط العتمة؛ أما بالمعنى الليلي (السلبي)، فإنه يرمز إلى الغرابة والشذوذ وإلى الغباء الذي يؤدي إلى فعل كل شيء بالمقلوب. وهو أيضا رمز للنتانة وللدمامة بالمعنى المادي. أقل ما

يمكننا أن نقوله عن الخفاش هو إن رمزيته متعددة. فهو مثل المشعوذين الكبار أو كبار الزهاد، لا يظهر إلا ليلا. وينصح بعض مفسري الأحلام بألا نأخذ أي شيء مأخذ جد بعد ليلة نرى فيها في حلم خفاشا.

لم ترفض الخفافيش هنا تقديم العون إلى نجدو ديوال، لأنها لا تنتمي إلى فئة الحيوانات التي انفصلت عن جدو: القرود والعقبان والضباع (انظر كايدارا أيضا).

٦٨ - آجا: راع أسطوري من الموروث الفولاني لِفيرْلُو. وهو أحد الأوائل الذين باح لهم كومين بأسرار الحياة الرعوية، في الوقت الذي باحت فيه فوروفوراندو، زوجته، بـ «أسرار الحليب» لِعَادِيَة، زوجة آجا. هذا إضافة إلى أن اسم «آجا» يطلق على الراعي المتعلم؛ فهو يعني، بمعنى من المعاني، «العارف بالدغل»، لأن الراعي يوجد باستمرار مع الحيوانات. ومن المفروض أن يقدم نصائح، لأن له تجارب في الحياة.

٦٩ - قصيدة «قال لك آجا»: هذه القصيدة مجتزأة من القصيدة العظيمة التقليدية «لوتوري» (الحمَّام المقدس) التي تنشد بمناسبة حلول السنة الجديدة (توجد بالملحق في آخر التماعة النجم الأعظم).

٧٠ - إرقاص الفرس عند رؤية امرأة، هو من بين التقاليد الفولانية. فمن المعتاد أن الفارس الفولاني عندما يلتقي بامرأة، يقوم فرسه بالانحناء وبالجثو، كي يحييها. وهنا، برغم أن الوقت ليلٌ وأن النساء لن يستطعن رؤيتهم، قام الإخوة السبعة بإرقاص جيادهم تشريفا لهن، كما تنص التقاليد على ذلك.

٧١ - شجرة العناب المقدسة: «نْدَابِي». وهي تعني حرفيا (حيث وضعت «نبتة الساق»). تنفلت شجرة العناب المقدسة لهيلي ويويو من سطوة الزمن. وكل مراحل الحياة ممثلة فيها. فهي تحمل، في الآن نفسه، البراعم والزهور والثمار. وعلى الرغم من أنها نابتة في عالم يَتّبع قانون نجدو ديوال (الجفاف)، فإنها لا تتأثر به لأن أصولها من عالم آخر. فهي بمنزلة فاصل أو حد بين عالمين. وبالنسبة إلى الإسلام، فإن العناب شجرة من أشجار الجنة. وبما أنها تتموقع في حد السماء السابعة، فإنها تسمى «شجرة عناب الحد». وبعدها يوجد العالم الرباني الصرف. وتعتبر فاكهة العناب إحدى المواد الغذائية الأساسية بالنسبة إلى الصوفية الذين ينعزلون في الأدغال.

تلعب شجرة العناب، في الحكاية التلقينية كومين، دورا مهما للغاية. ففقط عندما يصل سيلي ساديو إلى الفرجة الثانية عشرة، التي تعتبر آخر مرحلة من تعلُّمه، تقدم له فوروفوروندو، زوجة كومين، ثمرات (شجرة عناب المنزل) كي يأكلها. عقب ذلك يؤكد لها أنه ما عاد الآن يخشى شيئا على الطريق، لأن فوروفوروندو «لا تقدم ثمرات شجرة العناب إلا لأصدقائها». وعندما سيشرب سيدي ساديو من حليب البقرة الخنثى الأصلية، ويأكل من «ثمرات عناب المنزل» سيصيح: «الآن وقد شربت الحليب بعد أن أكلت ثمرات العناب، اكتسبت أهليَّتي! لن تكون أي عقدةٍ غريبة علي! لن يكون أي انبعاث خطرا علي. سأعرف كل شيء بتلقائية، كما يعرف الوليد الجديد الرضاعة من خلال أولى حركات شفتيه». شجرة العناب، إذن، هي رمز

قمة التعلم، قمة المعارف الممكنة، التي ليس بعدها سوى المعرفة الإلهية. والفولانيون ينصحون بوضع ورقات شجرة العناب في فم الميت كما في قبره.

وفي هذا الفصل، فإن الرمزية غنية للغاية، لأن باغوماويل، كي يستعد لتلقي الإلهام، لم يكتف بأكل ثمرات العناب المقدسة، بل شرب أيضا من العين الجارية تحت الشجرة: وهو رمز آخر للحياة، كثيرا ما يقترن بالحياة الأبدية.

٧٢ - كومين: إذا كانت تياناب، الأصَلَة الأسطورية، هي «مالكة» الأبقار، باسم جينو، فإن كومين هو مساعدها وراعيها وكاتم أسرارها المتعلقة بالتلقين الرعوي. فهو قد كُلِّف من قبل جينو بالسهر على الأرض والمراعي والحيوانات آكلة النباتات، المتوحشة منها والداجنة. فهو بإمكانه أن يأخذ كل الأشكال التي يريدها: بإمكانه أن يظهر للناس في شكل طفل ذي ثلاثة أو سبعة أو تسعة أعوام، من دون أن يتجاوز أبدا الحادية عشرة. كما أن بإمكانه أن تكون له لحية رجل عجوز. يفصل كتاب كومين القول في تلقين سيدي ساديو، الذي يعد من بين المعلمين الكبار الأوائل بفيرلو. كان سيدي ساديو يبحث عن «بقرته التائهة»، وهي رمز للمعرفة. وفي أثناء بحثه عنها سمع صوت كومين فالتقى به وتلقى عنه تعليمه.

٧٣ - النحلة: تعتبر رمزية النحلة، في كل الموروثات، ذات شأن روحي سام. إنها رمزية شمسية وإمبراطورية. يقول المصريون القدامى بأن النحلة قد تكون خلقت من دمعات «را»، إله الشمس، الذي سقط على الأرض. فهي دائما مرتبطة بمفهوميْ الحكمة وخلود

الروح. وقد سميت إحدى سور القرآن باسمها، وخُصَّت بعدد من آياتها (سورة النحل، الآيتان ٦٨ و٦٩). والموروث الإسلامي يجعل من العسل الرمز الروحي لغذاء النساك. وهي ترمز، فضلا عن ذلك، إلى المعرفة الصوفية التي تقود إلى الكشف.

ويعد العسل، في أفريقيا، بمنزلة السائل الأسمى المبارك، كما يعد تركيبا لنُسْغ كل النباتات. وهو أيضا يدخل في مكونات نبيذ العسل الذي كان في البداية نبيذا للتضحية قبل أن يصبح نبيذا للمتعة. ويقارَنُ مَسَار تحول العسل بمسار تحول الروح في تقدمها نحو الله. تعتبر كل زهرة بمنزلة سيِّد وتعتبر اللّقاحات التي تنتجها بمنزلة الدروس التي تسمح للروح «المُرَّة» بأن تصبح تدريجيا لطيفة وغنية مثل العسل. وغالبا ما ترمز النحلة إلى المُلَقِّن والمعلم والحكيم.

٧٤ - قل للضفدعة: مُرِ الملكة النحلة...: جرت العادة، في أفريقيا، أن نمر دائما عبر وسيط كي نقدم لشخص شكرا أو تظلما أو طلبا، أو ببساطة، كي نعرض قضية. وهذه العادة الاجتماعية هي انعكاس للتراتبية العلوية، ذلك أننا نمر دائما عبر وسطاء (آلهة أو أجداد) كي نوجه طلبا لجينو (أو مانغلا). وفي المقابل، فإن الرب الأسمى، في المناسبات، يذكر دائما في البداية: «سأقوم بهذا إن أراد جينو... ».

٧٥ - القوى الأساسية الإحدى عشرة: وهي: الحجر والحديد والنار والماء والهواء والإنسان والسُّكْر والنوم والهموم والموت والانبعاث. ولكل من هذه القوى إمكانية تحطيم القوة التي انبثقت عنها أو الانتصار عليها: الحجر يحطمه الحديد؛ والنار

يطفئها الماء؛ والماء تُيْبِسه الريح؛ والإنسان يمكنه أن ينتصر على الريح (هو الوحيد الذي يستطيع أن يمشي ضد اتجاه الريح، أما الحيوانات فلا تستطيع)؛ والسكر يقضي على الإنسان؛ والنوم ينتصر على السكر؛ الهموم تذهب النوم؛ والموت بدوره يقتل النوم، أما الانبعاث (الحياة الآخرة) فيقضي على الموت.

وتعتبر هذه القوى كلها من مكونات الإنسان؛ فهذا الأخير يحتل، كما سنرى، موقعا وسطا بين خمس قوى مادية وخمس قوى غير مادية.

٧٦ - الجني الوصي: أو الجني الحارس: فكما أن للقطيع عفاريت تحرسه (أو عفاريت أوصياء، أو آلهة صغيرة)، فإن لكل معدن أيضا عفاريت تحرسه. وبالفعل، فإن كل شيء ظاهر تربطه علاقة بقوة غير مرئية لها سلطة عليه، والتي يجب الالتجاء إليها إن شئنا استعمالها.

٧٧ - سيد الحديد: الحدادون، في المجتمع الأفريقي هم «سادة الحديد»، أي أنهم مالكو أسرار استعمال الحديد، سواء على المستوى العملي أو الخفي؛ لكن لهم زعيما، يعد هو السيد الحقيقي للحديد.

٧٨ - العقد الأصلي المبرم بين بويتورينغ ونونفاييري: لقد نُقلت إليَّ هذه الأسطورة المنتشرة بين صفوف الفولانيين السنغاليين، سنة ١٩٤٣، من طرف معلمين من بينهم المعلم الكبير آردو ديمبو، الذي ينتمي إلى نديا (مقاطعة موجير، دائرة لينجير، بالسنغال)، ومولو غاولو، من طائفة غاولو السنغالية، المختص هو أيضا في تاريخ الفولانيين. هذه الحكاية منتشرة أيضا بين

الفولانيين الماليين. وفي فيرلو، يعرفون اسم بويتورينغ، لكنهم لا يعرفون اسم نونفاييري الذي يسمونه «جد الحدادين». وفي مالي، يعرفون اسم نونفاييري، ولا يعرفون اسم بويتورينغ، الذي يسمونه «جد الفولانيين».

وهذا ملخص لتلك الأسطورة:

كان بويتورينغ، جد الفولانيين، يشتغل على الحديد. وعندما اكتشف المناجم التي تملكها عفاريت الملك سليمان، بدأ يذهب ليسرق كل يوم حديدا منها. وذات يوم فاجأته العفاريت فاضطر إلى الفرار. وفي أثناء فراره، وصل قرب عش أرضة يقع في حظيرة بقر. وبما أنها كانت تتشكل من مغارة كبيرة، فقد اختفى فيها.

كانت هذه الحظيرة في ملكية راعٍ اسمه نونفاييري. مساء، عندما عاد الراعي بدوابه، عثر على بويتورينغ مختبئا في عش الأرضة. اعترف له هذا الأخير بجريمته وأخبره بأن العفاريت تسعى إلى قتله. وكي يحميه نونفاييري، جعل دوابه تنام حول عش الأرضة. عندما أقبلت العفاريت، قال لها: «هذا المكان في ملكي، ولا علاقة لي بالحديد». فضُللت العفاريت ونجا بويتورينغ.

في الغد، طلب نونفاييري لبويتورينغ الا يخرج من عش الأرضة. قاد حيواناته إلى المرعى حيث قضى اليوم بطوله. مساء، عندما حلب حيواناته، قدم لبويتورينغ حليبا شربه. ظل بويتورينغ مختبئا طيلة سبعة أيام، وهو الوقت الذي مكنه من أن يتأكد من أنه لم يعد مطاردا من قبل العفاريت.

خلال اليوم السابع، قال بويتورينغ لـ نونفاييري: «أريد أن أعلمك طريقة الاشتغال على المعادن». فعلمه أسرار الاشتغال على

الحديد. ثم قال: «علمني أنت تربية المواشي»، فأجاب نونفاييري: «ليحصل ذلك، يجب أن أبقى أنا في العش وأن تذهب أنت مع الحيوانات». ثم علمه ما عليه القيام به.

مرت أيام على هذه الشاكلة. تعلم بويتورينغ رعي القطيع وحلب البقرات. وأصبح يعرف كيف يكلم الحيوانات، فتعلقت به. أما نونفاييري، من جهته، فقد استمتع بالاشتغال على الحديد. وذات يوم قال نونفاييري: «هذا ما سنقوم به؛ ستصبح أنت ما كنته أنا، وأنا سأصبح ما كنته أنت. سيتم التحالف بيننا. لن تصيبني أبدا بسوء وستحميني، وأنا لن أصيبك أبدا بسوء وسأحميك. وسننقل هذا التحالف إلى نسلنا». فأضاف نونفاييري: «سنمزج حبنا، لكننا لن نمزج دمنا».

هذا هو السبب في منع الزواج بين الفولانيين والحدادين. وليس لهذا المنع سوى استثناء واحد: عندما يصبح الفولاني ملكا، يمكنه أن يقترن بحدادة، وسيكون حضورها إلى جانبه معتبرا على أنه حماية. ونحن نجهل، على أي حال، متى تم إدراج هذا الاستثناء.

وأستغل هذه الإشارة كي أذكر بأن منع الزواج هذا ليس له، بصفة عامة، أي علاقة (في الأصل على أي حال) بمفهوميْ التفوق أو الدونية في الطائفة أو العرق. إن الأمر يتعلق، إما باحترام تحالفات قديمة تقليدية (كما هو الأمر هنا)، وإما بعدم امتزاج (قوى) يجب ألا تمتزج. كانت للطوائف الحرفية (نياماكالا)، بالفعل، سبل في التعلم مخصوصة، تعتبر على أنها حاملة

لـ نياما (أو القوة الخفية). كانت هذه الطوائف تتزوج فيما بينها حتى تحتفظ عندها بأسرار معرفتها وتتجنب (المزج بين القوى) الذي يمكنه أن يكون مشؤوما. وآمل أن أستطيع يوما التفصيل في هذا الموضوع في كتاب خاص. لنقتصر هنا على التذكير بالمثل: (النبيل «أورون» هو الذي خلق الأسير، لكن الله «مانغالا - جينو» هو الذي خلق نياماكالا «الحرفي»).
تثير هذه الأسطورة، كما أثار وصف هيلي ويويو، كثيرا من الأسئلة التي تبقى بلا جواب. إنه لَمِنَ الغريب، بالفعل، أن نرى جدا للفولانيين يُقَدَّم على أنه شخص يشتغل على الحديد وليس راعيا من الرُّحل. لكن، وكما قلنا في الهامش الرقم ١، كان ثمة زمن، ببلاد ماندي، عاشت خلاله الإثنيات في تناغم، وامتزجت بعض أساطير بلاد ماندي بأساطير الفولانيين، إلى درجة أصبح معها، اليوم، من الصعب التمييز بين ما ينتمي منها إلى هذا الطرف أو ذاك. ويبدو أن هذه الأسطورة تدخل في هذه الفئة. بالنسبة إلى بامبارا (موروث ماندي)، كان أول رجل (أول ابن للأرض) حدادا. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأسطورة تشهد على تحالف قديم يبدو أنه كان في أصل رابطة القرابة الفكِهَة، التي تجمع بين الفولانيين والحدادين (انظر الهامش الرقم ٤٥).

ففي الفيرلو السنغالية، يعتبر كل الفولانيين الحمر (الرعاة) بمنزلة نسلٍ لثمانية من أبناء بويتورينغ. ووادي بوكول المذكور في الأسطورة هو مكان أسطوري، غير أن واديا يحمل الاسم نفسه يوجد بالسنغال.

٧٩ - «وبحق سر السمن والحليب»: يقسم الفولانيون، في الموروث الرعوي، بالسمن والحليب، المادتين المقدستين. ينتج عن الحليب - رمز المادة الأصلية، والسائل المغذي بامتياز، ورمز الطهارة بسبب بياضه - السمنُ الذي من المفروض أنه يحوي في ذاته القوى الحيوية الأساس. وبذلك تعتبر القوى الكونية الخيِّرة، استعاريا، على أنها سمن سائل يجري من ثديي جينو الرحيمين. ويعتبر السمن والزيت، في العديد من التقاليد، عنصرين مفضلين للقربان أو للدهن. تقول فوروفوروندو، آلهة الحليب، زوجة كومين، لمريدها سيلي ساديو: «استعمل يد قلبك (اليد اليسرى) كي تقذف كُوَيْرَةَ السمن في موقد جينو وسترى النار تصعد إلى الأعلى: آنذاك رتل دعاء موجها للخالق».

٨٠ - العام الجديد: كان العام الجديد يأتي مصحوبا بالابتهاج الشعبي وبالطقوس، التي كان أهمها طقس «الحمام الطقوسي» (لوتوري) للحيوانات وللناس. وبتلك المناسبة، كانت تُنشَد أشعار منها ما هو تقليدي ومنها ما هو مرتجل. وتاريخ السنة الجديدة، الذي يحسب وفق التوقيت القمري، يتقدم كل سنة.

٨١ - كانت جائزته نيل المجد: في الماضي السحيق، لم تكن تقدم جوائز كما يحدث اليوم، بل كان في إمكان بعض الأشخاص الذين يحبون الجياد أن يقدموا «هدايا للفرس» في شكل علف أو هدايا تقدم للحيوانات بصفة خاصة، وللدواب عامة. كان مالك الجواد يبيع حيواناته كي يشتري سرجا أو علفاً قصد تحسين حال مطيته.

٨٢ - موقف الملك: ملك هيلي ويويو، هنا، هو صورة للملك

النموذجي: شريف وذو ضمير ومهتم بسعادة رعاياه قبل أن يكون مهتما بسعادته الخاصة. لا يكفي بالنسبة إليه أن يقبل الشعب التضحية من أجله كي يقدم مصير ابنه على مصائر هؤلاء الشباب. ثمة دائما، وعبر كل الحكاية، تربية اجتماعية كاملة: الصورة التي يجب أن يكون عليها ابن وزوجة وزوج... إلخ. وهنا يُراد تقديم الصورة التي يجب أن يكون عليها ملك أو زعيم، يستحق هذا الاسم. لم تكن التربية الاجتماعية، فيما مضى، مفصولة عن التلقين، لأن هذا الأخير كان يُعِد الأفراد لما يجب أن يكون عليه السلوك الشامل، سواء تعلق الأمر بما هو اجتماعي أو بما هو فردي وروحي. الفصل، في الواقع، بين المقدس والدنيوي، لم يكن له من وجود. وكان للسلوك الروحي أثر على كل أمور الحياة. كان الإنسان يعيش مندمجا في المقدس.

٨٣ – ملكة العناكب: تعتبر العنكبوت أول حائكة لقنها جينو فن وأسرار الحياكة، تماما كما تعتبر الأرضة أول بناءة لقنها جينو فن البناء. حول رمزية الحِرَف (حداد/ حائك... إلخ)، انظر مقالتي «الموروث الحي» في المجلد الأول من التاريخ العام لأفريقيا، (من الأحسن في الطبعة الكاملة jeune Afrique / اليونسكو).

٨٤ – غومباو: كان الأسد الأسود، الذي كان موجودا بفولتا العليا (بوركينا فاسو)، أسدا آكلا للبشر، في حين أن الأسد الأحمر أو الأسمر، لم يكن يهاجم، في الغالب، إلا الحيوانات. وبصفة عامة، فإن الأسد يجسد القدرة والقوة المتوحشة. وبوصفه أسدا أسود، فإن قوته تلك تبدو كأنها مقرونة بالأذى.

سيلي ساديو، في كومين، بعد أن يعبر فرجات التعلُّم الاثنتي عشرة، يكون عليه، قبل أن يصبح معلما كبيرا، أن يجتاز امتحانا أخيرا: مصارعة الأسد الأسطوري غومباو والانتصار عليه. وعندما يمتطي الإله كوماسارا، هنا، غومباو الخطير ويتحكم فيه، فإن ذلك يشير إلى قدرته الخارقة.

٨٥ - ديكوري دياوو، ديافالدي، كوغولدي: هي، في الآن نفسه، شخوص أسطورية، وأسماء معلمين كبار وجدوا فعلا ولعبوا دورا مشرقا في سلسلة التلقين الفولانية (المذكورة أيضا في كومين. ص ٨٣). ديكوري دياوو، هو اسم امرأة عاشت، في غابر الأزمنة، في السنغال، على ضفاف نهر غامبي (غايوبيلي). كانت معلِّمة ملقنة فولانية كبيرة، كانت «معلمة حليب». وهي تذكر من بين أجداد أردو ديمبو، المعلم الأعظم لناحية موجير (السنغال)، الذي لقنني سنة ١٩٤٣ تقاليد الفولانيين الرعوية.

٨٦ - الشعاع البرتقالي: يكتشف سيلي ساديو، في كومين، وبالموازاة مع تعليمه، الشموس السبع التي توافق السمات السبع التي يعلو بعضها بعضا. وكل شمس ترسل شعاعا بأحد ألوان قوس قزح. الشعاع البرتقالي ينبعث من الشمس الخامسة.

٨٧ - النجوم الثمانية والعشرون: يستعمل الفولانيون النجوم الثمانية والعشرين لمعرفة التوقيت. وعبر انصرام السنة، يبزغ كل نجم، بالتتابع، لمدة ثلاثة عشر يوما، ويدوم نجم واحد أربعة عشر يوما، مما يجعل الحاصل ٣٦٥ يوما. لهذه النجوم الثمانية والعشرين علاقةٌ بالثمانية والعشرين إلها في المشهد الروحي الفولاني، وأيضا بمنازل القمر الثماني والعشرين.

المؤلف في سطور

أمادو همباطي با

- مالي الجنسية.
- ولد العام ١٩٠٠ وتوفي العام ١٩٩١.
- كاتب ومؤرخ وعالم أنساب وشاعر وراوي حكايات.
- أحد كبار المتخصصين في الثقافة «الفولانية» وفي التراث الأفريقي.
- اشتغل باحثا في المعهد الفرنسي الخاص بأفريقيا السوداء، ومقره بدكار.
- اشتغل بالمجلس التنفيذي لليونسكو من العام ١٩٦٠.

المترجم في سطور

محمد أحمد بنعبود

- من مواليد تطوان العام ١٩٥٧.
- حاصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة مولاي محمد بن عبدالله، فاس العام ١٩٨٣.
- دبلوم كلية علوم التربية من كلية علوم التربية - الرباط العام ١٩٨٤.
- دراسة الترجمة لسنتين: فاس (١٩٨٢)، والرباط (١٩٩١).
- له عدة ترجمات لعدد من الروايات الأجنبية منها: رواية «اغتيال الفضيلة» ورواية «مخالب الموت» ورواية «جيليبرت سينويه» ورواية «ابن النيل».
- له مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والمقالات التربوية والأدبية والحوارات المؤلفة والمترجمة في عدد من الصحف والمجلات الغربية والعربية.
- حصل على جائزة المباراة الوطنية للقصة القصيرة المغربية العام ٢٠٠٠.
- له رواية ومجموعة قصصية قيد النشر.

المراجع في سطور

عبود كاسوحة

- من مواليد القصير في سورية العام ١٩٣٨.
- حاصل على الإجازة في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق العام ١٩٦٣.
- عمل في الصحافة، كما عمل أيضا مدرسا للغة الفرنسية لفترة طويلة حتى العام ١٩٩٨.
- عضو في اتحاد الكُتّاب العرب، ومقرر جمعية الترجمة لعدة أعوام.
- ترجم كل الأجناس الأدبية والفكرية والفلسفية.
- تم تقليده وساما من السفارة الفرنسية بدمشق العام ٢٠٠٧، وكرمته جمعية الترجمة العام ٢٠٠٨.

الإصدار القادم

خرائط

(رواية)

تأليف: نور الدين فرح

ترجمة: د. محمد فرغل

مراجعة: د. ليلى المالح

ترجمت عن الإنجليزية

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	أرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندچي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سواقومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت



حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال

نقـدم للقـارئ الكريم في هذا العدد أسـطورة من أسـاطير الأدب الأفريقـي «كايدارا» الواردة في كتاب «الحكايات التلقينية الفولانية». وتعتبر من حكايات الشـعب الفولاني المسـلم المنتمي إلى دولة مالي، بالإضافـة إلى أسـطورة «نجدو ديوال، أم الكارثة» من الكتاب السـابق نفسـه، كمـا نضع أمامك أيها القارئ «حكايـات حكماء أفريقيا» التي تحتوي عدة حكايات أسطورية ذات بعد عميق.

يواصل أمادو همباطي با مؤلف تلك الحكايات والأساطير مهمته في تسـريب قيم إنسـانية سامية، يتقاسـمها البشر باختلاف ألوانهم وأعراقهم وثقافاتهم، على لسان حيوانات – في الأغلب – وعلى لسان بشر في علاقاتهم بهذه الحيوانات، ضمن حكايات تمتزج فيها أحداث قـد توهم أحيانـا بالواقعية، لكنها في الأغلـب تتخذ طابعا عجائبيا للخيال المجنح.

لذلـك، نجد أن ما يميز أسـطورة «نجدو ديـوال» هو كثرة أحداثها وتسلسـلها، لتنسـج في النهاية حكاية الثنائيـة الخالدة في حكايات أفريقيا وبقية الأمم وخرافاتها، وهي ثنائية الخير والشر. أما حكايات حكماء أفريقيا العشر فتعالج قيما جديدة شرا وخيرا.

ويمكننـا أن نشـير فـي هـذا الموجز إلى مقطع شـيق من أسـطورة «نجـدو ديـوال، أم الكارثة» - وهو مقطـع صراع الفتـى باغوماويل مع نجدو ديوال والنيل منها عن طريق إلحاق الأذى ببناتها – والتي لها شـقيقة أوروبية تحمل غالبية ملامحهـا، وأقصد بها حكاية «الأَبْيَهم الصغيـر»، حيـث ذلك الكشـف العجيب وهذا التشـابه يحتاجان إلى أبحـاث تسـبر أغوار تاريخ الإنسـان فـي أزمنة سـحيقة انعدمت فيها وسائل الاتصال، فهي في أغلب الأحيان أساطير ومعتقدات.

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٤٩
ردمك: ٠-٣٨٨-٠-٩٩٩٠٦